



جامعة العقيد أكلي محند أولحاج-البويرة-

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم علوم الاعلام والاتصال

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص اتصال وعلاقات عامة

استمولوجيا علوم الاعلام والاتصال

تقديم: الدكتورة ليلي كرفاح أستاذ محاضر-ب-جامعة العقيد أكلي محند أولحاج

موجهة لطلبة ماستر 1: تخصص علاقات عامة



السنة الجامعية: 2025-2026



مستخرج من محضر اجتماع المجلس العلمي للكلية

بتاريخ: 2026-06-24

بناء على تقارير الخبرة الايجابية حول المطبوعة البيداغوجية
الموجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص اتصال وعلاقات
عامة بعنوان ابستومولوجيا علوم الإعلام والاتصال "
من تقديم الأستاذة كرفاح ليلي. من قسم علوم الإعلام
والاتصال

صادق المجلس بالإجماع على المطبوعة

رئيس المجلس العلمي

المجلس العلمي
الكلية الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الوطنية للعلوم الإنسانية
البويرة
المجلس العلمي
الكلية الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الوطنية للعلوم الإنسانية
البويرة
المجلس العلمي
الكلية الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الوطنية للعلوم الإنسانية
البويرة

فهرس المحتويات:

المحور الأول: تشكّل المعرفة العلمية من الفلسفة إلى الاستمولوجيا		
11-4	جذور المعرفة العلمية في الفلسفة اليونانية 1-المدرسة الطبيعية (طاليس، أنكسيماندر، هيراقليطس، انكسيماس) 2-مدرسة الحكمة (سقراط، أفلاطون، أرسطو)	المحاضرة الأولى
24-12	الحداثة ويزوغ العقل العلمي 1-تأثير الفكر الإسلامي 2-الاتجاه العقلاني 3-الاتجاه التجريبي	المحاضرة الثانية
29-25	من براديجم التبسيط إلى براديجم التعقيد 1-براديجم التبسيط 2براديجم التعقيد	المحاضرة الثالثة
المحور الثاني: التموجات الاستمولوجية الكبرى لدراسة التحولات المعرفية		
39-30	مدخل للاستمولوجيا 1-تعريف الاستمولوجيا 2-علاقتها بالمفاهيم المشابهة	المحاضرة الرابعة
46-42	علاقة الاستمولوجيا بالحقول المعرفية الأخرى	المحاضرة الخامسة
50-46	العلم والاستمولوجيا: بين النقد والهيمنة	المحاضرة السادسة
64-43	الاتجاهات الاستمولوجيا 1-غاستون باشلار 2-كارل بوبر 3-توماس كوهن 4-باول فيرابند 5-ميشال فوكو	المحاضرة السابعة
المحور الثالث: أهمية الاستمولوجيا في علوم الإعلام والاتصال		
70-66	مأسسة علوم الإعلام والاتصال	المحاضرة الثامنة
72-71	نشأة البحث في علوم الإعلام والاتصال	المحاضرة التاسعة
المحور الرابع: المدارس الاستمولوجية الاتصالية الكبرى ونماذجها		
78-74	المدرسة الوضعية ونماذجها الاتصالية	المحاضرة العاشرة
89-79	المدرسة النسقية ونماذجها الاتصالية	المحاضرة الحادي عشر
91-90	المدرسة البنائية ونماذجها	المحاضرة الثاني عشر
95-92	الاستمولوجيا، علوم الإعلام والذكاء الاصطناعي	المحاضرة الثالث عشر
الخاتمة		
قائمة المراجع		

فهرست الأشكال:

الصفحة	العنوان	الشكل
57	مخطط يوضح العوائق الاستمولوجية في نظرية المعرفة لغاستون باشلار	01
63	مخطط يوضح تطور المعرفة العلمية عند كارل بوبر	02
64	مخطط يوضح التفاعل والتفتح بين العوالم حسب تصور كارل بوبر	03
69	مخطط يوضح مراحل بناء براديغم ومبدأ اللامقايضة المعرفية	04
88	مخطط يوضح نموذج شانون وويفر	05
95	مخطط يوضح حالات الأنا	06
98	مخطط يوضح نموذج شرام	07

مقدمة عامة:

تأتي هذه المطبوعة البيداغوجية في إطار تدريس مقياس ابستمولوجيا علوم الإعلام والاتصال لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص اتصال وعلاقات عامة. تعتبر هذه المطبوعة محاولة أكاديمية لتوضيح الأسس الفلسفية والمعرفية التي تقوم عليها مناهج البحث ونماذج التفكير في ميدان الإعلام. وقد تم إعدادها بصيغة مبسطة وواضحة تراعي احتياجات الطلبة، مع الحرص على إبراز البعد الفلسفي دون إغراقهم في التعقيد الذي يميز الأدبيات الأصلية في هذا الحقل.

إنّ تدريس الإبستمولوجيا داخل تخصص الإعلام يعدّ مهمة صعبة بطبيعتها، لكون الطلبة غالباً ما ينفرون من المصطلحات الفلسفية الثقيلة، ويعتبرونها بعيدة عن التطبيق الإعلامي المباشر. لذلك حاولنا في هذه المحاضرات تقديم المادة بشكل تدريجي، يربط بين التطورات التاريخية للفكر العلمي وبين النماذج الاتصالية التي يدرسونها في مسارات أخرى، بما يسمح لهم بفهم كيف تشكلت هذه النماذج، ولماذا اتخذت شكلها الحالي، وإلى أي حد تعكس خلفيات معرفية متباينة.

ولم يكن الهدف من هذه المطبوعة إنتاج "نظرية جديدة" أو "قراءة غير مسبقة"، بل توفير مرافقة معرفية منهجية تساعد الطالب على الانتقال من مستوى حفظ المعلومات إلى مستوى إدراك العلاقات بين الأفكار، ومن مستوى التعامل مع النماذج بشكل تقني إلى فهم جذورها الفلسفية: الوضعانية، النسقية، البنائية، والتحويلات الراهنة في عصر الذكاء الاصطناعي. ومن ثمّ، فهي مادة تعليمية ترافق الطالب في الفهم والتحليل أكثر مما تطمح إلى تقديم إضافة نظرية كبرى. وقد تم الاعتماد على جملة من المراجع الأساسية في الإبستمولوجيا وفلسفة العلم وفلسفات الإعلام، مع تبسيطها وتكييفها مع السياق الأكاديمي الجزائري، مراعاة للفوارق اللغوية والمنهجية. إنّ هذه المحاضرات هي أساساً خلاصة لتجربة تدريسية ومجهود بحثي متواضع، الغاية منه تمكين الطالب من رؤية مبسطة لطبيعة المعرفة الإعلامية وما يحددها من مناهج، وما يطرأ عليها من تحولات في ظل التطور التكنولوجي. وتتمثل أهم أهداف المقياس في:

1- الهدف العام للمقياس: يهدف هذا المقياس إلى تمكين الطالب من فهم الأسس الإبستمولوجية التي قامت عليها علوم الإعلام والاتصال، وتحليل التحويلات المعرفية التي عرفت، بما يسمح له بإدراك طبيعة الظاهرة الاتصالية وتطور مناهج دراستها.

2- الأهداف المعرفية: يسعى المقياس إلى تمكين الطالب من:

- التعرف على المفاهيم الإبستمولوجية الأساسية (العلمية، السببية، الموضوعية، الفاعل، النظام، المعنى...)
- فهم الخلفيات الفلسفية للنماذج الاتصالية (الوضعانية، النسقية، البنائية)
- إدراك طبيعة القطيعة والتحويلات المعرفية في دراسة الظاهرة الاتصالية.

-التمييز بين منطق التفسير ومنطق الفهم في البحث الاتصالي.

3-الأهداف المنهجية: يهدف المقياس إلى:

-تدريب الطالب على تحليل النصوص والمقولات الإستمولوجية.

-تنمية القدرة على المقارنة بين النماذج النظرية المختلفة.

-تمكينه من توظيف المفاهيم الإستمولوجية في تحليل الظاهرة الاتصالية.

-تعزيز الوعي بشروط إنتاج المعرفة العلمية في مجال الإعلام والاتصال.

4-الأهداف التحليلية والنقدية: يسعى المقياس إلى:

-تنمية الحس النقدي اتجاه ادعاءات الحياض والموضوعية.

-تمكين الطالب من مساءلة المسلّمات النظرية السائدة.

-فهم العلاقة بين المعرفة والسياق الاجتماعي والثقافي.

-إدراك حدود كل نموذج نظري وإمكاناته التفسيرية.

بنهاية المقياس، يفترض أن يكون الطالب قادرا على تحليل الظاهرة الاتصالية انطلاقا من خلفياتها الإستمولوجية، مع التمييز بين المقاربات الوضعية والنسقية والبنائية، وتوظيف المفاهيم النظرية في قراءة القضايا الاتصالية المعاصرة.

تنبع أهمية هذا المقياس: في تأصيل التفكير الإستمولوجي في ميدان علوم الإعلام والاتصال، بوصفه مجالا معرفيا يحتاج إلى قراءة فلسفية ناقدة تتجاوز البعد التقني والإجرائي، فالحديث عن الإعلام لم يعد ممكنا بمعزل عن إطاره العلمي والفكري الذي يحدد شروط المعرفة ومناهجها وحدودها.

يسعى هذا المؤلف إلى توفير إطار بيداغوجي يساعد الطلبة والباحثين على فهم الأسس الفلسفية والمعرفية التي يقوم عليها الفكر الإعلامي، والتعرف على أبرز الاتجاهات الإستمولوجية التي أسهمت في تشكيل النظرية الإعلامية، من الوضعية والتفسيرية إلى النقدية وما بعدها.

1- العلاقة بين تطور الفكر العلمي ونشوء علوم الاعلام والاتصال

2- إبراز إسهامات فلاسفة العلم مثل كانط، باشلار، بوبر، فوكو، وكون في بناء الوعي العلمي الحديث

3- تعميق فهم الطلبة لمفهوم الإستمولوجيا وأهميتها في تحليل مناهج البحث الإعلامي.

4- تحفيز التفكير النقدي في قضايا الإعلام المعاصر، مثل المعرفة الرقمية، الذكاء الاصطناعي، وأزمة المصادقية الإعلامية

5- تقديم مادة تعليمية تساعد في تجسير الفجوة بين الدرس النظري والتطبيق الأكاديمي.

المحور الأول: تشكل المعرفة العلمية من الفلسفة إلى الاستمولوجيا

إنّ مسألة المعرفة لا تعدّ ترفاً فكرياً، بل هي الشرط الضروري لكل تفكير علمي نقدي. وإذا كانت الاستمولوجيا بوصفها "نقداً للمعرفة العلمية" تمثل إحدى أهم أدوات التفكير في شروط إنتاج العلم ومناهجه، فإنّ فهمها لا يمكن أن يتم خارج سياق تطور الفكر الفلسفي والعلمي عبر العصور. فالوعي الاستمولوجي لم ينشأ دفعة واحدة، وإنما تبلور تدريجياً من خلال تحولات عميقة في أنماط التفكير، منذ الفلسفة اليونانية، مروراً بالعصور الوسطى، ثم الحداثة، وصولاً إلى تشكّله كمجال فلسفي قائم بذاته في العصر المعاصر.

تسعى هذه المحاولة إلى إعادة بناء تصور عام عن سيورة تشكّل المعرفة العلمية، باعتبارها مساراً فلسفياً طويلاً ومعقّداً، لا يخلو من التوترات والصراعات بين المقولات الكبرى: العقل والإيمان، التجربة والبرهان، الذات والموضوع، الكوني والخصوصي. فمنذ بداياتها، ارتبطت المعرفة بالبحث عن تفسير للوجود والطبيعة والإنسان، وسرعان ما تطوّر هذا البحث ليصبح بناءً منهجياً يستهدف التنظيم والفهم والتفسير والتنبؤ.

لقد كانت الفلسفة اليونانية أول فضاء طرحت فيه مسألة المعرفة بوصفها قضية فلسفية مركزية. ثم جاءت العصور الوسطى لتربط المعرفة بالدين، فتخضعها للوحي واللاهوت، قبل أن يعيد العصر الحديث الاعتبار للعقل كأداة للتحقق واليقين. ومع الفكر النقدي الكانطي، بدأ الوعي بحدود المعرفة يتبلور، ليفسح المجال أمام نشأة الاستمولوجيا كفرع فلسفي يدرس العلم من داخل ممارساته.

إنّ الغرض من هذا المحور ليس فقط تتبع المراحل التاريخية لبناء المعرفة، بل أيضاً إبراز التحولات النوعية في فهم معنى "العلم" ذاته. فما كان يعدّ علماً في زمن ما، قد يعتبر رأياً أو وهماً في زمن آخر، والعكس صحيح. وهذا ما يجعل من الاستمولوجيا ضرورة لكل مشروع علمي، لأنّها تعلمنا ألا نأخذ المعرفة كمسلّمة، بل كمنتج مشروط، دائم القابلية للمراجعة. بهذا التأسيس، يمهد هذا المحور للانتقال من السؤال التاريخي: كيف تشكّلت المعرفة العلمية؟ إلى السؤال النقدي كيف "نفكر علمياً في الإعلام والاتصال؟"، وهو ما سنتناوله لاحقاً في المحاور القادمة.

الحاضرة الأولى: جذور المعرفة العلمية في الفلسفة اليونانية

حين نحاول تتبع الجذور الأولى للمعرفة العلمية في التاريخ، لا يمكننا أن نتجاوز الإرث الفلسفي اليوناني، بوصفه أول مشروع فكري حاول أن يفهم الكون والإنسان بعيدا عن التفسير الغيبي أو الأسطوري لقد دشن هذا الفكر تحولا نوعيا من التفكير الخرافي إلى السؤال العقلي، ومن سلطة الميتوس (الخطاب الأسطوري) إلى شرعية اللوغوس (الخطاب العقلي). وكان هذا التحول هو الذي وضع الأسس الأولى لظهور ما سيعرف لاحقا بالعلم، من خلال مقاربات فلسفية بحثت في أصل الأشياء، وطبيعة الحقيقة، ومصدر المعرفة. وتمثل المدرسة الطبيعية أول تعبير منهجي عن هذا التحول، حيث بدأ الفلاسفة الطبيعيون في بناء تصور عقلائي عن العالم يقوم على وحدة الأصل والبحث عن المبدأ الأول.

■ أولا: المدرسة الطبيعية – من الأسطورة إلى العقل

منذ لحظة التحول من التفسير الأسطوري إلى التفسير العقلي للكون، بدأت ملامح ما يمكن اعتباره بذورا أولى للمعرفة العلمية تتشكل في الفكر اليوناني القديم. وقد تجسّد هذا التحول لأول مرة مع ما يعرف "بالمدرسة الطبيعية"، وهي التي مثّلت أول محاولة منهجية لفهم العالم عبر البحث عن مبدأ كلي يفسر تنوع الظواهر وتحولاتها، دون اللجوء إلى الميثولوجيا أو التفسيرات الخارقة. لقد كان سؤال هذه المدرسة جوهريا: ما هو الأصل الذي تنبثق منه الأشياء جميعها؟ وكان الجواب رغم اختلاف صيغته من فيلسوف لآخر، مشتركا في منطلقه: الكون منظم، ويمكن للعقل أن يفهمه. وبذلك، دشن هؤلاء المفكرون أول خطوة في بناء التفكير العلمي، من خلال الإيمان بأنّ الظواهر الطبيعية ليست عشوائية، بل تخضع لمبدأ موحد يمكن تعقله.

1 - **طاليس:** يعد طاليس الملطي (546-624 ق.م) أول اسم يذكر عند الحديث عن البدايات العقلانية للفكر العلمي في الحضارة اليونانية. قدّمه الكاتبان (G.S. Kirki) و (J.E. Raven) بأنّه أول الفلاسفة الطبيعيين في التقليد اليوناني وأنّه يمثل أول الفلاسفة الطبيعيين في التقليد اليوناني وأنّه يمثل نقطة الانطلاق الحقيقية للتحول من الأسطورة (الميتوس) إلى العقل (اللوغوس).

يعدّ طاليس الملطي أحد الأسماء المؤسسة للفكر الفلسفي في الحضارة الإغريقية، وغالبا ما يقدّم في المصادر الكلاسيكية كأول الفلاسفة الطبيعيين. ولد في مدينة ميليتوس، إحدى مدن أيونيا على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، في بداية القرن السادس قبل الميلاد. وقد ساهمت هذه المدينة، التي كانت ملتقى للتجارة والثقافة بين الحضارات الشرقية واليونانية، في تشكيل أفاقه المعرفي، إذ تروي المصادر التاريخية أن طاليس سافر إلى مصر وبابل، وتأثر بالمعارف الهندسية والفلكية هنا، لكنه لم يكتف بالنقل بل مارس ما يسميه "برتراند راسل" أول لحظة نقدية للعقل الإنساني.¹

¹ - راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الجزء الأول، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الأول، الناشر مؤسسة هنداوي، 2017، ص 53.

تعتبر أطروحته التي يعتقد فيها "أنّ الماء هو أصل الأشياء"، أي أن كل الكائنات والظواهر تعود في جوهرها إلى عنصر مادي واحد. وقد نقل أرسطو هذه الفكرة في كتابه "الميتافيزيقا" باعتبارها أول تصور فلسفي لمبدأ كوني (Archè) غير غيبي، حيث كتب أن طاليس أول من بحث في هذه الأمور، يقول إن الأصل هو الماء، ولذلك فإن الأرض تطفو عليه.¹

هذه النقلة من الميتوس (الأسطورة) إلى اللوغوس (العقل والتفسير) لا تكمن فقط في الجواب الذي قدّمه طاليس، بل في نوع السؤال الذي طرحه، وفي أسلوب البحث الذي اتبعه. وهذا ما يجعل منه في نظر (Jonathan Barnes)*، نموذجاً للفكر الذي يبحث عن "نظام كامن خلف الظواهر"، أي عقل كوني يفهم من خلال الملاحظة والنظر، لا من خلال الأساطير والخرافات.² ولم يكن ذلك مجرد افتراض نظري، بل ارتبط أيضاً بمحاولات عملية؛ فقد نسب إليه هيرودوت توقعه لكسوف شمسي سنة 585 ق.م، في سابقة تظهر ميله إلى استخدام الملاحظة والخبرة كوسيلة للمعرفة.

أصبح من المنطق أن نطرح سؤالاً ألا وهو هل كان طاليس فعلاً عالماً بالمعنى الحديث؟ يناقش هذا السؤال الفيلسوف الفرنسي (Jean-Paul Dumont)* ويبرز أن طاليس لم يستخدم منهجاً تجريبياً كما نعرفه الآن، لكنه قام بخطوة تأسيسية حاسمة وهي البحث عن علّة طبيعية مادية لتفسير كل شيء. بحيث كان الماء بالنسبة له أكثر من مجرد سائل فيزيائي، بل مبدأ للخلق والتغيّر والحركة، لأنّه - كما يقول - يوجد في كل الكائنات الحية، ويتحول بسهولة إلى حالات أخرى (بخار، ثلج، سحاب). وهنا تظهر بداية التفكير في مفاهيم مثل التحول، الوحدة، الاستمرارية، وهي مفاهيم محورية في بناء النظرية العلمية.³ نسب طاليس الحياة إلى المادة ذاتها، حين اعتبر أنّ "كل الأشياء متمثلة بالآلهة"، في تعبير يمكن فهمه، كما يرى "إدوارد هوساي" (Edward Hussey) على أنه تصور أولي لفكرة الروح الكامنة في المادة أو "hylozoism" بمعنى أنه لا يوجد فصل بين المادة والقوة التي تحركها.⁴

يوضح (Hussey) أنّ "طاليس" وإن كان قد اختار الماء كمبدأ أولي، فإنّ وراء ذلك بحثاً عميقاً عن وحدة جوهرية للطبيعة تجعل منها نظاماً متسقاً ومفسراً ذاته. فطاليس لم يعتمد التفسير الأسطوري، بل انتقل بالعقل لبحث عن سبب واحد داخلي يعبر عن طبيعة الواقع. ويبين "هوساي" أنّ هذا الانتقال يبدأ حين يخلط طاليس بين دورة المادة والقوى المحركة داخلها؛ فقد رأى في الماء سبباً للحركة والتغير، أي بمثابة وقود أو مصدر للطاقة في العالم الطبيعي. ولذلك استأنس

¹ - أحمد السيد علي رمضان، الفلسفة اليونانية: (عرض ونقد)، دار الدراسات العلمية للدراسات والنشر، مكة المكرمة، السعودية، ط2، 2012، ص 296.

² - Jonathan Barnes, early Greek philosophy, <https://archive.org/details/earlygreekphilos00barn/mode/2up>

* جوناثان بارنز (Jonathan Barnes): فيلسوف ومؤرخ بريطاني معاصر، يعد من أبرز المتخصصين في الفلسفة اليونانية القديمة، خصوصاً فلاسفة ما قبل سقراط وأرسطو. ولد سنة 1942، ودرّس في جامعات أوكسفورد وجنيف وباريس. من أبرز أعماله كتاب "الفلسفة اليونانية المبكرة" الذي يعتبر مرجعاً مركزياً لفهم تطور الفكر الفلسفي في بداياته، حيث جمع فيه بين التحليل المفاهيمي والدقة التاريخية. يتميز أسلوبه بالصرامة الأكاديمية والقدرة على تقديم الفكر القديم بلغة حديثة واضحة، مما جعله مرجعاً أساسياً في دراسات الایستمولوجيا الكلاسيكية.

³ - Jean-Paul Dumont, les Présocratiques (PUF- collection Que sais- je ?, n°1270)

⁴ - Edward Hussey, the Presocratics, Duckworth, <https://plato.stanford.edu/archives/fall2023/entries/presocratics/>

بتجربتين حدثتا أمامه وهما المغناطيس يجذب الحديد، والرطوبة تغذي الحياة، ففسّر أنّ حتى الجمارد مفعمة بالحياة بوصفه متحركاً بفعل قوة داخلية.¹

يمكن القول أنّ أهمية طاليس لا تكمن في صحة أطروحاته، بل في تحوله إلى نموذج لتأسيس العقل التأملي في مواجهة الخرافة. وهذا ما عبّر عنه زكي نجيب محمود حين قال إنّ "طاليس" لم يفسّر ما يحدث بما هو غيبي، بل بما هو كائن في الطبيعة ذاتها، وبهذا منح الفلسفة الأوروبية مفتاحها الأول نحو التفكير العلمي.²

لا يقاس أثر طاليس بما قدّمه من أجوبة، بل بنمط التفكير الذي دشّنه، لقد كان أول من نظر إلى الكون بوصفه نظاماً يمكن فهمه بالعقل، لا إرادة غيبية تفرض من خارج. بمعنى أنّ السؤال تحوّل من "من يحدث الظواهر؟" إلى "كيف تحدث الظواهر؟"، رغم أنّ طاليس لم يستخدم منهجاً رياضياً صارماً، ولا قدّم براهين أو استدلالات منهجية دقيقة، إلّا أنّ رؤيته مثّلت لحظة تأسيسية لتقليد معرفي يقوم على الوحدة، والسببية والطبيعة، وهي ثلاثية ستتطور تدريجياً عبر "أنكسيماندر" "هيراقليطس" وصولاً إلى "أرسطو". إنّ "طاليس" بوصفه أو من سعى لربط الظواهر الطبيعية بعلة داخلية يمكن تعقلها، لا يزال حاضراً في خلفية كل تفكير علمي معاصر، لأنّه أرسى منهج السؤال قبل أن ترسم خرائط الجواب.

2- أنكسيماندر: 610-546 ق.م

يأتي "أنكسيماندر" ليحدث نقلة عقلية جوهرية في التفكير الفلسفي حول أصل الكون. وإذا كان طاليس قد بدأ بعنصر محسوس هو الماء، فإنّ أنكسيماندر سيذهب أبعد من ذلك؛ فالمبدأ الأول يجب ألا يكون محسوساً، بل غير محدود، غير مرئي، لا متناه. وهذا ما عبّر عنه بمفهومه المركزي "الآبيرون" (Apeiron) أي اللامحدود أو غير المعين. وقد شرح هذا المبهم أو اللامتناهي في كتابه "عن الطبيعة" حيث استبدل الماء الطاليسي بذلك الأساس الذي سماه اللامتناهي.

يقول "أنكسيماندر" أنّ أصل العالم المادة غير المتناهية وغير المحدودة لا في الكمية ولا في الكيفية. ويعتبر أنّ اللامتناهي "ديناميكياً" وبالنسبة إلى المادة المحدودة أو الكائنات الطبيعية "ميكانيكياً" لأنّ الحركة منبعثة من لدن الأول ومنصبية على الثانية.³

ينقل "أرسطو" في كتابه "الطبيعات" عن "أنكسيماندر" أنه قال:

¹ -Ibid, p8-10

² - زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، دار الشروق، 2017، ص 23.

*الكلمة يونانية مركبة من جزأين: hyle تعني المادة، zoe تعني الحياة ما يعني المادة الحية أما فلسفياً هو المذهب الذي يرى أن المادة في ذاتها تملك الحياة أو قوة الحياة.

³ - محمد غلاب، الفلسفة الإغريقية، القاهرة، ط1، 1938، صص 36-38.

"إن المادة غير المتشكلة غير المحدودة هي مبدأ الكون وعنصر الأشياء كلها، وهي ليست الماء ولا غير الماء مما يطلق عليه العناصر، بل هي شيء آخر له طبيعة لا يحدّها حد، لا يحيط بها عد، منه انبثقت الأفلاك كلها، وما تطل عليه العوالم، وما تكونت منه الأشياء الموجودة وخرجت إلى الوجود هو عين ما تستحيل إليه هذه الأشياء".¹

يعتبر "إدوارد هوساي" (Edward Hussey) أنّ أنكسيماندر هو أول من قدّم تصورا غير حسّي لأصل الأشياء، فاللا محدود لا يدرك بالحواس، ولا يمكن قياسه، لكنه يمثل أساسا عقليا منطقيا يفسر وجود الأشياء وتغيرها.² وبضيف هوساي أنّ هذه الخطوة لم تكن فقط ميتافيزيقية، بل تمهّد لولادة مفاهيم مثل "القانون الطبيعي" و "النظام الكوني"، وهي مفاهيم مركزية لا حقا في العلم الحديث.

يرى "جوناثان بارنز" (Jonathan Barnes) أنّ أنكسيماندر تجاوز أستاذه طاليس، عندما حاول تأسيس تفسير كوني شامل لا ينتمي إلى أي عنصر مادي خاص. فال Apeiron لا ماء ولا هواء ولا نار، بل شيء لا حد له، تنبع منه الأشياء وتعود إليه وفق نوع من الدين الكوني.³

لم يكن أنكسيماندر منشغلا بالمادة فقط، بل بفكرة العدالة الكونية التي تضبط العلاقات بين العناصر، فحين يهيمن عنصر على آخر، يكون قد تجاوز حقه، ويعود إلى Apeiron ليدفع الثمن، في نوع من الميزان الكوني الأخلاقي الطبيعي. وهذا ما يراه "دومون" محاولة مبكرة جدا لوضع قانون فيزيائي أخلاقي يحكم العالم.⁴

يصف "برتراند راسل" أنكسيماندر "بالفيلسوف الأول الذي فكر في أنّ المبادئ الأولى لا ينبغي أن تختزل في أشياء مألوفة، بل في مطلقات عقلية لا يدركها الحس. ويعتبر أنّ هذا الفيلسوف ذو إضافة قيّمة تكمن في كونه أول من قدّم نظرية في نشأة الكون وفنائه ضمن إطار من قوانين طبيعية."⁵

إنّ أهمية "أنكسيماندر" في تاريخ تشكّل المعرفة العلمية لا تكمن في مضمون أطروحته فقط، بل في نوعية الانتقال المعرفي الذي أحدثه. فقد تجاوز الملموس إلى المجرد، والمحسوس إلى العقلي، حين اقترح أنّ مبدأ الكون ليس عنصرا من بين العناصر، بل "اللا محدود" الذي لا بداية له ولا نهاية. هذا الطرح وإن بدا غامضا يعتبر خطوة تأسيسية في بناء نموذج عقلائي للطبيعة، حيث يفهم التغير لا على أساس الفوضى، بل ضمن إطار من النظام الكوني الذي تحكمه علاقات دقيقة تشبه ما سيعرف لاحقا.

¹ - كورد باتريشيا، فلاسفة ما قبل سقراط، موسوعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة مشرف بك أشرف، على الرابط الإلكتروني، <https://hekma.org/wp-content/uploads/pdf> تم الاطلاع عليه بتاريخ 22-10-2025، ص 11.

² - Hussey, Edward, *the presocratic*, London: Duckworth, 1972, p 28-31.

³ - Barnes, Jonathan, *Early Greek philosophy*, London: Penguin books; 1987, pp. 19-25.

⁴ - أحمد السيد علي رمضان، مرجع سابق الذكر، ص 18

- راسل برتراند، مرجع سابق الذكر، ص 56.⁵

3-انكسيماس (528-585 ق.م):

يعدّ انكسيماس ثالث فلاسفة المدرسة الأيونية بعد طاليس وأنكسمندر، ويمثّل حلقة مهمّة في تطوّر التفكير الطبيعي المبني على البحث عن عنصر أوليّ يفسّر نشأة العالم. وإذا كان طاليس قد اعتبر الماء أصل الأشياء، وأنكسمندر اقترح "اللامحدود" (Apeiron)، فإن انكسيماس اتجه إلى الهواء باعتباره المبدأ الكوني الذي تنبثق عنه جميع الموجودات. لقد رأى أنّ الهواء ليس عنصرا بسيطا فحسب، بل هو مادة حيّة تننفسها الكائنات ويقوم عليها انتظام الكون، وهو في حالة ديناميكية مستمرة من الكثافة والرقّة¹.

اعتبر انكسيماس أنّ الهواء هو الجوهر الأول الذي يتخلّل كل شيء، وأنّ اختلاف الموجودات ليس اختلافا في الطبيعة، بل في درجة تكاثف الهواء أو تخلخله. فحين يتخلخل يتحوّل إلى نار، وحين يتكاثف يصبح ريحا، ثم سحابا، فماء، فترابا، ثم حجرا. وهذه السلسلة تمثّل أول محاولة في تاريخ الفكر لوضع قانون طبيعي يربط التحوّلات المادية بعمليات فيزيائية قابلة للملاحظة، دون اللجوء إلى الأساطير أو القوى الخارقة. بهذا التفسير، وضع انكسيماس أسس واحدة من أهم الأفكار العلمية: فكرة التدرّج المادي (gradation) كمصدر للتنوّع في الطبيعة².

يتّضح من فكر انكسيماس أنه كان يدرك أنّ الكون يخضع لآليات يمكن فهمها بالعقل. فبدل أن يفسّر الظواهر بقوى غيبية، اعتمد على التفسير الآلي (mechanistic explanation)، أي البحث عن العلاقات السببية بين الظواهر. لذلك كانت آراؤه حول تكاثف الهواء وتخلخله نموذجا مبكرا لمحاولة فهم التحوّلات وفق قوانين مادية ثابتة. وهذه الفكرة ستلهم لاحقا الفكر العلمي في مختلف مراحله وصولا إلى الفيزياء الحديثة، لأنها تقدّم تصورا أوليّاً لعلاقة البنية بالمادة.

ومن أهم أفكاره مفهوم وحدة العنصر الطبيعي الذي تنشأ عنه الكثرة. فالعالم، في نظره، ليس فوضى من العناصر المتباينة، بل بناء متماسك يقوم على مبدأ واحد يتخذ أشكالا متعدّدة. هذا التصرّوّ يقدم خطوة فلسفية متقدمة في فهم وحدة الوجود الطبيعي، ويعيد ترتيب علاقة الإنسان بالكون: فالإنسان نفسه يعيش بالهواء ويعتمد عليه، وبالتالي فهو متصل بالعالم من خلال نفس العنصر الذي يتشكّل منه الكون.

ما قدّمه انكسيماس لا يقاس بمدى صحة فرضياته الفيزيائية، بل بقدر الجرأة المفهومية التي جسّدها في تاريخ المعرفة. فقد ساهم في:

- تأسيس التفكير الطبيعي خارج الأسطورة.

¹ - محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون)، ص 53.

² - أحمد أمين وزكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص 25.

-الربط بين المشاهدات والتفسيرات الكونية.

-صياغة مبدأ للتحوّل يعتمد على قوانين مادية.

-تقديم أول تصور لآليات التغيّر في الطبيعة (الكثافة والرقّة).

وبذلك يكون قد مهّد الطريق لتحوّل الفلسفة من تأملات كونية غامضة إلى بحث عقلائي.

4 -هيراقليطس (480-540 ق.م):

كان هيراقليطس من مدينة أفسوس، وعاش حوالي 500 ق.م أي بحوالي ثمانين سنة بعد طاليس. إنّ الفكرة المركزية عند هيراقليطس هي فكرة الصيرورة، الأشياء في تغير مستمر "إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين" وذلك لأن مياهه تتجدد باستمرار لا شيء ثابت ولو للحظة واحدة.

لما قال هيراقليطس إن كل شيء في حالة دائمة من التغير أو التدفق المستمر، فهو يعني أنّ:¹

1- كل شيء هو في حالة تدفق مستمر ولكن؛

2-التغير يحدث وفقا لقانون ثابت؛

3-وهذا القانون يشمل تفاعلا بين أضداد،

4-ولكن بطريقة يخلق ذلك التفاعل انسجاما بين الأضداد، عندما ينظر إليه كله.

يرى هيراقليطس أنّ النار هي المبدأ الأساسي الذي يتألف منه الوجود حيث جعل هذه النار ذات طابع لاهوتي وذلك عندما أضفى عليها صفة الألوهية، فقد رفض هيراقليطس أن يكون الكون ثابتا؛ فلا استقرار عنده موت وعدم، أما التغير فهو عنوان الوجود وحقيقته. ويتم صدور الموجودات عن النار عن طريق مبدأين، هما مبدأ التنازع ومبدأ الانسجام، حيث أن الأشياء تتحول الأضداد منها إلى الأضداد الأخرى فالأشياء المتقابلة أو المتضادة هي التي ينشأ منها الوجود، وبذلك يكون مصدر الوجود هنا مبدأ التنازع، إلّا أن هذه الأشياء لا تستمر في هذا النزاع بل تعود إلى شيء من الوحدة، وكان هناك مبدأ واحد يسيطر على التغير باستمرار وهذا المبدأ يسميه هيراقليطس بالقانون أو اللوغوس. وهذا القانون أو اللوغوس هو القانون العام الذي يسير عليه الوجود دائم السيلان، وهو الإله أو النار.²

يرى هيراقليطس أنّ العالم في تغير مستمر، ولا يوجد شيء باق على الإطلاق، فالقانون العام الذي ينظم الوجود هو التغير، وعدم الثبات، والتجدد المستمر، فكل شيء في سيلان دائم، ونحن موجودون وغير موجودين، وكما يوجد الواحد

¹ - نلز غيلجي، غنار سكريبك، تاريخ الفكر الغربي: من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012، ص51-52.

² - جميل خليل نعمة المعلمة، الألوهية في الخطاب الفلسفي قبل سقراط، مجلة كلية الفقه، المجلد 2، العدد 3، 2006، ص94، 93، 92، 95، 96.

عن الأشياء جميعاً، كذلك الأشياء تصدر عن الواحد. والإله هو النهار والليل، والصيف والشتاء، والسلام والحرب. فالفكرة الرئيسية عند هيراقليطس هي فكرة الحركة، ومبدأ وحدة الأضداد، والتوازن البنيوي الذي يحكم هذه الحركة، وهذا التغير، فجوهر الوجود عنده هو الحركة والتغير المتواصلين، لذلك يقول: "كل شيء ينساب ولا شيء يسكن، كل شيء يتغير، ولا شيء يدوم على الثبات".¹

يعتبر هيراقليطس بذلك من أبرز الفلاسفة الطبيعيين الذين قدّموا انعطافه نوعية في الفكر اليوناني، حيث انتقل بالتفكير من التساؤل عن "مم يتكون الكون؟" إلى "كيف يعمل ويتحوّل؟" وهو تحول نوعي في أنطولوجيا المبدأ إلى ابستمولوجيا التغير. ولقد وصفه "برتراند راسل" بأنه "أول من أدرك أنّ التغير هو حقيقة الوجود الأساسية، وأنّ كل ما يبدو ثابتاً هو في جوهره متحول، وأكد أنّ هذا التحول لا يلغي وجود النظام، بل يكشف أن النظام نفسه دينامي وجدي، وليس ساكناً".²

لقد حظي هيراقليطس باهتمام بالغ في العصر الحديث خاصة عند هيجل وفي الفلسفة الماركسية لأنّه أول من أكّد حقيقة الصراع والتغير في الوجود وأول من عارض منطق الثبات الصوري بمنطق حركي دياكتيكي مطابق للواقع.

ثانياً: تأسيس العقل اليوناني: الحوار، المثل والمنطق

—سقراط: الولادة الأولى لسؤال المعرفة

يعدّ سقراط نقطة التحوّل المركزية في تاريخ الفكر الغربي؛ إذ نقل الفلسفة من البحث في الطبيعة كما كان عند الفلاسفة ما قبل السقراطيين إلى البحث في الإنسان والمعرفة والأخلاق. وقد كان جوهر مشروعه الفلسفي قائماً على إعادة تعريف المعرفة انطلاقاً من شعاره الشهير: "أنا لا أعلم شيئاً". هذا الاعتراف لم يكن موقفاً سلبياً، بل كان تمريناً ابستمولوجياً يجعل الجهل بداية الوعي، ويجعل البحث عن الحقيقة عملية حوارية لا تبنى على الادّعاء، بل على التفكيك عبر منهجه المعروف فن التوليد.

خلال هذا المنهج، أسس سقراط لأوّل تصور معرفي يربط بين الفحص النقدي والسؤال الفلسفي، واعتبر أنّ الحقيقة لا تقدّم جاهزة بل تنتزع عبر الحوار، وأنّ العقل قادر على بلوغها عندما يتمرن على التفكير المنهجي. وهكذا عدّت السقراطية بداية تأسيس معنى "المعرفة المبرهنة" التي ستصبح لاحقاً ركيزة أساسية في الإبستمولوجيا.

¹ - ناهد إبراهيم محمد محمد، قراءة جديدة لفلسفة هيراقليطس في ضوء تصور الحداثة السائلة عند زيجموند: باومان: دراسة تحليلية نقدية مقارنة في الأصول اليونانية للحداثة، مجلة البحث العلمي في الآداب، الجزء العاشر، العدد 19، سنة 2018، ص 7-8.

² - راسل برتراند، مرجع سابق الذكر، ص 76-77.

2- أفلاطون: الحقيقة بين العالم الحسي وعالم المثل

جاء أفلاطون ليطور الإرث السقراطي ويمنحه بنية ميتافيزيقية متماسكة عبر نظريته الشهيرة في المثل. وفي "أسطورة الكهف" ضمن كتاب الجمهورية قدّم واحداً من أهم التصورات في تاريخ نظرية المعرفة: فالإنسان يعيش في عالم من الظلال، عالم الخواص الذي لا يمنحه سوى معرفة ناقصة ومشوّهة. أما الحقيقة، فهي موجودة في عالم أعلى، عالم المثل، الذي لا يدرك إلا بالعقل.

تعدّ أسطورة الكهف من أشهر التصورات الفلسفية التي قدّمها أفلاطون لتفسير طبيعة المعرفة. يروي أفلاطون قصة سجناء في كهف لا يرون طوال حياتهم سوى ظلال الأشياء المنعكسة على الجدار أمامهم، فيعتقدون أنّ الظلال هي الحقيقة. وعندما يخرج أحدهم إلى الخارج ويرى العالم الحقيقي بنوره وأشكاله، يدرك أنّ ما كان يراه داخل الكهف لم يكن سوى ظلال الأشياء المنعكسة على الجدار أمامهم، فيعتقدون أنّ الظلال هي الحقيقة وعندما يخرج أحدهم إلى الخارج ويرى العالم الحقيقي بنوره وأشكاله، يدرك أنّ ما كان يراه داخل الكهف لم يكن سوى أوهام.

تظهر هذه الأسطورة أنّ المعرفة عند أفلاطون تشبه رحلة صعود من الظلال إلى النور، من الرأي إلى العلم، من الحسي إلى العقلي. إنها عملية تحرّر من الوهم، يقوم فيها العقل على تجاوز المعطيات الحسية وبلوغ جوهر الأشياء. وبذلك أسهم أفلاطون في غرس فكرة أنّ المعرفة بناء عقلي وأنّ الحقيقة لا تدرك إلا بالاستدلال، وهي فكرة ستؤسّس لاحقاً للعلم العقلي في الفلسفة الكلاسيكية وللتقاشات الإستمولوجية الحديثة¹.

3- أرسطو: تأسيس المنطق الصوري كأداة للمعرفة اليقينية

يمثّل أرسطو المرحلة الثالثة في هذا البناء الفلسفي، حيث انتقل من النظر العقلي المجرد إلى وضع قواعد صارمة للتفكير عبر تأسيسه للمنطق الصوري، الذي ظلّ لقرون طويلة الأداة الرئيسية لتنظيم المعرفة العلمية. بالنسبة لأرسطو، المعرفة الحقيقية تقوم على البرهان، والبرهان يقوم على مقدمات يقينية تؤدي بالضرورة إلى نتائج يقينية. وبذلك أصبح المنطق آلة للفكر، تضمن صحة الاستدلال وتضبط العلاقة بين المفاهيم. كما ربط أرسطو بين التجربة والحسّ من جهة، والعقل من جهة أخرى، مؤسساً لتصور معرفي لا يتحقق إلا عبر تنظيم المفاهيم وضبط القوانين وإخضاع الاستدلال لمعايير موضوعية².

في ختام هذه المحاضرة، يمكن القول أنّ العودة إلى الفكر اليوناني يكشف أنّ نشأة المعرفة العلمية لم تكن حدثاً مفاجئاً، بل مساراً تدريجياً بدأ مع محاولة تحرير التفكير من التفسير الأسطوري للعالم. فقد دشّنت المدرسة الطبيعية مع طاليس وأنكسمندر وأنكسمانس انتقالاً نوعياً من منطق السرد الميثولوجي إلى البحث عن مبدأ أول يفسّر انتظام الكون وفق قواعد عقلية. ومع هيراقليطس تعمّق الوعي بحركية الواقع وقانون التغير، مما رسّخ فكرة أنّ الطبيعة تخضع لمنطق يمكن إدراكه بالعقل.

¹ - عبد الغفار مكاي، مدرسة الحكمة، مؤسسة هندواي للنشر، 2018، ص 25-26.

² - زهور حمر العين، صورة المنطق الأرسطي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، فيفري 2020، ص 64.

غير أنّ التحول الأعماق تم مع سقراط الذي نقل مركز الاهتمام من الطبيعة إلى الإنسان والمعرفة ذاتها، مؤسسا لبعء نقدي يقوم على مسألة المسلمات. ثم جاء أفلاطون ليؤسس لتصور معرفي يقوم على التمييز بين عالم الحس وعالم المثل، مانحا العقل مكانة سامية في إدراك الحقيقة. أما أرسطو فقد وضع اللبنة الأولى للمنهج المنطقي عبر تنظيم قواعد الاستدلال والبرهنة، مما مثّل خطوة حاسمة في تقنين التفكير العقلاني.

تبلور بهذا المسار، أهم الشروط الأولية للمعرفة العلمية والتي تتمثل في الإيمان بانتظام العالم، أولوية العقل، البحث عن العلل، وتنظيم الاستدلال. ومع ذلك ظلّ هذا العقل مرتبطا بتصور ميتافيزيقي للعالم، ولم يبلغ بعد مرحلة القطيعة مع المرجعيات اللاهوتية أو التأملية التي ستطبع العصور اللاحقة.

من هنا يبرز السؤال الذي ستحمله المحاضرة الموالية والذي يتمثل فيما يلي: كيف انتقل العقل من التأمل الفلسفي إلى العقل العلمي الحديث؟ وما الذي ميّز لحظة الحداثة حتى تعدّ ميلادا فعليا للعلم بمعناه الدقيق؟ إنّ تتبع هذا التحول من اللوغوس اليوناني إلى العقلانية الحديثة سيكشف أنّ بزوغ العقل العلمي لم يكن استمرارا بسيطا، بل إعادة تأسيس لمنهج المعرفة وشروطها.

المحاضرة الثانية: الحداثة وبزوغ العقل العلمي

تكتسب هذه المحاضرة أهمية كبيرة للطلاب لأنّها توضح كيفية تطور أدوات التفكير والمنهج العلمي عبر العصور، وتبيّن أنّ العلم الحديث لم يظهر فجأة، بل هو نتيجة تراكم معرفي وتجريبي مستند إلى فلسفات متباينة. كما تساعد المحاضرة الطالب

على تمييز أساليب المعرفة المختلفة، وفهم العلاقة بين التجربة العقلية والحسية، وهو ما يعدّ أساسا لفهم الظواهر المعقدة لاحقا في مجالات العلم.

تمنح هذه المحاضرة الطالب القدرة على استيعاب التحولات الفكرية الكبرى التي أدت إلى تأسيس العقلانية العلمية، وفهم كيف يمكن للمعرفة المنهجية المنظمة أن تكون أداة في دراسة الظواهر المعاصرة.

- بدايات الحداثة:

شكّلت الحداثة مرحلة فارقة في تاريخ الفكر الإنساني، إذ مثّلت لحظة تحول ابستمولوجي عميق انتقل فيها العقل الأوروبي من الخضوع لسلطة الميتافيزيقا والآلهوت إلى استقلال المعرفة العلمية عن المرجع الديني والفلسفي. فقد أعيد النظر في طبيعة الحقيقة ومصادرها، وتغيّرت صورة العالم من كون مفعم بالأسرار والغايات إلى كون منظم يمكن تفسيره وفق قوانين عقلية وتجريبية.

لقد جاءت الحداثة استجابة لحاجة تاريخية وفكرية إلى بناء يقين جديد بعد انهيار النسق المدرسي الوسيط، فبرزت دعوات إلى تأسيس معرفة يقينية تعتمد على المنهج باعتباره الضامن لصدق النتائج، سواء أكان منهجا عقليا رياضيا كما عند ديكارت، أو تجريبيا استقرائيا كما عند فرانسيس بيكون، أو تركيبيا نقديا كما عند إيمانويل كانط لاحقا.

إنّ هذه المرحلة مثّلت ما يعرف بـ "العقل العلمي الحديث"، الذي جمع بين الملاحظة والتجريب والبرهان العقلي، وأسّس لظهور الثورة العلمية الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ثم لما سيعرف لاحقا بفلسفة العلم والابستمولوجيا الحديثة.

إنّ دراسة هذه اللحظة الفكرية لا تقتصر على تتبع التحول المنهجي فحسب، بل تمتد إلى فهم الأسس الفلسفية التي أعادت تعريف المعرفة والعقل والحقيقة في سياق جديد قوامه التقدم والسيطرة على الطبيعة والإنسان. ويجب الإشارة أنّ تشكّل الحداثة الأوروبية وبزوغ العقل العلمي الحديث لم يكن انقطاعا مفاجئا عن الماضي بل كان ثمرة تراكم تاريخي طويل شاركت فيه الحضارة الإسلامية بعمق قبل أن تتبلور التوترات الداخلية الأوروبية بين الكنيسة والعلم، ثم النزعتين التجريبية والعقلانية داخل الفلسفة الحديثة. ومن ثمّ فكل قراءة جادة للحداثة العلمية في أوروبا لا يمكن أن تتجاهل دور الحضارة الأندلسية في نقل المعارف والديناميات الفكرية التي أعادت صياغة سؤال الحقيقة. حيث عاشت أوروبا في أواخر العصور الوسطى، تحت هيمنة فكرية وروحية واسعة للكنيسة، التي احتكرت سلطة تفسير الحقيقة والمعرفة عبر ما تقدمه المدرسة السكولائية من فلسفة وفكر؛ مع العلم أنّها منظومة مزجت بين الآلهوت المسيحي والأرسطية، وجعلت النص المقدّس المرجع الأعلى لمعرفة الطبيعة والإنسان.¹

¹-Toulim, S, *Cosmopolis : The Hidden Agenda of Modernity*, University of Chicago Press,p34,

يحظى إسهام الحضارة الإسلامية، وخاصة الأندلس بأهمية محورية في فهم التحول الكبير الذي عرفته أوروبا بين نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة. فقد مثل الفضاء الإسلامي وفق ما يبيّنه "جورج سارتون" ¹ الجسر الذي عبرت من خلاله أوروبا إلى العلم العقلاني. ويؤكد سارتون أنّ المرحلة الممتدة بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين كانت بمثابة "العصر الذهبي للعلم الإسلامي"، حيث تبلورت علوم الفلك والطب والرياضيات والبصريات والمنهج التجريبي، وهي علوم ستنتقل لاحقا إلى أوروبا عبر صقلية والأندلس.

يبرز "جورج مينوا" في كتابه الكنيسة والعلم أنّ أوروبا في أواخر العصور الوسطى كانت تعيش تحت قبضة معرفية وروحية قوية للكنيسة، التي هيمنت على أنماط التفكير ورستخت الفلسفة المدرسية بوصفها المرجع الأعلى للحقيقة. فقد تمّ تقييد العقل داخل التفسير الديني، فأصبحت المعرفة خاضعة للسلطة العقائدية التي قدّمت الحقيقة كمعطى مكتمل لا يحتاج إلى اختبار أو مراجعة.²

غير أنّ هذا النظام الفكري بدأ يتداعى مع بزوغ عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حين ظهرت حركة النزعة الإنسانية التي أعادت الاعتبار لقيمة الإنسان وقدرته على التفكير الحر، مستلهمة التراث الإغريقي والروماني وإرث الحضارة الإسلامية الذي انطلقت أشعته من قرطبة وطليطلة بوصفه نموذجاً للعقلانية والتحرّر.³ فالحركة الإنسانية اعتبرت أنّ الحقيقة ليست محتكرة من قبل السلطة الدينية، بل يمكن بلوغها عبر تجربة الإنسان وملاحظته وفهمه للعالم. هذا ما عبر عنه "مينوا" أنّه خروجاً بطيئاً من سجن السكولائية، فمع تقدّم النهضة بدأت الاكتشافات العلمية الجديدة تزعزع بنية التصور الكوني القديم، وخاصة مع أعمال "كوبرنيكوس" الذي طرح نموذج الشمس (heliocentric model)، ثم تجارب "غاليليو" وملاحظاته التي أكّدت استقلالية العقل العلمي عن السلطة الكنسية.⁴ وقد شكّلت هذه التطورات العلمية قطيعة معرفية مع الرؤية المدرسية السكولائية، وأظهرت الحاجة الملحة إلى منهج جديد للمعرفة يستند إلى العقل والتجربة بدلا من التأمل الميتافيزيقي.

هكذا بدأت الحداثة المعرفية تتشكّل تدريجياً مع تنامي الاكتشافات العلمية، مدفوعة بالدعوة إلى بناء منهج جديد كفيل يتجاوز القيود اللاهوتية. وهنا لعب كل من "رينيه ديكارت" و"فرنسيس بيكون" دوراً مفصلياً؛ فقد دعا ديكارت إلى تأسيس العقل على الشك المنهجي والاستدلال العقلي، في حين وضع بيكون أسس المنهج التجريبي القائم على الملاحظة

«

² - جورج مينوا، الكنيسة والعلم: تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي: ترجمة مورييس جلال، الجزء 1، ط1، 2005 ص 167-168.

³ - Peter Burke, the renaissance européenne, traduction Paul Chemla, édition du Seuil, 2000, pp, 21-23.
<https://fr.scribd.com/document/595679506/La-Renaissance-Europeenne-Peter-Burke-Z-lib-org>

⁴ - Alexandre Koryé, **From the closed world to the infinite universe**, Ph.D, Ecole Pratique des Hautes études, Sorbonne, Paris, 2005, p 71-75,

والاستقراء. ويعتبرهما "مينوا" من أبرز المهندسين الأوائل لولادة "العقل العلمي الحديث" الذي رفع من شأن الرهان والتجربة وحرّزا المعرفة من سلطتها التقليدية.¹ وهكذا اكتمل الانتقال من عصر كانت فيه الكنيسة تمسك بمفاتيح الحقيقة إلى عصر جديد أصبح فيه العقل -بمناهجه البرهانية والتجريبية- هو المرجع الأساسي في فهم العالم وتفسيره.

1-رينيه ديكارت (Renie Descart): تشييد العقلانية*² الحديثة وبناء اليقين عبر الشك المنهجي.

ينظر عادة إلى "رينيه ديكارت" في تاريخ الفلسفة كمؤسس حقيقي للفلسفة الحديثة بما أنّه انطلق من التفكير كمبدأ بعد فصله عن اللاهوت وجعله أصل الوجود والخاصية الأساسية التي تميز الإنسان عن بقية الكائنات. وبهذا أراد ديكارت مؤسس العقلانية الحديثة أن يتحرر من فلسفة أرسطو ثائرا عن الفلسفة المدرسية التي تعلمها في المدارس المسيحية. فلأول مرة في تاريخ الفكر ومع ديكارت أصبحت الفلسفة تكتب بلغة شعبية هي الفرنسية وتنطلق من الرأي العام وتتفق مع الحس السليم وتعتمد على قضايا واضحة وبديهية بالنسبة إلى الحس المشترك. هكذا قام ديكارت بعملية (دمقرطة) للمعرفة محطما بذلك الوصاية والاحتكار والأستذة المعرفية التي كانت تمارسها الكنيسة والنخبة العارفة باللغة اللاتينية على بقية الشعب.³

شرع ديكارت في تأسيس مشروعه المعرفي الذي هدف إلى تطهير الفكر من كل مالم يختبر بواسطة العقل. وانطلق في ذلك من مبدأ الشك المنهجي، وهو شك لا يهدف إلى الهدم، بل إلى إزالة الأوهام واستبعاد كل فكرة تتضمن الشك.

سلك ديكارت نفس الخطوات التي سلكها "الغزالي" وكذلك "أوغسطين" وهي خطوات الشك المنهجي*⁴، حيث اشتهر أنّه إمام الشك المنهجي في العصر الحديث، فهو أول من أبرز قيمة هذا الشك في أوروبا وحدود معالمة وممارسه عمليا حيث وصل إلى اليقين.

1 - جورج مينوان، مرجع سابق الذكر، صص 168-174.

*2 - شكّلت فلسفة "ابن رشد" أحد أهم الجسور الفكرية التي انتقلت عبرها العقلانية اليونانية، خصوصا الأرسطية، إلى الغرب اللاتيني. فقد قدّم ابن رشد قراءة عقلانية صارمة لأعمال أرسطو، ركّز فيها على أولوية البرهان وضرورة إخضاع النص لسلطة العقل وليس العكس. وعبر ترجمات أصولية لشروح "ابن رشد" في طليطلة وباريس منذ القرن 12م، تبلورت "صورة المعلم الثاني" التي ستؤثر في فلاسفة جامعات أوروبا، وعلى رأسهم توما الإكويني. لقد أمّد الفكر الرشدي الغرب بمفهوم "وحدة الحقيقة" وبالدفاع عن استقلالية العقل الفلسفي عن اللاهوت، وهو ما مهّد لبزوغ العقلانية الحديثة في القرن 17م. ولا يبالغ بعض مؤرخي الفلسفة حين يقولون إنّ أوروبا كانت أرسطية بفضل ابن رشد، لأن الرشدية اللاتينية مثّلت مقدمة أساسية لنضج النزعة العقلانية التي سيواصلها ديكارت وسبينوزا وليننتز لاحقا.

3 - مجدي كامل، ديكارت: أبو الفلسفة الحديثة.. ورحلته الشهيرة من الشك لليقين حياته فلسفته أفكاره ومبادئه، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة 1، 2013، ص9.

4 - *لقد مرّت فكرة الشك بتطور طويل قبل أن تتوج في العصر الحديث مع الشك المنهجي الديكارتي، إذ تعود جذورها الأولى إلى الفلسفة اليونانية مع "بروتاغوراس" الذي صاغ نسبية المعرفة في مقولته الشهيرة: "الإنسان مقياس كل شيء"، مما فتح الباب أمام التشكيك في موضوعية الحقيقة. أما جورجياس، أحد كبار السفسطائيين، فقد ذهب أبعد من ذلك بطرحه الشهير القائل: «لا شيء موجود، وإن وُجد فلا يمكن معرفته، وإن عرف فلا

قال ديكارت: "الإنسان يجب أن يشك ولو مرة واحدة في حياته"، وكان هذا دافعه للشك المنهجي الذي توصل به إلى اليقين الدائم. اعتمد ديكارت الشك بوصفه منهجا منظما يهدف إلى بلوغ يقين معرفي لا يتزعزع، وقد مر هذا الشك بثلاث خطوات أساسية تتمثل فيما يلي:¹

أولا الشك في الحواس، إذ يرى ديكارت أنّ الحواس -رغم كونها مصدرا مباشرا لمعرفة العالم- كثيرا ما تخدعنا، فنحن نرى الأشياء صغيرة وهي كبيرة، ونحسب العصا منكسرة في الماء وهي مستقيمة. لذلك اعتبر أنّ كل معرفة تستند إلى الحواس عرضة للخطأ ولا يمكن الوثوق بها في تأسيس العلم.

ثانيا الشك في الحياة الشعورية، حيث ذهب ديكارت إلى أنّ التجارب الداخلية من أحلام وذكريات قد تمنحنا تمثلا لا تختلف في وضوحها عن اليقظة، مما يجعل التمييز بين الحلم والواقع أمرا غير مضمون. ومن هنا اعتبر أنّ العالم الخارجي ذاته قد يكون وهما، لأنّ كل ما نعتقد أنه نعيشه قد لا يكون سوى صورة ذهنية دون مرجع واقعي.

ثالثا الشك في العقل ذاته؛ وهنا تصل عملية الشك ذروتها، فحتى المبادئ العقلية التي اعتبرت بديهية -كالمبادئ الرياضية والمنطقية- قد تكون موضع خداع، إذ يفترض ديكارت وجود "مضلّل قوي" قادر على جعلنا نخطئ حتى في أبسط العمليات العقلية. وهذا الشك الجذري لا يهدف إلى هدم العقل، بل إلى اختبار قدرته على الصمود أمام الفرضيات الأكثر راديكالية.

يمكن تبليغه»، وهو موقف يؤسس لشك إبستمولوجي جذري. وفي مقابل هذا النزوع، مثل سقراط شكًا مختلفًا قائما على التفحص والحوار، من خلال منهجه التوليدي الذي يبدأ من الاعتراف بالجهل بوصفه خطوة ضرورية نحو معرفة يقينية. ومع "بيرون الإيلي" ظهر الشك بمعناه الفلسفي المنهجي، حيث دعا إلى تعليق الحكم (épochè) باعتبار أن العقل غير قادر على بلوغ يقين مطلق. بينما سعى "أرسطو" إلى تجاوز الشك بترسيخ مبدأ عدم التناقض وإقامة المعرفة على البرهان والعلة، مما جعل منه أحد أوائل من قدموا ردا منهجيا على النزعات الشكّية.

وفي الحضارة الإسلامية، استعاد "أبو حامد الغزالي" سؤال الشك في "المنقذ من الضلال"، عندما شكك في معطيات الحواس ثم في بدايات العقل ذاته، قبل أن يصل إلى اليقين من خلال نور يقذفه الله في القلب، وهو ما شكّل محطة مركزية في تاريخ الشك، خصوصا تأثيره غير المباشر في الفكر اللاتيني الوسيط.

أما في الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، فقد قدّم القديس "أوغسطين" معالجة مميزة للشك عبر الجمع بين العقل والإيمان، إذ اعتبر أنّ إمكانية المعرفة محدودة بمحدود الطبيعة البشرية، لكنها ممكنة من خلال انفتاح العقل على الإلهي، معلنا عبارته الشهيرة: "إنني أشك، إذن أنا موجود"، وهي العبارة التي ستجد صداها لاحقا في الصياغة الديكارتية، رغم اختلاف الأسس الميتافيزيقية بينهما. وهكذا يظهر أنّ الشك فكرة ممتدة تاريخيا، تطورت من النسبية السفسطائية إلى الشك الفلسفي المنهجي، لتبلغ مع "ديكارت"، لاحقا، شكلها الأدق والأكثر صرامة في بناء المعرفة الحديثة.

¹ - مجدي كامل، مرجع سابق الذكر، ص 51.

ويعتاز الشك المنهجي لديكارت بأنه ليس نهاية العقل الفلسفي بل هو البحث عن نقطة البداية، النقطة التي يصح للفيلسوف أن يبدأ عندها، فالشك هو المرحلة الأولى فهو التأمل الأول للفلسفة. ومن قلب هذا الشك الشامل وصل ديكارت لليقين كالاتي:¹

-اليقين الأول هو إثبات وجود نفسه بمعنى أن الذات المفكرة موجودة مادامت تشك، وهو ما يتجسد في الكوجيتو "أنا أفكر إذا أنا موجود".

-اليقين الثاني هو إثبات وجود الله، باعتباره الضامن النهائي لصدق المعارف ولحقيقة العالم الخارجي. ينطلق ديكارت من فكرة أن الذات المفكرة تجد في داخلها تصورا واضحا ومتميزا عن كائن كامل ومطلق الكمال، وهو تصور لا يمكن أن تصدر فكرة الكمال عن موجود ناقص، لأنّ العلة يجب أن تكون أتم من المعلول، وهذا يقود إلى الإقرار بوجود الله. كما يرى أنّ الوجود جزء من ماهية الكائن الكامل، تماما كما ترتبط خصائص المثلث بوجوده، مما يجعل وجود الله ضروريا. وبفضل هذا البرهان، يخلص ديكارت إلى أنّ الله صادق غير مخادع، وهو ما يضمن صحة ما يدركه العقل بوضوح وتميز، ويهيئ للانتقال نحو إثبات حقيقة العالم الخارجي.

-اليقين الثالث: يرى ديكارت أنّ وجود الله الكامل يضمن لنا أن الأفكار الواضحة والمتميزة ليست وهما، لأنّ الله الصادق لا يمكن أن يخلق عقلا يميل بطبيعته إلى الخطأ. وبما أنّ لدينا أفكار طبيعية فطرية عن الأجسام والامتداد والحركة، ونختبر العالم الخارجي بإحساس منتظم غير اختياري، فإنّ أفضل تفسير لذلك هو أنّ الأشياء الخارجية موجودة بالفعل، وأنّ الله شاء لنا أن ندركها كما هي من خلال ملكاتنا. وهكذا يصبح العالم الخارجي يقينا ثالثا، لكنه يقين مؤسس على صدق الله، وليس على الحواس مباشرة.

المعروف أنّ الفترة التي أسس فيها ديكارت فلسفته تتميز بصراع فكري على المنهج الصحيح الذي يقود الحياة، فيعرف ديكارت المنهج أنّه "جملة من القواعد المؤكدة التي إذا ما راعاها ذهن الباحث عصمته من الوقوع في الخطأ، وتمكنه من بلوغ اليقين في جميع ما يستطيع معرفته بدون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة".

يقوم المنهج عند "ديكارت" على دعامتين هما:²

¹-علي أصغر مصلح ورحمة الله موسوي مقدم، الإنسان والله في فلسفة ديكارت: دراسة نقدية في رؤية العلامة السيّد محمد حسين الطبطبائي، مجلة الاستغراب، العدد 24، 2021، ص 33-39. <https://istighrab.icss.iq/files/investigations/4m1gn9es1.pdf> تم الإطلاع عليه بتاريخ 12-7-2025.

² - مجدي كامل، مرجع سابق الذكر، ص 59.

أولاً-الحدس هو رؤية عقلية مباشرة للحقيقة، إدراك فوري واضح ومتميز لا يعتمد على الحواس، بل على ملكة العقل في البديهيات كما دون هي دون وسيط. وهو يمثل نقطة الانطلاق في كل معرفة يقينية، مثل إدراكنا لاستحالة اجتماع النقيضين أو لوجود الذات المفكرة.

ثانياً-الاستنباط فهو العملية العقلية التي ينتقل بها الذهن من مبادئ حدسية بسيطة إلى نتائج جديدة ضرورية، وفق ترابط منطقي صارم. ويشبهه **ديكارت** بحركة سلسلة من الحلقات يرتبط بعضها ببعض بحيث يؤدي وضوح البداية إلى يقين النهاية. ومن خلال هذا الازدواج بين الحدس الذي يقدم المبادئ الأولى، والاستنباط الذي يمد المعرفة ويجعلها نسقاً متكاملًا، استطاع ديكارت أن يضع نموذجاً منهجياً جديداً للعلم، يركز على الوضوح والتميز بوصفهما معيارين للحقيقة.

إنّ النموذج الأمثل للمعرفة اليقينية عند "**ديكارت**" هي المعرفة الرياضية، فالعلم لا يكون يقينياً إلا إذا اتخذ صورة المعرفة الرياضية التي يتم اكتسابها عن طريق المنهج الرياضي، وكان هدف "**ديكارت**" الوصول إلى اليقين بمنهج عقلي استنباطي محدد الذي يقوم على أساس أفكار واضحة متميزة ليبنى عليها معرفته اليقينية بالبداية العقلية أو الحدس وإذا وصلنا إلى هذه الحقائق الحدسية أمكن اتخاذها مقدمات لاستنباطات يقينية بعيدة عن كل شك.¹

من هنا، كان طموح **ديكارت** المركزي يتمثل في إعادة بناء الفلسفة على نموذج الرياضيات، لما تمتاز به الأخيرة من يقين ووضوح وانتظام في الوصول إلى النتائج. لقد انبهر ديكارت بطبيعة البرهان الرياضي القائم على مبادئ بسيطة بدعية يستنبط منها كل ما بعدها بطريقة ضرورية، فتصبح المعرفة سلسلة مترابطة لا مجال فيها للصدفة أو الخطأ. وبناء على ذلك رأى أن الفلسفة —بما هي بحث الحقيقة— ينبغي أن تخضع لنفس الصرامة المنهجية، وأن تدار بالعقل وحده كما تدار الحسابات الهندسية. وقد كان هذا الطموح هو الدافع لتطويع قواعد المنهج الأربع. وهكذا سعى ديكارت إلى تحويل الفلسفة من تأملات مبعثرة إلى علم دقيق منهج موحد، على شاكلة الرياضيات التي اعتبرها النموذج الأعلى للمعرفة.^{2*}

1 -الموضع نفسه

2 - محمد فتحي الشنيطي، المعرفة، دار الثقافة للطباعة والنشر، الطبعة 5، القاهرة، 1918، ص 97.

(*) مع أنّ ديكارت طمح إلى إخضاع الفلسفة لصرامة المنهج الرياضي، فإنّ مشروعه لم ينجح في التطبيق الكامل لهذه الفكرة، فقد بقي المنهج الديكارتي قائماً على الحدس والاستنباط داخل نسق معرفي عام، دون أن يتحول إلى بناء هندسي مغلق كالذي نجده في الرياضيات. غير أنّ هذا الطموح سيجد تجسيده الفعلي لاحقاً عند **باروخ سبينوزا**، الذي تمكّن في كتابه "الأخلاق" من وضع فلسفة كبرى على الطريقة الهندسية، مستعملاً التعريفات والمسلمات والبراهين كما في الأنساق الرياضية، ليقدّم مثلاً فريداً على إمكانية تحقيق ما تخيّل ديكارت ولم ينجزه عملياً. وهكذا يظهر أن الجهد الديكارتي كان خطوة تأسيسية فتحت الطريق أمام محاولات أعمق لتمثيل الفلسفة في شكل علم صارم، بلغ **سبينوزا** فيه درجة من الاتساق لم يصل إليها معاصروه. دون أن ننسى "ليبنتز" الذي وسّع الأساس الميتافيزيقي للعقلانية عبر نظريته في "المونادات" وابتكاره لحساب *infinitesimal* الذي فتح إمكانيات جديدة لتفسير الطبيعة تفسيراً رياضياً. وقد اتفق كلا الفيلسوفين على مركزية الضرورة العقلية، وعلى رفض أي معرفة لا تشتق من مبادئ واضحة ومتميزة. وهكذا انتقلت العقلانية من مستوى المنهج عند ديكارت إلى مستوى النسق الشامل مع **سبينوزا**، وإلى مستوى البنية الرياضية-المنطقية مع **ليبننتز**، مما جعل العقلانية الحديثة تقف على أرض أكثر صلابة.

يعدّ منهج ديكارت ثورة حقيقية في تاريخ الفكر الفلسفي، لأنّه سعى إلى تأسيس معرفة جديدة تنطلق من العقل وحده، متحررة من الموروث المدرسي ومن الفلسفة المدرسية السائدة في العصور الوسطى. وقد بدأ ديكارت هذا المشروع في كتابه المبكر "قواعد توجيه العقل" حيث وضع أكثر من ثلاثين قاعدة ظنّ في البداية أنّها تمثل منهجا كاملا للبحث. غير أنّ سرعان ما أدرك أنّ تلك القواعد، رغم طموحها، لا تختلف جوهريا عن المناهج التقليدية التي أراد تجاوزها، فهي تظل متأثرة بالتصورات القديمة ولا تحقق القطيعة المنهجية المطلوبة. ولهذا أعاد ديكارت بالتصورات القديمة ولا تحقق القطيعة المنهجية المطلوبة. ولهذا أعاد ديكارت النظر فيها بدقة، وأسفر هذا العمل النقدي عن بلورة منهج جديد أكثر صرامة ووضوحا في كتابه "مقال في المنهج"، حيث اختزل كل التجربة السابقة في أربع قواعد أساسية تعد خلاصة جهده الفلسفي.

تتمثل هذه القواعد الأربعة فيما يلي:

أولا: قاعدة البدهة والوضوح: هي أهم القواعد وأخطرها وقد ذكرها وأكد عليها ديكارت في كتابه "المقال في المنهج" وفي "التأملات" وأيضا في مبادئ الفلسفة، يقول ديكارت شارحا هذه القاعدة "أنا لا أتقبل شيئا ما على أنّه حق ما لم أعرف يقينا أنّه كذلك، بمعنى أنّ أتجنب بعناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميّز بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك. بمعنى التأكيد على رفض الأقاويل المغشوشة والملتبسة والاكتفاء بقبول الأفكار الواضحة والمتميزة".¹

-ثانيا: قاعدة التحليل: وهي كما يقول ديكارت في "المقال عن المنهج" أنّ أقسّم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع؛ على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلّها على خير الوجوه. وتعني هذه القاعدة تحليل الحقائق على غرار مسائل الرياضة والهندسة لأنّه يجب علينا إزاء أي مشكلة أن نبدأ بافتراض مجموعة من الأسباب التي يحتمل أن تكون واحدة منها السبب في الظاهرة أو المشكلة ثم نقوم بفحص كل سبب منها على حدى حتى نصل إلى الأسباب الحقيقية للمشكلات.²

ثالثا: قاعدة الترتيب والترتيب: هي أنّ أرتب الأفكار، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة وأتدرج في الصعود شيئا فشيئا، حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيبا، بل أنّ أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضا بالطبع. بعد قيامنا بعملية تحليل الأفكار إلى أبسط ما يمكن تأتي عملية التأليف والجمع والتركيب بين هذه البديهيات والمعارف التي تم الخلوص إليها، والتي تمّ التأكد من صحتها بفضل العقل، حيث يقوم بمحاولة إعادة الربط بينهما بما يقتضيه الموضوع، وجوهر هذه القاعدة

¹ -غضبان السيد علي، ديكارت والمنهج العقلي، مجلة مقدمات، العدد 5، جانفي 2018، ص 76
file:///C:/Users/mon%20pc/Downloads/%D8%AF%D9%8A%D9%83%D8%A7%D8%B1%D8%AA-.pdf تم الاطلاع عليه بتاريخ 16-7-2025.

² -مصطفى محمد قصيبات، الشك واليقين عند ديكارت، المجلة العلمية لكلية التربية، العدد الرابع، ص 255،
https://journals.misuratau.edu.ly/edu/upload/file/R-2311.pdf

يكن في الترتيب والتنظيم كما" تتمثل الطريقة كلها في تنظيم الأشياء التي نريد أن يتفحصها الفكر لاكتشاف بعض الحقائق وترتيبها.¹

رابعاً: قاعدة الإحصاء والمراجعة: هي أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات تامة ومراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً، إن هذه القاعدة تتطلب القيام بمراجعات عامة حتى لا تغفل أي حد من الحدود المتوسطة التي تشتمل عليها، ونعني بالحدود المتوسطة جميع المسائل الفرعية التي يجب حلها وجميع الصعوبات التي ينبغي لنا اجتيازها عند الانتقال من المبدأ المعلوم إلى القضية المراد اثباتها.²

وهكذا يكون "ديكارت" قد وضع الأسس الأولى للعقلانية الحديثة، مؤسساً المنهج العقلي ومعيداً الاعتبار لسلطة العقل باعتباره المصدر الأوثق للمعرفة، وذلك في إطار صراع فكري حاد مع الاتجاه الحسي الذي يشكك في قدرة العقل وحده على بلوغ اليقين. لقد كان هدف ديكارت هو العثور على منهج حقيقي يقود إلى يقين مطلق تتأسس عليه العلوم. وإذا كان قد نجح في ترسيخ المبدأ العقلي، فإن هذا الصراع سيفتح الباب أمام الاتجاه المقابل، ممثلاً في فرانسيس بيكون، الذي سيقدم مشروعاً مغايراً يقوم على التجربة والملاحظة باعتبارهما الطريق الأوثق إلى المعرفة، ليعبر بذلك عن الوجه الآخر من ثنائية المنهج في القرن السابع عشر.

2- العقل التجريبي*³ عند "فرانسيس بيكون":

يعدّ "فرانسيس بيكون" المؤسس الفعلي للاتجاه الحسي-التجريبي في العصر الحديث، حيث أعاد الاعتبار إلى الخبرة الحسية باعتبارها المنطلق الأول لكل معرفة علمية. فقد رأى أنّ العقل لا يبلغ الحقيقة عبر التأمل المجرد، بل عبر مراعاة الملاحظات الدقيقة وإخضاعها لمنهج استقرائي صارم يحلّ الفكر من "أصنام" الوهم والتحيز.

وبذلك وضع بيكون أسس عقل تجريبي جديد يقوم على الفحص، والاختبار، وتكرار التجربة، ليصبح معيار صدق المعرفة هو قابلية الملاحظة والتحقق. هذا التحول مثّل لحظة مفصلية في تاريخ الفكر، إذ نقل الفلسفة من الفلسفة من الاعتماد على لمبادئ العقلية المسبقة إلى بناء معرفة تنمو انطلاقاً من الواقع المحسوس.

¹ - نعمة بورحلة، المنهج الرياضي في فلسفة روني ديكارت، مجلة المعيار، المجلد 14، العدد 1، جوان 2023، ص 1098.

² - رينيه ديكارت، مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم 1637، ترجمة جميل صليبا، الطبعة 3، 2016، ص 33.

³ - يجمع مؤرخو العلم على أنّ المنهج التجريبي الحديث مدين بكثير من عناصره إلى المدرسة العلمية الإسلامية، خاصة مع أعمال "ابن الهيثم" الذي يعتبر بحق أول من منهج لتجربة عبر صياغته لمبدأ الاختبار القائم على الملاحظة الدقيقة، والفرضية، والتجريب الخاضع للقياس، كما يظهر في كتاب المناظر. وقد أكد ابن الهيثم ضرورة الانتقال من الشك إلى اليقين عبر سلسلة من الاختبارات القابلة للتكرار، وهو ما مثّل أساساً لما سيعرف لاحقاً بـ "الاستقراء التجريبي" عند بيكون. كما ساهم علماء آخرون مثل جابر بن حيان والرازي والبيروني في ترسيخ العمل المخبري، وانتقاد التفسيرات الكلامية-الفلسفية التي لا تستند إلى الملاحظة-وقد أشار كثير من الباحثين الغربيين مثل كرومي Crombie وجورج سارتون إلى أنّ هذا التراث العلمي كان من اللبنة التأسيسية التي استند إليها العلم الحديث.

أ-نقد المعرفة القديمة وتفكيك الأصنام: تذكر كتب تاريخ الفلسفة عندما تعرض لحياة "فرنسيس بيكون" 1561-1626؛ أنه دخل إلى جامعة كامبردج في الثالثة عشر أي سنة (1573) وخرج منها بعد ثلاث سنوات دون أن يحصل على إجازة علمية، وفي نفسه ازدراء لما كان يدرس فيها من علوم على مذهب أرسطو والمدرسين (نسبة للمدرسة السكولائية)*.¹

يمثل **فرانسيس بيكون** الواضع الحقيقي لأصول المنهج وعلى أسس استقرائية، عندما نشر مؤلفه القيم المنطق الجيد (الأورغانون الجديد أو العلامات الصادقة لتأويل الطبيعة). والذي عارض فيه منطق أرسطو (الأورغانون القديم)، والذي أثبت فيه قدرة المنهج الجديد في الكشف عن القانون العلمي الذي يرمي إلى تفسير الظواهر الطبيعية. فهو يقول (لقد أفسد أرسطو الفلسفة الطبيعية بمنطقه، وشيّد العالم بمقولاته... وقد فرض أرسطو أشياء أخرى فرضها عليه هواه. فإذا ما قورنت الفلسفات الطبيعية القديمة مع فلسفته، بحيث نجد مفهوم الأجزاء المتماثلة عند **انكساجوراس**، والذرات عند **ليوسبوس** والتحول عند **هيراقليطس**. كل ذلك فيه إشارة للطبيعة والتجربة التي لا نجد لها في فيزياء أرسطو والذي اكتفى بالمقولات المنطقية وإعادة تدويرها في ميتافيزيقاه والتي عدّها واقعية ثم تبعه السكولائيين الذين هجروا التجربة ونفضوا أيديهم منها).²

لذلك اعتبر بيكون أول خطوة نحو بناء علم جديد هي تطهير العقل من الأوهام التي تعيق قدرته على الفهم. وقد صاغ هذه العوائق في مفهومه الشهير بـ "**أصنام العقل**"؛ وقد صنفها في أربعة أصنام رئيسية:³

-**أصنام القبيلة**: وهي الأخطاء الناتجة عن طبيعة الإنسان نفسه وما يميل إليه من تعميم وتسرع في الحكم.

-**أصنام الكهف**: وهي التحيزات الشخصية الخاصة بكل فرد، والتي تنشأ من تجاربه المحدودة وميوله الذاتية.

-**أصنام السوق**: فهي الأخطاء التي تنشأ عن اللغة واستخداماتها غير الدقيقة، والتي تضلل العقل عبر الألفاظ الغامضة أو غير المحكمة.

¹ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، (بدون تاريخ)، ص 44.

(*) **المدرسة السكولائية (scholasticism)** هي التيار الفلسفي الذي ساد في أوروبا القرون الوسطى داخل الجامعات الدينية، وهو مشروع فكري هدف إلى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وخاصة أرسطو واللاهوت المسيحي. اعتمدت المدرسة السكولائية على منهج جدلي يقوم على عرض الآراء المتعارضة، ثم تحليلها منطقياً للوصول إلى حل ينسجم مع العقيدة. وقد ركزت على استخدام الاستدلال العقلي الصوري في خدمة الإيمان، فكانت المعرفة عندها ليست بحثاً حراً، بل نشاطاً عقلياً موجهاً لتأسيس العقائد اللاهوتية على أسس منطقية. وقد مثلها مجموعة من الأعلام مثل "**توما الإكويني وأنسلم**" الذين رأوا أنّ العقل والإيمان لا يتعارضان بل يكمل أحدهما الآخر وتعد السكولائية الإطار الفكري الذي سبق الحداثة الأوروبية، والذي سيثور عليه مفكرو القرن السابع عشر ومنهم -**ديكارت وبيكون**- بحثاً عن منهج جديد قادر على تأسيس معرفة يقينية خارج القيود اللاهوتية.

² - غادة عبد الستار مهدي، **المنهج بين فرانسيس وكارل بوبر دراسة تحليلية مقارنة**، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم، العدد 34، جويلية 2019، ص 279.

³ - عادل مصطفى، **أوهام العقل: قراءة في الأورغانون الجديد لفرانسيس بيكون**، مؤسسة هنداوي، 2018، ص ص 21-25.

-**أصنام المسرح:** وهي المذاهب الفلسفية الجاهزة والسلطات الفكرية القديمة التي تقدّم كحقائق نهائية فتمنع الإنسان من التفكير الحر. وقد اعتبر بيبكون أنّ تحرير العقل من هذه الأصنام هو الشرط الأول لتأسيس منهج علمي جديد يقوم على الملاحظة والتجربة.

أسس بذلك "فرانسيس بيبكون" المنهج الاستقرائي في صورته الحديثة، إذ رأى أنّ أزمة المعرفة في القرن السابع عشر تعود إلى اعتماد الفلاسفة على التأمّلات الميتافيزيقية والأقيسة المنطقية التي لا تنتج معرفة جديدة. انطلاقاً من ذلك طرح بيبكون مشروعاً منهجياً ثورياً يقوم على إعادة بناء العقل من الأساس عبر التخلص من أصنام العقل التي تشوّه عملية التفكير، ثم الانطلاق نحو طريقة جديدة في البحث تقوم على الترفي المنظم من الجزئيات إلى الكليات. فالاستقراء عنده ليس مجرد جمع عشوائي للوقائع، بل سيروية دقيقة تبدأ بالملاحظة المنتظمة للظواهر، وتدوين الحالات المختلفة تحت شروط متنوعة، ثم إجراء مقارنات بينها بهدف اكتشاف العوامل المشتركة التي تكشف عن طبيعة الظاهرة المدروسة. أصبح المختبر رمزا لمنهجه، لأنّه يجسّد تدخل العقل في الطبيعة لاكتشاف انتظاماتها بدل الاكتفاء بمجرد مراقبتها. ويؤكد بيبكون أنّ الهدف من الاستقراء ليس فقط تفسير الظواهر، بل الوصول إلى قوانين عامة تسرّ لصالح الإنسان، مما جعل المعرفة عنده ذات بعد نفعي وعملي. وهكذا تحول المنهج الاستقرائي الذي أسسه بيبكون إلى بنية معرفية جديدة ستؤسس فيما بعد للعلوم الحديثة القائمة على الملاحظة، والتجريب، والتعميم، ليغدو بذلك بيبكون أحد البنّائين الأساسيين للعقل العلمي التجريبي.¹

3-ديفيد هيوم ونقض اليقين السبي (إشكالية المنهج):

يعدّ "ديفيد هيوم" من أبرز فلاسفة التجريبية الإنجليزية، ولا يمكننا تفسير مشروع "هيوم" إلّا إذا أخذنا بعين الاعتبار سلسلة من أحداث تعقّبت العصور الوسطى وكانت خلفية تاريخية لأعماله، ولقد كان لـ "كوبرنيكوس" وثورته الفلكية من أمثال "غاليليو"، دور عظيم في تشييده لصرحه المعرفي.²

أراد "ديفيد هيوم" من خلال أهم مؤلفاته "رسالة الطبيعة البشرية" أن ينشئ علماً تجريبياً لطبيعة الإنسان حيث يستخدم المنهج التجريبي^{*}، على الطريقة النيوتنية. وعليه نجد أنّ طريقة تفكير "ديفيد هيوم" هذه تقترب نوعاً ما من طريقة تفكير نيوتن، خصوصاً عندما اكتشف نيوتن تلك المبادئ العامة التي تحكم الطبيعة الفيزيائية وكان هدفه هو الوصول إلى أهم

¹ - غادة عبد الستار مهدي، مرجع سابق، ص 281-282-283.

² - شهاب الدين مهدي، ديفيد هيوم وتطبيقه للمنهج التجريبي على الفلسفة: دراسة مبدأ السببية نموذجاً، ص252، <https://istighrab.iicss.iq/files/investigations/3jr9c0wrz.pdf>

(*) جاءت أعمال ديفيد هيوم في سياق تحوّل علمي وفلسفي عميق أحدثته الثورة الفلكية التي دشّنها "نيكولا كوبرنيكوس" وعمّقها لاحقاً "غاليليو غاليلي". فقد أطاحت نظرية مركزية الشمس بالمركزية الأرضية القديمة، وغيّرت جذرياً صورة الإنسان عن الكون وقوانين الطبيعة. هذا الانقلاب المعرفي لم يكتف بتعديل نموذج الكون، بل فتح الباب أمام رؤية جديدة للمعرفة تقوم على الملاحظة الدقيقة والقياس الرياضي بدلاً من الاعتماد على الميتافيزيقا المدرسية. لذلك كان المشروع التجريبي الطي ورثه هيوم استمراراً لهذا التحول، حيث سعى إلى تطبيق الدقة التجريبية التي وضع أسسها غاليليو على دراسة العقل البشري وعمليات المعرفة، ليعيد النظر في مبادئ السببية واليقين من منظور يقوم على التجربة وحدها.

المبادئ العامة التي تحكم الطبيعة الفيزيائية وكان هدفه هو الوصول إلى أهم المبادئ الأساسية التي تحكم الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني الأخلاقي.¹

بدأ "هيوم" مسيره الفلسفي بدراسة الطبيعة البشرية مؤكداً على ضرورة انتهاز المنهج الاستقرائي بدلاً من المنهج الاستنباطي الذي سار عليه العلماء الجدد في اكتشاف قوانين الطبيعة. وبما أن استخدام المنهج الاستقرائي في العلوم الإنسانية عموماً والفلسفة على وجه الخصوص، يواجه صعوبات من الناحية المعرفية؛ ركز جهوده على مبدأ السببية بوصفها عنصراً محورياً لحلّ المفارقة المعرفية الكامنة في نظريته وبناء على هذا فقد شغلت السببية حيزاً كبيراً في فكره، كما أنّها تمثل ركيزة أساسية للمنهج التجريبي الذي يقترحه. إلا أنّ الرؤية الخاصة التي أسس عليها مسعاه حول السببية كانت تتجذر في آرائه الابستمولوجية، ومن أجل ذلك لا يمكن دراسة فكره بمعزل عن نظريته المعرفية.²

أحدثت أفكار "ديفيد هيوم" مبدأً أساسياً يتمثل في أنّ كل معارفنا تعود في أصلها إلى الانطباعات الحسية، وأنّ العقل لا يمتلك أفكاراً فطرية مستقلة عن التجربة. ومن هذا المنطلق طرح تساؤله الشهير: كيف نعرف أنّ هناك علاقة ضرورية بين السبب والنتيجة؟ وهل نرى هذه الضرورة في العالم بالفعل؟ ويجيب "هيوم" بأنّ ما نلاحظه في الواقع ليس سوى تتابعا منتظماً للظواهر؛ النار تأتي أولاً، ثم الحرارة لاحقاً؛ لكننا لا نرى في التجربة الحسية رابطة خفية تربط إحدى الظاهرتين بالأخرى. فالسببية بوصفها علاقة ضرورية، ليست معطى في الطبيعة، بل هي عادة ذهنية نشأت فينا بسبب تكرار اقتران الأحداث. وعندما يتكرر اقتران ظاهرتين مرات عديدة، تتولد في النفس توقعات ثابتة، فيتشكل الاعتقاد بأنّ الأولى "تسبب" الثانية. هكذا يقوم "هيوم" بنزع الصفة الضرورية عن العلّة، ويحوّلها إلى علاقة نفسية قوامها التوقع والعادة، لا علاقة موضوعية ثابتة في الأشياء. وقد أذى هذا النقد إلى التشكيك في إمكان تأسيس العلم على مبدأ سببي يقيني.³

يرى "هيوم" أنّ المشكلة الأساسية في مفهوم الضرورة العلّية تكمن في أنّ العقل البشري يميل إلى إسقاط روابط لا يختبرها في الواقع. فعندما نلاحظ حدثاً يسبق آخر باستمرار ينشأ لدينا انطباع قوي بأنّ الأول يسبب الثاني. لكن بالنسبة لهيوم لا تقدم لنا التجربة سوى مشاهدات متتابعة، ولا تمنحنا أبداً إدراكاً مباشراً للرابطة الضرورية بينهما؛ فالعقل لا يرى إلاّ التجاوز والتعاقب، لا القوة التي تربط السبب بالنتيجة.⁴

¹ - حليلة بولنوار، دافيد هيوم وإشكالية المنهج، ص2 - <https://ds.univ-lyon2.fr/theses/00000001/1/D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%204boulouar.pdf>

² - شهاب الدين مهدي، مرجع سابق الذكر، ص 253-254.

³ - عبد الرحمن بلوي، موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984، ص 615-616.

⁴ - Hume's Two theories of causation, http://fitelson.org/125/Beauchamp_chapter_1.pdf.

لهذا اعتبر "هيوم" أنّ السببية ليست قانونا موضوعيا مستقلا، بل هي عادة ذهنية تتكون من تكرار اقتران الظواهر، مما يجعلها مجرد اعتقاد احتمالي لا يقينا علميا. وقد كان لهذا التحليل أثر بالغ في تاريخ الفلسفة، إذ أدى إلى زعزعة الأساس المنطقي للعلم الذي يقوم على القول بأنّ نفس الأسباب تؤدّي إلى نفس النتائج.

يشكّل نقد ديفيد هيوم للسببية محطة مركزية في تاريخ الفلسفة الحديثة، إذ انتهى إلى تفكيك أحد أهم أسس التفكير العلمي. فبعد أن بيّن أظنّ التجربة لا تعطينا إلّا تعاقبا منتظما بين الظواهر، وأنّ الضرورة التي ننسبها للعلاقة السببية ليست سوى عادة ذهنية راسخة، خلص هيوم إلى أنّ كل المعارف العلمية تظل احتمالية وليست يقينية. ومن هنا فإنّ قوانين الطبيعة لا تعبّر عن روابط موضوعية ثابتة، بل عن توقعات نفسية تقوم على تكرار المشاهدات. وقد فتح هذا النقد الباب أمام أزمة معرفية حقيقية تتعلّق بإمكان العلم نفسه، فإذا كانت العليّة مجرد اعتقاد مكتسب بالعرف والعادة، فكيف يمكن تأسيس علم يطمح إلى الكلية والضرورة؟

إذا حاولنا أن نقارن بين أفكار أعمدة الاتجاه الحسي التجريبي "بيكون" و"لوك" و"هيوم"، فإننا نستخلص النقاط التالية:

- "بيكون" طرح التجربة باعتبارها منهجا منظما قائما على الاستقراء والملاحظة والاختبار، وهو يسعى من خلالها إلى اكتشاف قوانين ثابتة في الطبيعة. فقد رفض بيكون الاعتماد على التقليد الفلسفي أو السلطة القديمة، ودعا إلى استكشاف الطبيعة عبر تجربة منظمة ومنهجية، مؤكدا أنّ الحواس هي مصدر المعرفة المباشر، ولكن يجب توجيهها بواسطة الفكر النقدي لتجنب الأخطاء والأوهام العقلية. وقد أسّس بذلك قواعد الاستقرار المنهجي كأساس للمعرفة العلمية.

- أما "جون لوك" فركّز على الجانب المعرفي الداخلي (التجربة الإنسانية)، معتبرا أنّ العقل صفحة (Tabula Rasa) بيضاء تملؤها التجربة. بمعنى تولد كل المعرفة من التجربة الحسية والتأمل في الظواهر. وقد ساهم "جون لوك" في بناء الأسس النظرية للعلوم التجريبية، مع التركيز على الحقائق والبيانات الملموسة كميّار للعلمية، مع تأكيد على ضرورة تنظيم التجربة والملاحظة لتكوين استنتاجات صحيحة.

- أما "هيوم" ذهب أبعد من ذلك حيث حوّل التجريبية إلى نقد راديكالي، إذ لم يكتف برّد الأفكار إلى التجربة، بل شكّك في قدرة العقل ذاته على تجاوز ما تمنحه الحواس. بحيث أظهر حدود الاستقراء والحس في بناء المعرفة. فقد رفض أي تصور للسببية كقانون ضروري، مؤكدا أنّ ما نسميه "السببية" هو في الحقيقة عادة ذهنية أو توقع مستمر استقرت في وعينا، وليست قاعدة مطلقة في الطبيعة. بذلك حدّد هيوم سقف المعرفة التجريبية، وفتح الباب أمام نقد التأكيد على اليقين في العلم، ما جعل الفلسفة الحديثة أكثر نقديّة ووعيا بالافتراضات.

هكذا انحدرت التجريبية من مشروع علمي متفائل عند بيكون، إلى تحليل معرفي عند لوك، ثم إلى تشكيك جذري عند هيوم في مفاهيم العلم مثل العلية والضرورة. وتمثل هذه الخلاصة المسار الذي سيجعل كانط يتدخل لإعادة بناء العلاقة بين التجربة والعقل على أسس جديدة.

4- المنهج التوفيقي "لإيمانويل كانط":

اعترف "كانط" بأنّ نقد هيوم للسببية أيقظه من سباته الدوغماتي، فقد رأى أنّ التجريبية لا تستطيع وحدها تأسيس ضرورة القوانين العلمية، وأنّ العقل يحتاج إلى مبادئ قبلية-مثل الزمان والمكان والسببية-تنظم التجربة وتمنحها إمكانية الفهم. وهكذا أعاد كانط بناء العقل العلمي على أساس توافقي يجمع بين المعطى التجريبي والبنى القبلية، فأسس لثورته الفكرية التي ستؤسس للاستمولوجيا الحديثة.

يبدأ "كانط" مشروعه من ملاحظة مركزية مفادها أنّ المعرفة الإنسانية لا يمكن تفسيرها تفسيراً مقنعاً إذا ظللنا أسرى ثنائية الحس والعقل بالطريقة التي قدّمها كل من التجريبيين والعقليين. فالتجريبيون ركّزوا على المعطيات الحسية، لكنهم عجزوا عن تفسير القوانين العلمية الضرورية؛ والعقليون تحدثوا عن مبادئ فطرية، لكنهم وقعوا في تأملات ماورائية بعيدة عن التجربة.¹ لذلك سيطرح "كانط" ما يعرف بالثورة الكوبرنيكية في الفلسفة وهي فكرة مفادها أنّ العقل ليس مرآة سلبية تعكس الأشياء، بل هو بنية فعّالة تفرض شروطها القبلية على التجربة. فبدلاً من أن تتطابق المعرفة مع الأشياء، تصبح الأشياء -بوصفها ظواهر- هي التي تتطابق مع شروط معرفتنا لها. وبهذا التحول، سيقلب كانط علاقة المعرفة بالواقع "فنحن لا نعرف الأشياء في ذاتها، بل نعرف الظواهر كما تظهر لنا عبر أطر العقل".

يتحدد بناء المعرفة عند كانط انطلاقاً من جهاز مزدوج: الحساسية والفهم. فالحساسية تمنحنا مادة المعرفة عبر الانطباعات الحسية، ويشكّل كل من المكان والزمان صورتين قبليتين تنظم الحس وتجعله قابلاً للإدراك. فهما ليسا معطين تجريبيين، بل هما شرطاً إمكانية التجربة أصلاً، ثم يأتي دور ملكات الفهم التي تنظم هذه المعطيات عبر مفاهيم قبلية هي المقولات، مثل العلية، الجوهر، الوحدة، التعدد... الخ،² ويرى كانط أنّ المقولات ليست مشتقة من التجربة، بل هي أدوات منهجية قبلية تجعل ظاهرة معينة هو أن نخضعها لمقولات العقل التي تمنحها طابع الضرورة والكلية، وهذا ما سيقوم بشرحه في الاستنباط المتعالي للمقولات الذي يمثل قلب النسق الكانطي.

¹ - إيمانويل كانط، نقد العقل الخالص، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، ط1، لبنان، 2005، ص19.

² - علي عابد شاهرودي، نظرية كانط في معرفة العلوم: حين يحار العقل في موضوعاته، مجلة الاستغراب، 2017، ص ص 215-216-214.

في إطار هذا البناء، يتوصل **كانط** إلى تمييز جوهري بين الأحكام التحليلية والتركيبية، وبين الأحكام القبلية والبعدية. ويعتبر أنّ المعرفة العلمية تقوم على أحكام تركيبية قبلية؛ فهي أحكام تضيف معرفة جديدة (وهذا هو الطابع التركيبي)، لكنها في الوقت نفسه ضرورية وكلية وغير مستمدة من التجربة (وهذا هو الطابع القبلي).¹

غير أنّ هذا المشروع النقدي لم يكن موجّهاً فقط لإثبات إمكانية المعرفة العلمية، بل كان يهدف أيضاً إلى رسم حدود العقل نفسه. فالعقل وفق **كانط** يستطيع أن يدرك الظواهر فقط، أي الأشياء كما تظهر ضمن المكان والزمان ووفق مقولات الفهم. أما الأشياء في ذاتها (Ding an sich) فهي تقع خارج نطاق الإدراك البشري. وهذا يعني أنّ الميتافيزيقا التقليدية التي حاولت أن تتحدث عن النفس والروح والعالم والله باعتبارها موضوعات معرفة موضوعية، قد تجاوزت الحدود المشروعة للعقل.² لذلك سيعتبر **كانط** أنّ هذه الأفكار الميتافيزيقية لا تحمل قيمة معرفية، لكنها تملك وظيفة تنظيمية توجه العقل وتحافظ على انسجامه الداخلي. ومن هنا سيؤسس ما يعرف بـ "العقلانية النقدية" التي تعترف بقدرة العقل وتحدد في الوقت نفسه مجال صلاحياته بدقة.

يصل **كانط** في نهاية مشروعه إلى تصور معرفي جديد يتجاوز ثنائية العقلانيين والتجريبيين. فالمعرفة ليست مجرد انعكاس للحس، وليست بناء عقلياً خالصاً، بل هي نتاج تفاعل بين مادة تأتي من التجربة وصور تأتي من العقل. وهذا التفاعل هو الذي يجعل التجربة ممكنة، ويمنح الظواهر انتظامها وقوانينها. وتكمن قوة المشروع الكانطي في كونه أعاد الاعتبار للعقل دون السقوط في الميتافيزيقا، وربط المعرفة بالتجربة دون أن يفقدها ضرورتها ويقينيتها. لذلك قال مقولته الشهيرة "الحدوس الحسية بدون مفاهيم تظل عمياء، والمفاهيم بدون حدوس حسية تظل جوفاء"³

يمثل منهج "إيمانويل كانط" نقطة مهمة في تأطير الحداثة، إذ أعاد ترتيب العلاقة بين العقل والتجربة في بناء المعرفة العلمية. فقد ركّز على أنّ المعرفة لا تأتي فقط من الحواس أو التجربة (كما عند بيكون ولوك وهيوم)، بل تحتاج أيضاً إلى إطار ذهني ينظم خبرتنا ويجعل من الممكن فهم العالم. من خلال هذا التوازن، أصبح من الممكن تكوين معرفة علمية منظمة وموضوعية، ليست مجرد انعكاس لما نشاهده، بل نتيجة تفاعل ما نلاحظه وبين طريقة تفكيرنا.

¹ - علي عابد شاهرودي، مرجع سابق الذكر، ص 216.

² عابدة عبد الحميد عبد الرحمن، نظرية المعرفة عند كانط، ص 760، https://bfarc.journals.ekb.eg/article_61175_e9d3f71ba9be3b12af19a512426bf1b5.pdf

³ - محمد عبد الله الخالدي، نظرية العلم والمعرفة عند كانط، مجلة مداد الآداب، العدد 22، ص 589، <https://iasj.rdd.edu.iq/journals/uploads/2024/12/11/a95f650a04e8e8b72fce34db8ee7fd14.pdf>

في ختام هذه المحاضرة يتوضّح لنا أنّ الحداثة العلمية لم تنشأ فجأة، بل هي نتيجة تراكم طويل من التحولات الفكرية. فقد أتاح الفكر الإسلامي نقل التراث اليوناني مع تطوير مناهج عقلية ومنطقية تؤسس لفهم أكثر انتظاماً للعلم. ثم جاء ديكارت ليضع الشك المنهجي والعقلانية الصارمة كمرتكز أساسي للمعرفة، بينما ركز التجريبيون على الحس والملاحظة كأساس لاستخلاص القوانين، مسلطين الضوء على أهمية الخبرة في بناء المعرفة العلمية.

في ختام هذا المسار قدّم كانط نموذجاً توفيقياً يوازن بين العقل والتجربة، موضحاً أنّ المعرفة العلمية تحتاج إلى ترتيب الفكر وتنظيم الخبرة الحسية معاً لفهم العالم بطريقة منطقية وموضوعية. وهكذا تمثل الحداثة قطيعة معرفية حقيقية، لكنها في الوقت نفسه استمرار للتراكم الفكري الذي أتى قبلها، ما أسّس لظهور العلم الحديث، ووفّر أسساً صلبة لفلسفة العلم.

وتفتتح هذه المحاضرة الطريق للمحاضرة التالية، التي ستدرس مسار التحول من براديغم التبسيط إلى براديغم التعقيد، حيث سنرى كيف تطور التفكير العلمي من فهم الظواهر على نحو جزئي ومحدد، إلى نماذج شاملة ومترابطة، قادرة على تفسير الظواهر الاتصالية والاجتماعية في العصر الحديث.

المحاضرة الثالثة: من براديغم التبسيط إلى براديغم التعقيد: مسار التحول

تسعى هذه المحاضرة إلى دراسة التحول المعرفي في تحليل الظواهر العلمية والاجتماعية، من الاعتماد على نماذج بسيطة ومحدودة (براديغم التبسيط) إلى نماذج شاملة ومعقدة (براديغم التعقيد). يبدأ مسار التحول هذا بفهم الظواهر على أنها وحدات مستقلة يمكن تفسيرها بعلاقات مباشرة وواضحة، كما هو الحال في كثير من النماذج الوضعية والنسبية المبكرة. تأتي أهمية إدراج هذه المحاضرة في المقرر من كونها تساعد الطالب على فهم دينامية تطور الفكر العلمي والفلسفي، ووعي الانتقال من تحليل جزئي وبسيط إلى تحليل شامل يأخذ بعين الاعتبار النظم والعلاقات والسياقات المتشابكة. كما تمكن هذه المحاضرة الطالب من تمييز المنهجيات المختلفة وتقدير كيف يمكن أن يسهم التفكير المعقد في دراسة الظواهر الاتصالية والاجتماعية الحديثة.

يكتسب الطالب بذلك القدرة على تطبيق أدوات التحليل المعقدة واستيعاب تداخل الظواهر، مما يهيئه للانتقال إلى مراحل لاحقة في دراسة فلسفة العلم وفلسفة الاتصال، حيث يصبح التفكير الشامل والمتعدد الأبعاد شرطاً لفهم الظواهر في العصر المعاصر.

1-براديغم التبسيط

شكلت القرون الثلاثة الأخيرة هيمنة واضحة لما يسميه "إدغار موران" بفكر التبسيط، وهو البراديغم الذي ساد العلوم الإنسانية والطبيعية على حد سواء. يقوم هذا التوجه على تفكيك الظاهرة إلى عناصرها الأولية، ودراسة كل جزء على حدة، انطلاقاً من الاعتقاد بأن فهم الأجزاء يؤدي تلقائياً إلى فهم الكل.

لقد مثل هذا المنظور امتداداً للنموذج الميكانيكي النيوتني الذي صاغته الفيزياء الكلاسيكية، حيث تحتل الظواهر في علاقات سببية خطية بسيطة، ويمكن التنبؤ بنتائجها إذا عرفت القوانين التي تحكمها. غير أنّ القرن العشرين حمل معه ثورة علمية غير مسبقة كشفت حدود النموذج التبسيطي، وعزّت هشاشته أمام الظواهر المعقدة. حيث مثّلت النظرية النسبية علامة في تاريخ العلوم، لأنها زعزعت الأسس التقليدية التي قامت عليها الفيزياء الكلاسيكية منذ نيوتن. فقد أعاد "ألبرت أينشتاين" صياغة مفهومي الزمان والمكان باعتبارهما نسيجاً واحداً (الزمكان)، يتأثر بالسرعة والجاذبية، وليس إطارين كما كان يعتقد. كشفت النسبية الخاصة (1905) أنّ الزمن يتمدد وأنّ الكتلة تتحول إلى طاقة، بينما أظهرت النسبية العامة

(1915) أنّ الجاذبية ليست قوة بل انحناء في نسيج الزمكان¹. شكّلت هذه التحولات قطيعة إبستمولوجية عميقة، لأنّها ألغت فكرة الحقيقة الثابتة، وبيّنت أنّ القوانين الفيزيائية تدرك من داخل الإطار المرجعي للملاحظ.

كما أحدثت ميكانيكا الكم ثورة غير مسبوقة في فهم المادة والضوء، لأنّها كسرت مبدأ الحتمية الذي كان جوهر الفيزياء الكلاسيكية. فقد أثبت "ماكس بلانك" أنّ الطاقة لا تنتج بشكل مستمر بل على شكل "كمّات" ثم جاء "نيلز بور" ليضع نموذجاً ذرياً جديداً قبل أن يقدّم "فيرنر هايزنبرغ" مبدأ عدم اليقين الذي ينص على استحالة تحديد موقع الجسيم وسرعته في نفس الوقت. كما ساهم "إرفين شرودنغر" (Erwin Schrödinger) في تطوير المعادلة الموجية التي فسّرت الطبيعة المزدوجة للجسيمات. هذه الاكتشافات جعلت الكوانطا في قلب الثورة في القرن العشرين، لأنّها أكّدت أنّ الاحتمية والاحتمال جزء من بنية الطبيعة نفسها.²

ثم جاءت نظرية الفوضى في ستينيات القرن العشرين، وتعود جذور هذه المقاربة إلى أعمال الرياضي والفيلسوف "هنري بوانكاريه" (Henri Poincaré) الذي اكتشف في دراسته لمسألة الأجسام الثلاثة في الفلك أنّ الأنظمة الحساسة للظروف الابتدائية قد تنتج سلوكات غير قابلة للتنبؤ، رغم خضوعها لقوانين الحتمية.³

لكن الانفجار الحقيقي جاء في الستينيات من القرن الماضي مع عالم الأرصاد الأمريكي "إدوارد لورنتز" (Edward Lorenz) الذي اكتشف ما عرف لاحقاً بـ "تأثير الفراشة" وهو تغير بسيط جداً في الحالة الابتدائية لنظام ما قد يقود إلى نتائج مختلفة كلياً على المدى البعيد. لقد أظهرت نظرية الفوضى أنّ العالم لا يسير وفق خطية بسيطة بل وفق علاقات متشابكة، تغذية راجعة، حساسية، وبني ذاتية التنظيم.⁴

تكشف التحولات الكبرى التي شهدتها العلوم الطبيعية في مطلع القرن العشرين عن اهتزاز عميق في أسس البراديغم التبسيطي الذي ساد منذ القرن السابع عشر. فقد تزعزعت مسلّمات الحتمية، واليقين، والاختزال، والتفسير الخطي، بعدما أظهرت الاكتشافات العلمية الجديدة أنّ الطبيعة أكثر تعقيداً من أن تحتل في نماذج بسيطة أو علاقات سببية مباشرة. ومع تراكم هذه التحولات، أصبح واضحاً أنّ أدوات التفكير القديمة لم تعد قادرة على احتواء الواقع أو تفسير دينامياته المتشابكة، وأنّ العلوم بحاجة إلى إطار معرفي جديد يستوعب التفاعل، والتعدد، واللاحتمية، واللاخطية.

¹ - لاندل أندريه، موسوعة لاندل الفلسفية، المجلد الثالث، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات، ط 1، 1996.

² - هيثم السيد، ياسر مصطفى، نظرية الكوانتم بين العلم والفلسفة: مناظرة أكاديمية، ص

<file:///C:/Users/mon%20pc/Downloads/%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-.pdf>.43

³ - Ahmed Romdhani, la théorie du Chaos, <https://fr.scribd.com/document/596150615/la-theorie-du-chaos>.

⁴ - مهرة حامد محمد صقر، تأثير الفراشة: الحركة ما بين قوانين نيوتن الحتمية ونظرية الفوضى، في أعمال تصويرية من فن "الفراكتال" الرقمي، مجلة العمارة والعلوم الانسانية، المجلد السابع، العدد 35، سبتمبر 2022، ص 581.

وبهذا بدأ تدريجياً تشكّل براديجم التعقيد بوصفه استجابة إبستمولوجية ومنهجية للحدود التي بلغتها الرؤية التبسيطية، وكتحول نوعي في فهم الظواهر الطبيعية أولاً، والاجتماعية فيما بعد.

2- براديجم التعقيد وإسهامات موران:

يعدّ براديجم التعقيد استجابة نقدية والذي ظهر بفضل النظريات العلمية الجديدة والتي ظهرت من أجل التفكير في الظواهر ذات مستوى عالي من التعقيد؛ أي تلك الأنظمة التي تتركب من أجزاء أو ظواهر متفاعلة بعضها البعض بحيث يستحيل في أجزائها البسيطة عموماً حتى لو كانت الأجزاء المكوّنة لمنظومة معيّنة تدخل في حيز البساطة إلا أنّ العلاقات التي تربط بين هذه الأجزاء تتسم بطابع التعقيد.

ينظر "موران" إلى مصطلح التعقيد رغم أنّه الفكرة المفتاحية التي ينبغي توجيه الفكر البشري إليها، رغم أنّها بحيث فكرة هامشية في الأبحاث العلمية والفلسفية الحديثة، ولكن مع ظهور النظريات العلمية النظريات العلمية الجديدة فتحت المجال أمام هذا المصطلح لكي يتحول إلى مشكلة أساسية تطرح على بساط البحث.

في هذا السياق طوّر "إدغار موران" ما سمّاه "الفكر المركّب"، الذي يسعى إلى تجاوز الانفصال الذي أحدثه الفكر الغربي بين العلم والفلسفة، وبين الكل والجزء، وبين النظام واللاتّظام. ويرى "موران" أنّ الواقع لا يفهم إلاّ عبر مقارنة علاقاتية، تفاعلية، واللاتّخطية، تأخذ في الاعتبار التداخل المستمر بين النظام والفوضى، والارتباطات المتبادلة بين الظواهر، وما ينشأ عنها من خصائص جديدة لا تختزل في أي من عناصرها المفردة.¹

يقوم براديجم التعقيد، كما صاغه "موران" على نقد جوهرى لمبدأ الاختزال إذ يعتبر أنّ تفكيك الظاهرة إلى أجزائها لا يكشف طبيعتها الحقيقية، لأنّ التفاعلات بينها تولّد مستويات جديدة من التنظيم والمعنى. ولهذا يؤكّد "موران" على ظهور خصائص جديدة لا يمكن التنبؤ بها من العناصر الأولية، كما يبرز مبدأ التنظيم الذاتي باعتباره قدرة الأنظمة على إعادة بناء توازاناتها بصورة تلقائية، وتكيفها مع التحولات المحيطة بها.

يضاف إلى هذه الخصائص مبدأ اللاتّخطية الذي يجعل العلاقات بين السبب والنتيجة غير مستقيمة ولا قابلة للحساب بدقة، إضافة إلى مبدأ الاحتمية الذي يرفض إمكانية الوصول إلى يقين مطلق بسبب حساسية الأنظمة للتغيرات الأولية. ويعتمد براديجم التعقيد كذلك على الفكر الشبكي الذي يدرس الظواهر من منظور ترابطي، يجعل العلاقات والارتباطات من أهم العناصر الفردية.²

¹ - فاهم بن عاشور، براديجم التعقيد عند إدغار موران، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 15، العدد 1، ص 174.

² - نفس الموضوع.

عرفت نظرية الفوضى توسعا نوعيا بعد ظهور السيبرنطيقا في منتصف القرن العشرين مع أعمال "نوربرت وينر"، التي ركزت على مفاهيم التغذية الراجعة، والتحكم، والمعالجة المستمرة للمعلومات داخل الأنظمة. فقد ساعد هذا التطور على إدراك أنّ السلوك "الفوضوي" للأنظمة لا يعني غياب القوانين، بل يشير إلى وجود بنى تنظيمية دقيقة تتحكم فيها عمليات معقدة من التفاعل بين العناصر. ومع تقدّم السيبرنطيقا، اتضح أنّ الأنظمة الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية تتضمن آليات ضبط ذاتي، تجعلها تتأرجح بين النظام واللاتظام. وهو ما مهّد لفهم أعمق لتأثيرات "الحساسية للشروط الابتدائية" التي أسّس لها "بوانكاريه" و"لورنز". وقد كانت السيبرنطيقا بمثابة القاعدة التكنولوجية النظرية التي سمحت بتطور رياضيات التعقيد، والنماذج الديناميكية غير الخطية، وكلها مكوّنات أساسية في نظرية الفوضى المعاصرة.¹

بهذا يقدّم موران معالم براديجم معرفي جديد يتجاوز حدود الرؤية التبسيطية، ويعيد بناء علاقة الإنسان بالمعرفة والواقع وفق منطق يتلاءم مع تعددية الظواهر وتشابكها. ويعدّ هذا التحول جوهريا ليس فقط في العلوم الطبيعية، بل أيضا في العلوم الاجتماعية والإعلامية، التي أصبحت بحاجة ملّحة إلى أدوات تحليل تستوعب التعقيد المتزايد للعالم المعاصر

يوضح هذا الجدول الآتي أهم الفروق بين البراديجمين لإبراز طبيعة هذا الانتقال وأبعاده الاستمولوجية

العنصر	البراديجم التبسيطي	براديجم التعقيد
-منطق الفهم	-يقوم على التبسيط والاختزال وتقسيم الظاهرة إلى عناصر منفصلة	-يقوم على الشمول والترابط ودراسة الظاهرة كنسق ديناميكي متفاعل
-العلاقة بين الجزء والكل	-الجزء أهم من الكل، ويمكن فهم الكل من خلال تحليل أجزائه	-الكل أكثر من مجموع أجزائه وتنتج خصائص جديدة من تفاعل الأجزاء
-السببية	-خطية، بسيطة مباشرة	-غير خطية، معقدة، متعددة المستويات
-الاحتمية	-يؤمن بإمكانية التنبؤ الكامل بالظواهر	-يقبل الاحتمية وحساسية الأنظمة للظروف الأولية
-النظام والفوضى	-يفصل بين النظام والفوضى بشكل صارم.	-يرى أن الفوضى جزء من بناء النظام وأتّهما متداخلان ومتبادلان

¹ - Edward N. Lorenz, **Deterministic Nonperiodic Flow**, journal of the atmospheric sciences, 7 January 1963.

-المنهج	-منهج اختزالي، تحليلي، يبحث عن قوانين ثابتة	-منهج علاقتي، شبكي، تفاعلي، يأخذ اللايقين في الاعتبار
-الزمن	-خطي، ثابت، متواصل	-غير خطي، ديناميكي، مليء بالتحويلات المفاجئة.
-طبيعة المعرفة	-يقينية، موضوعية، ثابتة	-احتمالية، مفتوحة، مرنة، تعتمد على السياق
-تصور الظاهرة	-بسيطة، مستقرة، يمكن التحكم فيها	-معقدة، متغيرة، غير قابلة للتحكم الكامل
-نماذج التأثير العلمي	-مستوحاة من الفيزياء الكلاسيكية (نيوتن)	-مستوحاة من النسبية، الكوانطا، الفوضى، والفكر المركب لـ "موران"
-الصورة العامة للعالم	-عالم ميكانيكي، منتظم، ويمكن تفسيره عبر قوانين دقيقة وثابتة	-عالم شبكي، ديناميكي، تتداخل فيه الأنظمة والعوامل والمتغيرات.

تظهر المقارنة أنّ براديجم التعقيد لا يلغي البراديجم التبسيطي، بل يتجاوزه ويوسّع حدوده في اتجاه أكثر واقعية وقدرة على استيعاب تشابك الظواهر. فالعالم المعاصر لم يعد قابلاً للفهم عبر النماذج الخطية أو العلاقات السببية البسيطة، بل عبر رؤية شبكية تتعامل مع الأنظمة بوصفها ديناميكية، لاختية، وقابلة لإنتاج خصائص جديدة.

ومن هنا، يمثل التعقيد اليوم إطاراً منهجياً ضرورياً في العلوم الاجتماعية والإنسانية وعلوم الإعلام والاتصال، نظراً لطبيعة الظواهر التي تدرسها والتي تتسم بالتعدد والتفاعل والتحول المستمر بهذا يكون البراديجم الجديد استجابة معرفية تتلاءم مع منطق العصر، دون أن تقطع بصورة نهائية مع إرث العلم الكلاسيكي، بل تعيد تأويله ضمن رؤية أكثر عمقا وشولاً.

ختاماً يتبين من خلال هذه المحاضرة أنّ الانتقال من براديجم التبسيط إلى براديجم التعقيد لا يمثل مجرد تطور في أدوات التحليل، بل يعكس تحولاً عميقاً في طريقة التفكير العلمي ذاتها. فبراديجم التبسيط اعتمد على تفسير الظواهر عبر علاقات خطية مباشرة، تقوم على السبب والنتيجة بصورة واضحة ومحددة، بينما جاء براديجم التعقيد ليؤكد أنّ الظواهر، خاصة الاجتماعية والاتصالية، تقوم على التفاعل والتشابك والدينامية المستمرة.

ينبع إدراج هذه المحاضرة من أهميتها المعرفية والبيداغوجية، لأنّها تمنح الطالب أدوات تحليل أوسع، وتحرره من الفهم الاختزالي للظواهر. فهي تمهّد له الانتقال من التفكير الأحادي إلى التفكير الشبكي، ومن التحليل الجزئي إلى الرؤية الشمولية. كما تكتسب هذه المحاضرة أهمية خاصة في سياق دراسات الاتصال، إذ تمكن الطالب لاحقاً من استيعاب التحول الذي

عرفته النماذج الاتصالية، من النماذج الخطية إلى النماذج التفاعلية والنسقية والشبكية. ففهم هذا التحول البراديغمي يسهّل إدراك طبيعة التطور النظري في حقل الاتصال، ويجعله قادرا على تحليل النماذج الاتصالية في سياقها التاريخي والمعرفي، لا بوصفها قوالب جاهزة، بل بوصفها تعبيرا عن تحولات أعمق في الفكر العلمي.

تنهي هذه المحاضرة المحور الأول حول تشكّل المعرفة العلمية، موضحة كيف تطور الفكر العلمي من الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي، مروراً بالحدّات الأوروبية (العقلانية والتجريبية) وانتهاءً بالتحول من براديغم التبسيط إلى التعقيد. يتيح هذا التسلسل للطالب فهم أنّ المعرفة تتراكم وتتطور، وأنّ الانتقال من تحليل الظواهر بشكل بسيط إلى تحليلها المعقّد يعدّ أساساً لفهم النماذج الاتصالية والاجتماعية لاحقاً، وهو ما سيمثل مدخلاً طبيعياً للمحور الثاني حول التحوّلات الاستمولوجية الكبرى والتحوّلات المعرفية.

المحور الثاني: التمرجات الابرتمولوجية الكبرى لدراسة التمرولات المعرفية.

إذا كان تتبع التمركل المعرفة العلمية في المحور الأول قد كشف عن مسار تاريخي طويل لبناء العقل العلمي، فإنّ هذا المحور ينتقل من تاريخ العلم إلى فلسفة العلم، ومن سرد النشأة إلى تحليل البنية العلمية. فهنا لا نكتفي بسؤال؛ كيف نشأ العلم؟ بل نطرح سؤالاً أعمق وهو يتمثل في كيف يتغير العلم؟ وبأي منطق يتحول؟

يمثل هذا المحور لحظة انتقال من التفكير في المعرفة بوصفها تراكما خطيا، إلى مساءلتها بوصفها سيرورة متقطعة، مشروطة وقابلة لإعادة التمركل. فمع باشلار تتأسس فكرة القطيعة والعوائق الإبرتمولوجية، ومع بوبر يعاد تعريف معيار العلمية من خلال منطق التكرذيب، ومع توماس كوهن يقوؤ التصور التراكمي لصالح منطق الثورات وتحول البراديغمات، أما مع فوكو فتتجاوز المساءلة حدود المنهج إلى تحليل أنظمة الخطاب وشروط إمكان المعرفة ذاتها.

إنّ هذه التمرجات لا تمثل اختلافات نظرية معزولة، بل تعكس تمرولات عميقة في تصور الحقيقة، والعقل، والعلم، والعلاقة بين المعرفة والسياق التاريخي. وبذلك يشكل هذا المحور إطارا تحليليا يمكن الطالب من إدراك أنّ العلم ليس كيانا محايدا وثابتا، بل بنية دينامية تتحرك بين القطيعة والاستمرارية، بين العقلانية والنقد، وبين النظام والخطاب.

المحاضرة 4: مدخل للاستيمولوجيا

بعد أن تتبعنا في المحور الأول مسار تشكّل المعرفة العلمية من الفلسفة إلى الحداثة، يصبح من الضروري الانتقال من دراسة نشأة العلم إلى مسألة أسسه ومشروعياته وحدوده. وهنا يبرز سؤال مركزي؛ ما الذي يجعل معرفة ما علمية؟ وكيف يمكن تمييز العلم عن غيره من أنماط التفكير؟

تمثل الاستيمولوجيا لحظة انعكاسية في تاريخ الفكر، فهي ليست إنتاجا مباشرا للمعرفة، بل تفكيراً نقدياً في شروط إنتاجها. إنّها انتقال من ممارسة إلى تحليل بنيتها، ومن الثقة في العلم إلى مساءلته. لذلك لا تنشغل الاستيمولوجيا فقط بنتائج العلم، بل تركز على مفاهيمه، مناهجه، معاييرها، وتحولاته التاريخية.

من خلال هذه المحاضرة، سنحاول تفكيك المفهوم ذاته من خلال: ما معنى الاستيمولوجيا؟ كيف نشأت؟ وما الفرق بينها وبين فلسفة العلم أو نظرية المعرفة؟ كما سنمهد بذلك لدراسة التحولات الكبرى التي عرفها التفكير العلمي مع باشلار، بوبر، توماس كوهن، وفوكو، حيث ستوضح لنا كيف أصبح العلم موضوعاً للنقد والتحليل بدل أن يكون مجرد سلطة معرفية غير قابلة للمساءلة.

إنّ فهم الاستيمولوجيا لا يهدف فقط إلى الإحاطة بمفهوم نظري، بل إلى تزويد الطالب بأداة تمكنه من قراءة التحولات المعرفية في مختلف العلوم، ومنها علوم الإعلام والاتصال، بوصفها جزءاً من دينامية أوسع لتحول العقل العلمي نفسه.

أ- إيتيمولوجية المفهوم:

يعتبر مصطلح الاستيمولوجيا مصطلحاً يونانياً يتألف من شقين "Epistime" وتعني العلم أو المعرفة، و"Logos" وتعني دراسة، نقد أو نظرية، لذلك بحكم الاشتقاق اللغوي فإنّ مصطلح الاستيمولوجيا يعني "نظرية العلم" أو "نظرية المعرفة"¹.

- اصطلاحاً: البدايات الأولى لتداول مصطلح الاستيمولوجيا

أول من تبوّأ المصطلح هو الفيلسوف الأسكتلندي "جيمس فريدريك فريزر" (1808-1864)، وهو أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جامعة سانت أندروز من أشهر مؤلفاته كتابه المعنون "مقدمة في فلسفة الوعي" والذي كان في حقيقته سلسلة مقالات نشرها ما بين العامين 1838 و1839 في مجلة "بلاك وود" (black Wood) وهو كتاب نقدي للفلاسفة وذلك لتجاهلهم الوعي في أبحاثهم النفسية، ومن مؤلفاته الأخرى كتابه "أزمة التأمل الحديث" الذي ظهر في العام 1841.

¹ - علي حسين كركري، الاستيمولوجيا في ميدان المعرفة، شبكة المعارض، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص15.

يعرّف "الالاند" (Lalande) في معجمه الاستيمولوجيا بأنها "فلسفة العلوم" ثم يضيف ولكن بمعنى آخر أكثر خصوصية فهي ليس بالضبط دراسة المناهج العلمية، هذه الدراسة التي لها موضوع الميتودولوجيا، والتي تشكّل جزءاً من المنطق، وليس كذلك تركيباً أو استنباطاً للقوانين العلمية وإنّما هي أساس الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم ولفروضها ونتائجها بقصد تحليل أصلها المنطقي لا السيكلوجي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية. ما يعني أنّ الاستيمولوجيا بصفة جوهرية هي الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية. الدراسة الهادفة إلى بيان أصلها، وقيمتها الموضوعية.¹

أما "بول موري" فيرى أنّ الاستيمولوجيا هي النقد العلمي للمعرفة... ومهمتها دراسة المنهج العام للعلوم والعمليات التي يطبقها العقل البشري على العلوم. يضيفي "بول موري" في تعريفه الطابع الفلسفي لماهية الاستيمولوجيا من خلال تركيزه على دور العقل البشري بملكاته ومقوماته التحليلية النقدية وما يمارسه من عمليات فكرية على مختلف المعارف.

يعرفها محمد قاسم أنّ الاستيمولوجيا هي "دراسة نقدية واعية لطبيعة ومناهج العلم وتصوراته ومبادئه فتناول بالفحص والتدقيق والمبادئ والأسس والبناء المنطقي لأي نسق علمي باستعمال الاستقراء والاستنباط والتحقيق.

أما "بول موري" فيرى أنّ الاستيمولوجيا هي النقد العلمي للمعرفة... ومهمتها دراسة المنهج العام للعلوم والعمليات التي يطبقها العقل البشري على العلوم. يضيفي "بول موري" في تعريفه الطابع الفلسفي لماهية الاستيمولوجيا من خلال تركيزه على دور العقل البشري بملكاته ومقوماته التحليلية النقدية وما يمارسه من عمليات فكرية على مختلف المعارف.

تعرف الإستيمولوجيا، بأنّها تقييم للحصيلة العلمية والموضوعية والمنهجية للعلوم ونتائجها، وإظهار تأرجحها بين الذاتية والموضوعية، وتقييم مناهجها مما يجعل منها وعياً نقدياً للعلم الموضوعي.² يعرفها "سالم يفوت" أنّها نظرية الإنتاج النوعي للتصورات العلمية، إنّها النظرية التي تهتم بتشكيل نظريات كل علم على حدة.³

يقول "بياجيه": "إنّ المناسبات التي يزهر فيها التفكير الاستيمولوجي هي الأزمات التي يمر بها هذا العلم أو ذاك، وأنّ علّة هذه الأزمات هي التغيرات المتعلّقة بالمناهج التي تستخدم في هذه العلوم، وأنّ تجاوز هذه الأزمات مشروط باختراع "مناهج جديدة". فالتفكير الاستيمولوجي داخلي يبحث عن الأسس والتركيبات الداخلية لنسق المعرفة.

¹ - محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1976، ص18.

² - غنيمّة هارون، استيمولوجيا العلوم الانسانية عند سالم يفوت، (استيمولوجيا العلوم الانسانية: في الفكر العربي والفكر الغربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2017، ص 113.

³ - عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت، درس الاستيمولوجيا، ط3، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2007، ص7.

لذلك يرى "بياجيه" أنَّ الاستيمولوجيا هي مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ، أو هي نظرية العلوم أو فلسفة العلوم أو دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة نقدية تؤدي إلى إبراز أساسها المنطقي وقيمتها الموضوعية.¹

يقول "كارل مانهيم" (Karl Mannheim) "عملت الاستيمولوجيا على إنهاء الشك باعتمادها على نقطة انطلاق لا تستند إلى تلقين وثوقي لنظرية الوجود، ولا إلى نظام كوني يستمد مصداقيته من نوع متعال من المعرفة، لكن تعتمد على تحليل الذات العارفة"

ويمكن تسجيل استنتاجين من تعريف الاستيمولوجيا:

- الاستيمولوجيا هي خطاب حول العلم discours sur la science، أي أنّها لا تسبق العلم وإنّما تأتي بعده.
 - الاستيمولوجيا هي خطاب نقدي حول المعرفة العلمية، أي حول كيفية تشكيلها وتطورها.
- ولذلك يجب على طلبة الاستيمولوجيا التّحكم في تعريف العلم والمعرفة العلمية باعتبارهما يمثلان موضوع الاستيمولوجيا. ونشير أيضا إلى ضرورة التمييز مفاهيميا بين ماهو معرفة علمية وماهو معرفة غير علمية.

وبهذا يصبح هناك مجالين أو اهتمامين للاستيمولوجيا:²

- جانب وصفي aspect descriptif: ويوجب هذا الجانب على سؤال ما هي البنية والحركية الداخلية لمجال أو حقل علمي معين؟

- جانب معياري aspect normatif: ويهتم هذا الجانب بتعريف ما هو العلم، أو تحديد حقل ما هو علم ويوجب هنا على سؤال: ما هو العلم أو متى نكون بصدد حقل علمي؟

وتستعين الاستيمولوجيا بمنهجين أساسيين:

- La méthode synchronique: وهو منهج مباشر لا يربط المعرفة بتطورها التاريخي وإنّما يدرسها في لحظتها الحالية من خلال دراسة محتواها ومنهجها، وهذا ما يسمى بالمنهج المباشر أو التحليل المباشر.

¹ -جان بياجيه، الاستيمولوجيا التكوينية، ترجمة السيّد نفادي، دار العالم الثالث للنشر، بيروت، 2004، ص24.

² -Qu'est- ce que l'épistémologie, https://www.editions-ellipses3_EyU9CFtNRUtwv1FYqnVfvr6Rx, p-p 16-17,

- La méthode diachronique: وهو منهج يربط تحليل الاختصاصات العلمية بتاريخ تطورها ابتداء من ميلادها ثم تطورها وتحولها إلى نظريات علمية، وهو بهذا عبارة عن تحليل جينيستيكي analyse génétique مقابل للتحليل المباشر في المنهج الأول، وهذا التوجه يطرح سؤال التطور العلمي، أو ما سمته الأعمال الكبرى بتاريخ العلوم وهنا ندرس:

- تاريخ التخصصات العلمية.

- تاريخ النماذج والنظريات.

- خصائص الإستيمولوجيا:

تكتسب الإستيمولوجيا بناء على تعريفها خاصيتين بارزتين، فهي:¹

1- خطاب تدبُّري réflexif، بمعنى خطاب يسقط نفسه على العلوم، ذلك أنها تفترض مسبقا وجود العلم، وتأتي بعده لزاما.

2- خطاب نقدي critique، حيث لا تكتفي بوصف العلوم دون محاكمتها، أي مناقشة سلامة الأسس التي قامت عليها.

- الاستيمولوجيا والعلم:

يرتبط ظهور مصطلح الاستيمولوجيا بتاريخ الحركة العلمية خاصة خلال القرنين الثامن والتاسع عشر. ولئن كان المصطلح جديدا فإنَّ الحركة العلمية والممارسات النقدية الفلسفية المنطقية على العلم قديمة قدم الفكر اليوناني، فأول من تعرض لها كان الفيلسوف اليوناني "بارميندس" من خلال مقولته "أنَّ هناك وجودا يتعدى كل ما تعرفه التجربة العادية" ليتطور الأمر تدريجيا مع "سقراط" و"أفلاطون" خاصة من خلال مؤلف هذا الأخير الموسوم بـ "محاورة ثياتينوس" التي شغلت المعرفة وتعريفها حيِّزا واسعا منها".

تتوالى بعدها تطورات المسار العلمي في هذا الشأن إلى أن ظهر مؤلف الفيلسوف "جون لوك" سنة 1690 والموسوم بـ "مبحث في الفهم الإنساني" الذي تناول بإسهاب موضوع الاستيمولوجيا في حيِّز كبير. وبعد أن تراكم نتاج الحركة النقدية للعلوم التي تناولت طبيعة القوانين ونظريات الفيزياء وقوانين الرياضيات عندها اجتمعت الكفاءة العلمية مع التفكير الفلسفي وجدت الاستيمولوجيا نفسها قد تكونت بوصفها مبحثا أصيلا.

¹ Ibid, p 16-17

وقد أكد "بوبر" من جهته أنّ مشكلات الاستمولوجيا مرتبطة بمشكلة نمو المعرفة لذلك وجب التركيز على تتبع حركات نمو هذه المعرفة ودراساتها، فالمعرفة ليس لها حدود نهائية لأنّ العلم قائم على تصحيح العلم، لأنّه وكما يرى "باشلار" يجب النظر إلى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان كتكوين من ناحية وباعتبارها لم ولن تكتمل من ناحية أخرى وهو ما أسماه "باشلار" الفلسفة المفتوحة.

4-المعرفة:

يمكن تعريف المعرفة أنّها عبارة عن مجموعة من المعاني والتصورات، الآراء، المعتقدات والحقائق التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به. والمعرفة مفهومها ليس مرادفا لمفهوم العلم، فالمعرفة تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية، فكل علم معرفة إلا أنّه ليس بالضرورة أنّ كل معرفة علما. يكمن الفرق بين العلم والمعرفة على أساس الأسلوب والمنهج التفكير الذي من خلاله يتم تحصيل المعرفة.

يمكن تعريف العلم وفق ما ذهب إليه فيلسوف العلم الفرنسي "هنري بوانكاريه"، في كتابه "قيمة العلم"¹ بأنّه: "طريقة في تقريب الحوادث التي تفصل بينها المظاهر، رغم أنّها مرتبطة بقرابة طبيعية وخفية، فالعلم هو نسق من العلاقات وهو عبارة عن المعرفة المنسقة التي تنشأ من الملاحظة والدّراسة والتجريب، وهو مجموع الخبرات الإنسانية التي تجعل الإنسان قادرا على التقدير أو فهم الظواهر الكونية من أسباب وآثار".

الفرق بين العلم والمعرفة: يكمن الفرق بين العلم والمعرفة في كون الأخيرة إدراك للجزئيّ، في حين أنّ العلم هو إدراك للكلّيّ، ولذلك تقول مثلاً عرفني الله ولا تقول علمني الله، لأن من شروط العلم أن يكون العالم محيطة بأحوال المعلوم إحاطة تامة.

5-مصادر المعرفة:

أ-المعرفة الحسيّة: هي المرحلة التي كان الإنسان يعتمد فيها على حواسه كمعرفة كل ما يدور حوله، وهي لاتزال مستمرة لوقتنا الحالي، ويمكن تسميتها بمرحلة طفولة العلم، وهي أولى المصادر التي اعتمد عليها الإنسان في تفسير الظواهر. "حواسنا تخدعنا"

ب-مرحلة الاعتماد على التقاليد ومصادر الثقة: كانت تفسّر الظواهر تبعا لأفكار بعض الحكماء والقدامى، وهي معارف متوارثة تتحول في كثير من إلى تقاليد يحافظ عليها الأجيال كما قد تكون المعرفة مفروضة من طرف القبيلة أو السلطة بشكل أعم، وهذا ما نجده في العصور الوسطى مع سيطرة الكنيسة وفرضها للحقائق.

¹ - هنري بوانكاريه، قيمة العلم، ترجمة الميلودي شغوم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.

ج-المعرفة الفلسفية: وهي معرفة تعتمد على التأمل والحوار والتدليل، فهي مرحلة اعتمد فيها على التدليل المنطقي من خلال استنتاجات منطقية وهذا ما نجده في أفكار أفلاطون وأرسطو إلا أنّ هذه المعرفة تخدع الباحث أحيانا لأنها تركز على العمليات العقلية والحوار الماهر.

د-مرحلة المعرفة العلمية: وهي مرحلة التحقيق العلمي من خلال وضع الفروض وإجراء التجارب واستخلاص النتائج وهي مرحلة تحويل الظاهرة الكيفية إلى كمية وهي لا تقف عند المفردات الجزئية التي يقوم الإنسان ببحثها بل تتجاوز ذلك حتى يصل إلى قوانين ونظريات عامة وهذا ما عبّر عنه "أوغست كونت": " أنّ المعرفة العلمية جاءت في مرحلة متأخرة من تطور العقل الإنساني، حينما استطاع أن يفسّر الظواهر تفسيراً علمياً".

- مصدر المعرفة العلمية: الغالب في ميدان الإستمولوجيا هو القول بطريقتين للحصول على المعرفة العلمية، وتتمثلان في أطروحتي الاستقراء والاستنباط، أما الاستقراء فهو استدلال مستمد من ملاحظة وقائع خاصة، بهدف استخلاص افتراضات عامة، في حين أنّ الاستنباط هو استدلال مستمد من افتراضات عامة، بغية التحقق من صحتها في الواقع.

ختاماً يتضح من خلال هذا التفكير المفاهيمي، أنّ الاستمولوجيا ليست مجرد تأمل عام في المعرفة، بل هي تحليل نقدي لبنية العلم وشروط إمكانه. إنّها تفكير في الأسس والمعايير التي تجعل من المعرفة معرفة علمية، وفي الحدود التي تفصلها عن أنماط التفكير الأخرى. غير أنّ هذه الوظيفة النقدية لا تكتمل إلا من خلال تحديد موقع الاستمولوجيا داخل الخريطة المعرفية العامة. فهي تتقاطع مع فلسفة العلم في مساءلة الأسس والمفاهيم الكبرى للعقلانية العلمية، وتلتقي مع تاريخ العلم في تتبع تحولات المعرفة وسيورتها الزمنية، كما ترتبط بعلم المناهج في تحليل الأدوات والإجراءات التي يعتمد عليها الباحث في إنتاج المعرفة.

إنّ هذا التداخل يفرض ضرورة التمييز بين المستويات، مستوى التأمل الفلسفي، مستوى التتبع التاريخي، ومستوى التحليل المنهجي. ومن هنا تنفتح المحاضرة القادمة على سؤال مركزي؛ كيف تتحدد علاقة الإستمولوجيا بهذه الحقول الثلاثة؟ وأين تبدأ حدود كل مجال وأين تنتهي؟

المحاضرة الخامسة-علاقة الاستمولوجيا بالحقول المعرفية الأخرى:

لا يمكن فهم الاستمولوجيا إلا من خلال موقعها داخل البنية المعرفية العامة، فهي لا تشتغل في فراغ، بل تتحدد عبر تفاعلها مع حقول قريبة منها، وفي مقدمتها فلسفة العلم، تاريخ العلم، وعلم المناهج؛ غير أنّ هذا القرب يثير إشكال التمييز، أين تنتهي حدود كل مجال؟ وما طبيعة العلاقة التي تجمع بينها؟

تهدف هذه المحاضرة إلى ضبط هذه العلاقات على نحو منهجي، من خلال بيان نقاط الالتقاء والاختلاف، وتحديد المستوى الذي تتحرك فيه الاستمولوجيا بوصفها تحليلاً نقدياً للعلم، يختلف عن التأمل الفلسفي العام، وعن السرد التاريخي، وعن التقنيات المنهجية الإجرائية.

أ-الاستمولوجيا ونظرية المعرفة:

تهتم نظرية المعرفة بتحليل طبيعة المعرفة، كما تهتم بدراسة المشكلات التي تثيرها العلاقة بين الذات العارفة والموضوع، لذلك فنظرية المعرفة هي مصطلح مركب من لفظين وهما نظرية وهي تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ والمقدمات أو هي فرض علمي يربط عدّة قوانين ببعضها، أو بتعبير آخر فالمعرفة هي ذلك الفعل الذي تستطيع بواسطته الذات أن تسيطر عقلياً على موضوع معين بهدف اكتشاف خصائصه المميزة.

والثاني المعرفة في التحليل الفلسفي هي ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك، ومعنى ذلك أنّ المعرفة عملية إدراك، فعندما يدخل الموضوع في علاقة معرفية يصبح معروفاً أي مدركاً، أو هي العلم الذي يبحث في المسائل المتصلة بطبيعة العلم الإنساني.¹

أمّا الاستمولوجيا بالمعنى المتداول في الفكر المعاصر، فتعني تحديداً بـ"المعرفة العلمية"، مناهجها، شروط صلاحيتها، معاييرها، وأشكال تطورها.

لذلك تظهر بينهما علاقة تقاطع، وقد انقسم الدارسون إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية في تفسير هذه العلاقة:

-الاتجاه الأول (الانجلوساكسوني): لا يميز بين المصطلحين، ويعتبر الاستمولوجيا ونظرية المعرفة مترادفين. وهو ما نجده في Britannica Encyclopedia of philosophy، Encyclopedia حيث تعرّف الإستمولوجيا بأها "الدراسة الفلسفية لطبيعة المعرفة وحدودها".

-الاتجاه الثاني: (الفرنكفوني-الإستيمولوجيون المعاصرون): يفرّق بين المجالين بعلاقة الجنس والنوع، فنظرية المعرفة أوسع، بينما الاستمولوجيا تركز على المعرفة العلمية تحديداً، أي على شروط إنتاج الخطاب العلمي وطرق تبريره.

¹ -أمنة عبد السلام الزائدي، مفهوم نظرية المعرفة، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب. س. ط)، ص 351، 352.

-الاتجاه الثالث (الوضعية المنطقية): يرفض الربط بينهما، فالابستمولوجيا عندهم علم نقدي لمفاهيم العلوم الصورية والتجريبية، بينما نظرية المعرفة مجال فلسفي أوسع يشمل كل أشكال المعرفة العلمية وغير العلمية.¹

وهكذا يمكن القول أنّ الابستمولوجيا هي الجانب العلمي-النقدي المتخصص من نظرية المعرفة، فهي تدرس المعرفة حين تصبح علما، بينما تظل نظرية المعرفة إطارا أوسع يعالج ماهية المعرفة الإنسانية بوجه عام.

ب-الابستمولوجيا وفلسفة العلم:

تعتبر فلسفة العلوم أحد فروع الفلسفة الذي يهتم بدراسة الأسس الفلسفية والافتراضات والمضامين الموجودة ضمن العلوم المختلفة، بما فيها العلوم الطبيعية مثل الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والعلوم الاجتماعية. ظهرت تسمية فلسفة العلوم في بداية القرن 19 وهي التسمية التي أطلقت على التيار الفلسفي الذي تزامن مع ظهور الوضعية، كما أنّه تيار يسعى إلى إخضاع التأمل الفلسفي إلى المسعى العلمي بهدف تقريبه إلى الدقة والواقع الحسّي ومن ثمّ فتح أمامه آفاقا علمية واسعة. يعتبر الفيزيائي الفرنسي " أندري آمبير " (André Ampère) (1836-1775) أول من استخدم المصطلح في كتابه " بحث في فلسفة العلوم " سنة 1834. ولا شك في أنّ الوضعية هي السبب الرئيسي في ظهور مصطلح فلسفة العلوم.

يرى " بلانشيه " أنّ محاولة التمييز بدقّة بين الابستمولوجيا وفلسفة العلوم يزداد عسرا، وذلك من جراء مرونة هذه العبارة الأخيرة فصاحب كتاب " قراءات في فلسفة العلوم " يميز بين أربع وجوه مختلفة لفلسفة العلم:²

-دراسة علاقته بالعلم والمجتمع

-السعي لوضع العلم وطرح مجموعة القيم الإنسانية

-المحاولات الفكرية التي تنطلق من نتائج العلم وتجاوزها لبلوغ ما يمكن تسميته فلسفة الطبيعة.

-التحليل المنطقي للغة العلم.

وهدف القائلين بعدم وجود أية علاقة بين الابستمولوجيا وفلسفة العلوم فهو ألاّ تختلط الابستمولوجيا بالمشكلات الفلسفية. ولو صحّ القول أنّ هناك علاقة بين الابستمولوجيا والفلسفة لصحّ بالتالي القول أنّ لكل فلسفة مفهومها الخاص من العلم ابتداء من فلسفة أفلاطون وصولا إلى الفلسفة الوضعية هذه الأخيرة التي جعلت للعلم مكانا خاصا ومميزا في نسق المعارف المختلفة وهذا ما قد يجعل الفلسفة الوضعية تنصدر فلسفة العلوم.

إنّ أهم ما يميّز الابستمولوجيا المعاصرة، كما يقول الاستاذ " روبر بلانشيه " هو الانتقال التدريجي بمشكلاتها من أيدي الفلاسفة إلى أيدي العلماء المتخصصين، انتقالا ليس مردّه إلى رغبة عابرة ولكن سببه تلك الأزمات الأخيرة التي هزّت

¹ -مليكة جابر، اسهام الابستمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب.س.ط)، صص 394-395.

² - روبر بلانشيه، نظرية المعرفة العلمية(الابستمولوجيا)، ترجمة حسن عبد الحميد، مطبوعات الجامعة، 1986، ص 21

العلوم من جذورها، وما تلا ذلك من ثورات علمية كان على العلوم نفسها أن تستوعبها. نتج عن ذلك أنّ العلماء أنفسهم أعادوا النظر في مبادئ علومهم، ووضعوا الأسس التي تقوم عليها موضع التساؤل، ولقد تمّ كل هذا بين العلماء أنفسهم وبعيدا عن الفلسفة والفلاسفة. ما يعني أنّه يمكن القول أنّ الاستمولوجيا باتت تغلت أكثر فأكثر من قبضة الفلاسفة.

لكن هل هذا يعني أنّنا نفني أيّ علاقة بين الاستمولوجيا وفلسفة العلوم؟ لا يمكن أن ننكر أنّ مشكلات الاستمولوجيا الخاصة بكل علم على حده غالبا ما تتطلب ما هي الأخرى خلفية فلسفية عند العلماء أنفسهم. لذلك نجد عدّة استمولوجيا كبرى في زمننا كما يحلّل "روبرت بلانشيه" ظلّت مرتبطة في الواقع بالفلسفة مثل أبحاث "غاستون باشلار" و"مايرسن وكسيوار". يضيف "بلانشيه" أننا إذا ما فرقنا بين الاستمولوجيا وفلسفة العلوم، فيجب أن نوّكد بأنّ هذا الفارق في درجة الاتساع فقط. فليست الاستمولوجيا إلّا جزء من فلسفة العلوم، إنّما ذلك الجزء الأكثر قربا بدون شك من العلم، إلّا أنّها بروحها ومناهجها تمتد في منطقة وسطى بين العلم والفلسفة فتتسع على جوانبها على حساب كلاهما.¹

رغم التقاطع الواسع بين الاستمولوجيا وفلسفة العلم، إلّا أنّ الاختلاف بينهما يظلّ في درجة الاتساع لا في طبيعة الموضوع. فالاستمولوجيا تعدّ جزءا من فلسفة العلم، وتحديدًا ذلك الجزء الأكثر التصاقا بالممارسة العلمية، لأنّها تهتم بتحليل بنية المعرفة العلمية وآليات تشكلها ومبادئ صلاحيتها. أما فلسفة العلم فتتخذ طابعا أوسع، إذ تبحث في الأسس الكونية للعلم، وموقعه ضمن المشروع الفلسفي العام، ومآلاته الأنطولوجية والمنهجية. وهكذا تتحرك الاستمولوجيا في منطقة وسطى بين العلم والفلسفة، فتمتد من جهة نحو تحليل المفاهيم والمناهج العلمية، ومن جهة نحو مساءلة مركزاتها الفلسفية، مما يمنحها طابعا مزدوجا يجعلها فرعًا خاصا داخل الفلسفة، لكنه شديد القرب من العلم من حيث الروح والإجراءات.²

ج- الاستمولوجيا وعلم المناهج: الميتودولوجيا اشتقاقا تأتي من **Méthode** وهي مشتقة من **Méthodos** اليوناني ومعناها الطريق إلى أو -لاحقا- المنهج المؤدي إلى ... وبعد تطور الكلمة باتت تدل على مجموعة العمليات العقلية والخطوات العملية التي يقوم بها العالم من بدئ عمله أو بحثه حتى نهاية بحثه من أجل كشف الحقيقة والبرهنة عليها.

يعرّف "أندريه لالاند" في قاموسه الفلسفي الذي صدر سنة 1906 الميتودولوجيا على "أنّها جزء من المنطق وفحواها أنّها تدرس المناهج العلمية على خلاف الاستمولوجيا" التي تعني الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات ونتائج مختلف العلوم" ما يعني أنّ الميتودولوجيا تقتصر فقط على دراسة المناهج العلمية دراسة وصفية تحليلية لبيان عملية الكشف العلمي وطبيعة

¹ - روبرت بلانشيه، مرجع سابق الذكر، ص23.

² - المرجع نفسه، ص ص48-49-50.

العلاقة التي تقوم بين الفكر والواقع. فهناك فرق بينها في مستوى التحليل في الميتودولوجيا مقصورة في الغالب على الدراسة الوضعية في حين أنّ الاستمولوجيا فهي في مستوى البحث النقدي.¹

يعبر "بياجيه" عن العلاقة بين الميتودولوجيا والاستمولوجيا بقوله "إنّ المناسبات التي يظهر فيها دائما التفكير الاستمولوجي هي الأزمات التي يمر بها هذا العلم أو ذاك، وأنّ علّة هذه الأزمات هي التغيرات المتعلّقة بالمناهج التي تستخدم في هذه العلوم وأنّ تجاوز هذه الأزمات مشروط باختراع مناهج جديدة" ما يعني أنّ العلاقة العضوية الموجودة بين المنهجية والنتائج العلمية لا تسمح بالفرقة بينهما، فالمنهج إذا كان سليما خالصا تكون نتائجه سليمة خالصة والعكس، فالتفاعل والتجانس بين هذا وذاك هو عماد المعرفة الصحيحة.²

يشدّد "بياجيه" على التكامل بين العلمين فالاستمولوجيا لا يمكن أن تستغني في دراستها النقدية على دراسة مناهج العلوم لأنّ دراسة المناهج العلمية مهمة في بيان مراحل عملية الكشف التي تعتبر في المجالات الأساسية للدراسة الاستمولوجية.

يقدم علم المناهج الدراسة الوصفية المستخدمة في تحصيل المعارف العملية ثم تتعدى الاستمولوجيا ذلك إلى الدراسة النقدية الرامية لاستخلاص المبادئ التي ينطوي عليها التفكير العلمي.³ وبالتالي لا يمكن الفصل فصلا تاما ما بين علم المناهج ونظرية المعرفة العلمية، فمن الصعب أن يدرس الاستمولوجي مبادئ وقوانين أي علم من العلوم دراسة نقدية دون أن يتساءل حول طبيعة وقيمة الوسائل التي تستخدمها هذه العلوم للوصول إلى النتائج والقوانين.

ترتبط الاستمولوجيا بعلم المناهج ارتباطا وثيقا، لأنّ كل تحليل استمولوجي يفترض وجود منهج يوجّه عملية إنتاج المعرفة العلمية. فعلم المناهج يختص بدراسة الأدوات والإجراءات والخطوات التي يعتمد عليها الباحث للوصول إلى نتائج قابلة للتحقق، بينما تتولى الاستمولوجيا مهمة نقد هذه المناهج، وتقييم صلاحيتها، والكشف عن حدودها المعرفية. وبذلك يمكن القول إنّ الاستمولوجيا تمثل البعد النظري-النقدي للمناهج؛ فهي لا تكتفي بوصف الطريقة العلمية، بل تحلّل منطقها الداخلي، وتختبر انسجامها، وتبحث في شروط إمكانها وتطورها عبر التاريخ. وعلى هذا الأساس ينظر إلى الاستمولوجيا باعتبارها مجالا يراقب ويصحّح وينسق اشتغال المناهج، مما يجعل العلاقة بين الطرفين علاقة تكامل بمعنى المنهج يقدم آليات العمل، والاستمولوجيا تمنح الشرعية النظرية والمعايير التي تضمن عملية تلم الآليات.⁴

د-الاستمولوجيا وتاريخ العلوم: يعتبر تاريخ العلوم ذلك التسلسل الذي تمر به الحقائق العلمية بشتى أنواعها عبر العصور، ويقول "بيير بوترو" "إنّ تاريخ العلوم المدروس بشكل ملائم يزيد من حظوظنا في اكتشاف أسس التفكير العلمي واتجاهاته".

¹ - محمد عابد الجابري، مرجع سابق الذكر، ص ص 22-23.

² - Piaget JEANS, **logique et connaissance scientifique**, Paris, Gallimard encycl., clop, id, 1967, p 78.

³ - علي حسن كركوري، **الاستمولوجيا في ميدان المعرفة**، شبكة المعارض لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1، 2010، ص 80

ويعتبر تاريخ العلوم مبحث ضروري للتفكير الاستيمولوجي، وهذا الأخير يحاول أن يبحث في تأسيس المعرفة العلمية، وذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى تاريخ المعرفة بصفة عامة وتاريخ العلم بصفة خاصة.

يعتبر "كونغليم" (Canguilhem) تاريخ العلوم مخبرا للاستيمولوجيا أين تقوم بتحقيق فرضياتها ونتائجها وبذلك تكون مهمة تاريخ العلم الكشف عن العلاقة المنطقية التي تربط الحقيقة بالعلم عبر المراحل التاريخية المختلفة والتي تمد الاستيمولوجيا بالعناصر الأساسية والضرورية لتحليلاتها ونقدها للمعرفة العلمية. إذن ما يهم الاستيمولوجيا من تاريخ العلوم هو تطور المفاهيم وطرق التفكير العلمية، وما ينشأ عن ذلك من قيام نظريات معرفية جديدة. وبذلك تكون مهمة تاريخ العلم الكشف عن العلاقات المنطقية التي تربط الحقيقة بالعلم عبر المراحل التاريخية المختلفة والتي تمد الاستيمولوجيا بالعناصر الأساسية والضرورية لتحليلاتها ونقدها للمعرفة العلمية، ذلك أن صنع سياقات تكون المعارف ونموها يقتضي بالضرورة العودة إلى تاريخها وتلك وظيفة المنهج التاريخي - النقدي.¹

يلعب تاريخ العلوم دورا مركزيا في فهم الاستيمولوجيا، لأنه يوفر لها المواد التحليلية الضرورية لفحص المعرفة العلمية وتطورها. فالاستيمولوجيا، بوصفها دراسة نقدية للمعرفة العلمية، لا تكتفي بالبحث في النتائج أو الحقائق العلمية وحدها، بل تهتم بكيفية نشوء هذه المعرفة، وبالممارسات والظروف الفكرية والاجتماعية التي أنتجتها.

من هذا المنطلق، يصبح تاريخ العلوم أداة للاستيمولوجيا لفهم العلاقات المنطقية بين الحقيقة والعلم عبر المراحل التاريخية المختلفة، وهو ما يمكن الباحث من تحليل المفاهيم العلمية، واكتشاف كيفية تطور النظريات، وفهم ظهور طرق التفكير الجديدة.

كما يتيح تاريخ العلوم للاستيمولوجيا أن تدرس تطور المفاهيم والمناهج العلمية عبر الزمن، بما في ذلك التجارب، والنظريات الفلسفية، والانقلابات البراديغمية التي طرأت على الفكر العلمي. وبهذا الشكل، يصبح تاريخ العلوم ليس مجرد سرد أحداث أو علماء، بل مخزونا معرفيا أساسيا تزود الاستيمولوجيا من خلاله بالعناصر الضرورية لنقد المعرفة العلمية وتقييم صلاحيتها، مع التركيز على المنهج التاريخي النقدي كأداة لفهم السياق الذي تنشأ فيه المعارف العلمية وتتصاعد.

في ختام هذه المحاضرة يتضح من خلال تحليل علاقة الاستيمولوجيا بفلسفة العلم وتاريخ العلم، وعلم المناهج، أن هذا الحقل لا يحتزل في أي منه، ولا يذوب داخلها، بل يتموضع عند نقطة تقاطعها محافظا على خصوصيته بوصفه تحليلا نقديا لشروط إنتاج المعرفة العلمية وحدودها.

غير أن هذا الموقع الوسيط يثير إشكالا عميقا يتجاوز مجرد ضبط الحدود، ما طبيعة العلاقة التي تربط الاستيمولوجيا بالعلم ذاته؟ هل هي علاقة تكامل، بحيث تؤدي الاستيمولوجيا دورا نقديا يثري الممارسة العلمية ويصحح مساراته؟ أم يمكن

¹-Piaget JEANS, Op,Cit, p8,

أن تتحول إلى أداة إضفاء شرعية على نموذج علمي مهيم؟ بهذا السؤال ننتقل من رسم خريطة العلاقات بين الحقول إلى مساءلة طبيعة السلطة داخل الحقل العلمي نفسه تمهيدا لمحاضرتنا القادمة، الاستمولوجيا بين النقد والهيمنة.

المحاضرة السادسة: العلم والاستمولوجيا: بين النقد والهيمنة.

تعدّ الاستمولوجيا أحد أهم الحقول الفلسفية التي انشغلت بدراسة شروط المعرفة العلمية، ومشروعية مناهجها، وحدود يقينها. غير أنّ المسار التاريخي لتطور العلوم الحديثة أفرز علاقة إشكالية بين العلم الكوني بمناهجه الصارمة، وبين الاستمولوجيا بوظيفتها النقدية المتمثلة في مساءلة هذا العلم نفسه. ومن ثمّ نشأت مفارقة مزدوجة: فمن جهة تبدو الاستمولوجيا بحاجة إلى العلم كي تمارس نقدها، ومن جهة أخرى يميل العلم -بما حققه من سلطة معرفية وتقنية- إلى الهيمنة على الاستمولوجيا، بل وإلى تقليص دورها إلى وظيفية وصفية أو تبريرية.

تسعى هذه المحاضرة إلى توشيح هذا الاشكال عبر تحليل طبيعة العلاقة بين الطرفين، مع إبراز الخلفيات التاريخية التي أسهمت في بروز هذا التوتر.

تأتي هذه المحاضرة بوصفها اجتهدا معرفيا من الأستاذة؛ يهدف إلى توسيع أفق الطالب ضمن مقياس "استمولوجيا علوم الإعلام والاتصال" من خلال التوقف عند إشكالية نادرا ما تطرح في المحاضرات الجامعية الكلاسيكية، رغم أهميتها في فهم البنية العميقة لصناعة المعرفة العلمية. فالإشكاليات التقليدية في هذا المقياس غالبا ما تركز على تعريف الاستمولوجيا، اتجاهاتها، ومكانتها ضمن تاريخ الفكر العلمي، أما هذه المحاضرة فتهدف إلى فتح نقاش أعمق يتجاوز التعريفات الكلاسيكية نحو مساءلة هذه العلاقة.

هل العلم يمارس هيمنة على الاستمولوجيا، يفرض عليها حدوده ومعايره؟ أم أنّ الاستمولوجيا هي التي تحافظ على استقلاليتها، فتقوم بدور نقدي يكشف أسس العلم وحدوده وشرعيته؟

هذا السؤال غير مطروح بوضوح في المناهج التقليدية، لكنه أساسي لفهم طبيعة التفكير العلمي ولتكوين عقل نقدي لدى الطالب.

1- العلم: سلطة التفسير وبناء الحقيقة

إنّ العلم المعاصر، بإنجازاته الهائلة وتقدمه المستمر، فرض نفسه كخطاب يمتلك القدرة على تفسير الواقع والتحكم فيه. فالفكر العلمي كما -يعبر عنه غاستون باشلار- لا يكتفي بوصف الظواهر نتيجة يمكن التحكم فيها بواسطة العقل

والبرهان¹. وهنا يظهر البعد السلطوي للعلم، فكّما زادت قدرته على التفسير والتحكّم، كلّما توسّعت شرعيته وحدوده على حساب الحقول المعرفية الأخرى.

ووفقا لروح فلسفة "باشلار"، فإنّ الفكر العلمي الحديث يقصي كل ما لا يتوافق مع منطقته، ويعتبر أنّ الحقيقة العلمية ليست معطى جاهزا، بل "معركة منهجية" تخاض عبر مفاهيم صارمة، وتجارب دقيقة، وقواعد عقلية لا تتسامح مع الغموض.² وهكذا يتحول العلم إلى سلطة معرفية مهيمنة تطالب بأن يكون لها "القول الفصل" في فهم العالم.

2-الابستمولوجيا: وظيفة نقدية لا يمكن الاستغناء عنها

على الرغم من قدرة العلم على إنتاج الحقيقة، إلّا أنّ الابستمولوجيا لا تمارس وظيفة التبعية. فهي ليست مجرد شرح للعلم، بل نقد لمنطقته، ولمفاهيمه، ولحدوده. إنّها تعمل على كشف الشروط التي تجعل معرفة ما ممكنة، وتقوم بتحليل القواعد التي يستند إليها العلم في بنائه لنظرياته.

إنّ الابستمولوجيا - بهذا المعنى - ليست مجالا وصفيا، بل مجالا نقديا، يحاول باستمرار إعادة بناء العلاقة بين الذات العارفة والموضوع العلمي. وهنا تبرز القوة الفلسفية للابستمولوجيا؛ فهي لا تتردد في وضع العلم ذاته موضع تساؤل، وفضح لحظاته اللاعقلانية، وإظهار التوترات الموجودة داخل خطابه.

وهذا ما يعبر عنه "باشلار" صراحة حين يؤكد أنّ العقل العلمي لا يتقدّم إلا عبر تدمير أوهامه السابقة، وأنّ التقدّم العلمي الحقيقي هو قطع ابستمولوجي مع المعارف التي ثبت قصورها. وبالتالي، فالابستمولوجيا ليست تابعة للعلم بل هي شرط تقدمه.³

3-بين الهيمنة والنقد: العلاقة الجدلية

يمكن القول أنّ العلاقة بين العلم والابستمولوجيا علاقة جدلية تقوم على طرفين متعارضين ومتلازمين في الآن ذاته: -من جهة يسعى العلم إلى فرض منطقته باعتباره الطريق الأمثل لبلوغ الحقيقة، وهذه الرغبة قد تتحول إلى نزعة هيمنة تجعل العلم يرفض كل نقد خارجي.

¹ -غاستون باشلار، فلسفة الرّفص، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 1983، ص12.

² -المرجه نفسه، ص18.

³ -الموضع نفسه.

-ومن جهة، يسعى العلم إلى فرض منطقته باعتباره الطريق الأمثل لبلوغ الحقيقة، وهذه الرغبة قد تتحول إلى نزعة هيمنة تجعل العلم يرفض كل نقد خارجي؛ وهذا ما سيجيبنا عنه "باول فيرابند" في نقده للعقلانية.¹

-ومن جهة، تأتي الاستمولوجيا لتذكر العلم بأنه ليس مطلقاً، وأنّ كل معرفة تحمل معها حدودها الخاصة، وأنّ التقدم العلمي لا يتحقق إلاّ بقدر ما يخضع العلم للمراجعة النقدية. وهذا ما أجابنا عنه "كارل بوبر" فيما بعد.

وقد عبّر "غاستون باشلار" عن هذا التوتر بوضوح عندما أكّد أنّ الفكر العلمي لا يستقر أبداً، وأنّ كل حقيقة علمية هي حقيقة تقريبية، قابلة للتجاوز والتعديل. فالعقل العلمي الذي لا يتعرض للنقد يتحول إلى عقل "دوغمائي"، في حين أنّ الاستمولوجيا تعمل على منع الانغلاق، عبر تفكيك المفاهيم، وإعادة طرح الأسئلة التي يهرب منها العلم.² إنّ إدراج هذه المحاضرة يعدّ اجتهاداً أكاديمياً ضرورياً لسببين رئيسيين:

-أولاً: لأنّ الطلبة بحاجة إلى إدراك أنّ العلم ليس معصوماً: فخطاب العلم اليوم يتربع على قمة السلطة المعرفية، ويميل إلى الهيمنة على الحقول، بما فيها الفلسفة نفسها. ومن المهم أن يفهم الطلبة أنّ العلم، مهما كانت قوته، يحتاج دائماً إلى نقد استمولوجي يمنع انغلاقه وتحوله إلى إيديولوجيا تقنية.

-ثانياً: لأنّ الاستمولوجيا لا تفهم إلاّ داخل هذا الصراع: فدورها الحقيقي لا يظهر إلاّ عندما نضعها في مواجهة من يدعون امتلاك الحقيقة النهائية. ومن هنا فإنّ هذا المحاضرة ليست تكراراً لدرس تقليدي، بل محاولة لفتح أفق جديد يسمح للطلبة بفهم الدور الحيوي للفكر النقدي في بناء المعرفة العلمية.

4-تمظهر الاستمولوجيا في الإعلام والاتصال:

بعد أن فهمنا أنّ الاستمولوجيا تمارس نقداً مستمراً على العلم، سنرى كيف يتجسّد هذا النقد واقعياً. ففي حقول معرفية مثل الإعلام والاتصال، حيث تتقاطع الظواهر الرمزية مع السياقات الاجتماعية والتقنيات الحديثة، تصبح الاستمولوجيا أداة عملية لفهم حدود البحث العلمي وإعادة طرح أسئلته. بهذا سنحاول أن نفهم كيف يمكن للاستمولوجيا أن تحافظ على استقلاليتها النقدية في حقل معرفي معقّد؟

¹ - يرى باول فيرابند أنّ العقلانية العلمية، كما قدّمتها الفلسفات الوضعية ونماذج المنهج العلمي الصارم، ليست سوى تصور معياري مبالغ فيه لا يعكس حقيقة الممارسة العلمية فقد أظهر من خلال تحليله لتاريخ العلم أنّ الاكتشافات الكبرى لم تتحقق عبر الالتزام الصارم بقواعد منهجي ثابتة، بل غالباً ما تمت من خلال خرق هذه القواعد وتجاوزها. لذلك رفض فكرة وجود منهج علمي واحد كوني، ودافع عما سماه "التعددية المنهجية" مؤكداً أنّ تقدم العلم يرتبط بحرية الباحث في استخدام أدوات متنوعة، حتى وإن بدت غير عقلانية أو مخالفة للمعايير السائدة. ومن هنا جاءت أطروحته الشهيرة "كل شيء جائز"، التي لم يقصد بها الفوضى المعرفية، بل نقد السلطة المنهجية التي قد تتحول إلى شكل من الهيمنة يقيد الإبداع العلمي ويحدّ من تطور المعرفة.

² - غاستون باشلار، فلسفة الرفض، مرجع سابق الذكر، ص18.

تتضح وظيفة الاستمولوجيا في علوم الإعلام والاتصال من خلال قدرتها على مساءلة الأسس النظرية والمنهجيات المطبقة داخل الحقل، وكشف الافتراضات الضمنية للنماذج العلمية المهيمنة. ففي بدايات هذا التخصص، هيمنت النزعة الوضعية والقياس الكمي، حيث ارتكزت الدراسات على تحليل التأثير المباشر للرسائل وقياس النتائج بأساليب إحصائية.¹ هذا التوجه رغم ما وفره من مصداقية.

خاتمة المحاضرة:

يمكن القول إنّ العلاقة بين العلم والاستمولوجيا ليست علاقة صراع فقط، وليست علاقة تبعية أيضا، بل هي علاقة تفاعل نقدي مستمر. فالعلم بحاجة إلى الاستمولوجيا كي يمنع أوهامه الخاصة، والاستمولوجيا بحاجة إلى العلم كي تحدد موضوعها الحقيقي وتطور أدوات تحليلها.

وبهذا يصبح التفكير في هذه العلاقة ضرورة معرفية، لا مجرد إضافة فقط، لأنها تمكن الطالب من فهم كيف تتقدم المعرفة العلمية، وكيف تتحول، وكيف تبني حدودها.

¹Harold D,Lasswell, The structure and function of communication in society , edition 1948

المحاضرة السابعة: الاتجاهات الاستمولوجيا الكبرى

تظهر مسيرة العلم أنّ تطور المعرفة لم يكن يوما خطيا أو مستقيما، بل كان سلسلة من التحولات العميقة التي أعادت تشكيل أسئلة العقل ومناهجه وحدود اشتغاله. فكل مرحلة علمية كبرى حملت معها اهتزازا في البنية الاستمولوجية السائدة، وأنتجت تصورا جديدا عن الحقيقة، وعن العلاقة بين العقل والواقع، وبين النظرية والملاحظة. ومن هنا برزت الحاجة إلى مقارنة تستوعب هذه التموجات التي عرفها الفكر العلمي، ليس باعتبارها قطيعات معزولة، بل بوصفها حلقات متتابعة في تاريخ نقد العقل وإعادة بنائه.

إنّ الاستمولوجيا الحديثة منذ باشلار وصولا إلى فوكو لا تفهم إلّا باعتبارها حركة نقدية مستمرة، تعيد مساءلة أسس العلم، وتفكك مسلماته، وتعيد بناء شروطه المفهومية والمنهجية. وتشكّل إسهامات "باشلار" و"كارل بوبر" و"توماس كوهن" و"فيرابند" و"إيمري لاکاتوس" و"لاري لودان" و"ميشال فوكو" محطات مفصلية في هذا المسار، إذ قدّم كل واحد منهم تصورا جديدا للعلم، ومسعى خاصا لتجاوز الأخطاء، والانفصال عن السكونية المعرفية، والانخراط في دينامية التغير العلمي.

1- نظرية المعرفة ل "غاستون باشلار" (Gaston Bachelard) 1884-1962:

تشكّل نظرية المعرفة عند غاستون باشلار خطأ فاصلا للمعرفة العلمية ككل بين الفلسفة التقليدية وفلسفة العلوم المعاصرة. كما أنّ المشروع الباشلاري هو مشروع يسعى لتأسيس فكر علمي جديد يتجاوز الفكر العلمي التقليدي، وهذا ما تعكسه جلّ مؤلفاته العلمية والتي تطرّق فيها إلى العديد من المواضيع التي كان لها صدى كبير على معاصريه ومن جاء من بعده في هذا المجال.

"غاستون باشلار" فيلسوف فرنسي، من أبرز المتخصّصين بفلسفة العلوم، حيث درس بعمق الوسائل التي يحصل بها الإنسان على المعرفة العلمية عن طريق العقل. يمكن تقديم أهم أفكاره كما يلي:

أ- **التقدم العلمي متتالية من القطاعات:** سجّل ظهور الهندسات الأقليدية ثورة في علم الهندسة وتجاوز مبادئ إقليدس الرياضية والتي لم يتطرق إليها الشك واعتبرت مثالا للوضوح حيث سادت أكثر من ألفي عام، بالإضافة إلى الثورات العلمية في حقل الفيزياء وظهور اللانويوتينية، بالإضافة إلى نظرية النسبية لأينشتاين وغيرها من النظريات العلمية في الميكانيكا.¹ هذه الثورات التي شهدتها الرياضيات والفيزياء كانت سابقة لباشلار إلّا أنّها ساهمت بشكل جليّ في تشكيل فلسفته العلمية.

¹ - رافد قاسم هاشم، استمولوجيا المعرفة عند غاستون باشلار، ص 138-184-185 على الموقع <https://fr.scribd.com/document/455549158> تم الاطلاع عليه 31-08-2025.

لقد استفاد باشلار كثيرا من الانجازات العلمية، ففي سنة 1929، صدر كتابه "القيمة الاستقرائية للنظرية النسبية" حاول فيه إبراز القيم الاستمولوجية الجديدة التي أفرزتها الفيزياء المعاصرة.

انعكس ذلك في الفلسفة المعاصرة حيث أصبحت تتميز بطغيان النزعة التجريبية وتقليص نفوذ المثالية المحضة. لقد تماشت التجريبية مع النظريات الحاصلة في العلم التجريبي، وهي نزعة معادية للتيار الميتافيزيقي والتي حاولت استبدال الفلسفة بالمنهج العلمي القائم على أساس الملاحظة والتجربة قصد الكشف عن العلاقات بين الظواهر دون الاهتمام بالبحث في الغايات وطبائع الأشياء. يقول رائد هذه النزعة "فرانسيس بيكون" "ينبغي ألا نعزو أي قيمة حقيقية إلا للمعرفة العلمية القائمة على الاستقراء والتجريب، العلم قوة يجب إبعاد البحث عن الغايات خارج النطاق العلمي". وبهذا نظرت التجريبية الإنجليزية للمعرفة كمعطى مستمد من التجربة الحسية وكان شعارهم "لا شيء في العقل لم يكن خارج الحواس".

أما في فرنسا فقد ساد تيار النقد العقلي أو التيار الوضعي الذي يرجع لمؤسسه "أوغست كونت" 1757-1798م في كتابه "محاضرات في الفلسفة الوضعية" الصادر عام 1842 حاول فيه تحديد معنى للعلم يختلف عن المعنى الشائع في عصره وهو المعرفة المنظمة المتعلقة بموضوع واحد فكلمة علم لا تطلق إلا على المعرفة التي تكتفي باكتشاف العلاقات الظاهرة بين الظواهر وهذه المعرفة لا تكون ممكنة إلا في المرحلة الأخيرة من التطور الذي يمر به العقل البشري.¹

أراد باشلار أن يربط الاستمولوجيا بتطور العلوم فاستلهم وقائع العلم وفروض الرياضيات وبدأ بالعلوم الفيزيائية حتى تأتى له أن يضع المادة موضعاً جديداً. وهذا هو الطريق الذي ضمن لباشلار تأسيس مذهبه في المادية العقلانية، فقد بمر باشلار بالعلم وبتطوراته وبأثر العلم في إنتاج مفاهيم حيوية قائمة على التجديد وتصحيح وعلى نبذ القديم من التصورات التقليدية التي لم تعد تنفع ولا تثري الحياة الفكرية.

يعبر المشروع الباشلاري عن الموقف الفلسفي الجديد الذي يسعى إلى تأسيسه وتحديد أسسه وأهدافه. لذلك يمكن القول بأنه دعوة تجديدية وتجاوزية للموقف الفلسفي التقليدي حتى يكون متوافقاً مع راهن العلوم. ويتأتى ذلك بتأسيس فلسفة علمية مختلفة يمكنها أن تكون نداءً لفلسفة شاملة للفلاسفة.

إنّ باشلار صاحب دعوة صريحة لمسايرة العلم المعاصر ويشترط هذا المسعى إبراز للقيم الاستمولوجية المتجددة للعلم من العلم وليس من الفلسفة، وأن تبحت عن أثر المعارف العلمية في بنية العقل وتطوره القابل للتشكّل باستمرار، ويتأتى ذلك إثر القيام بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية

¹ - بشير ولد حدوشية، استمولوجيا العلم عند أوغست كونت، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 2، العدد 2، 2013، ص 31.

ب- مفهوم القطيعة الاستمولوجية:

يعتبر مفهوم القطيعة الاستمولوجية مفهوم باشلاري بامتياز، فهو الذي أسس له في مجاله العلمي. وتعكس القطيعة الاستمولوجية بالمعنى الباشلاري انتقالا نوعيا وطفرة فكرية سيكولوجية تعبر عن قطيعة فاصلة بين نمطين في التفكير، فكر علمي قديم وفكر علمي جديد، فالعلوم الجديدة ليست تطورا مباشرا للعلوم السابقة.

يؤكد باشلار بذلك أنّ تاريخ العلوم ليس خطيا مستقيما، بل سلسلة من القطائع الإستمولوجية حيث تستبدل البنية الفكرية بأخرى، مثل الانتقال من فيزياء نيوتن إلى فيزياء النسبية والكوانطا، وهو ما يجعل العلم في نظره عملية بناء متواصل وليست تراكما كيميا. ومن ثمّ تحوّلت الاستمولوجيا عنده إلى فلسفة نقدية للعلم، تعيد تقويم اليقينيّات، وتكشف حدود المفاهيم، وتعيد ترتيب العلاقة بين العقل والتجربة خارج ثنائية العقلاني-التجريبي التقليدية. ويعتبر "باشلار" أنّ التقدّم العلمي هو تطور في العقل نفسه قبل أن يكون تطورا في الوقائع.

ولتحديد صور القطيعة وأشكالها في العلم قام بتحديد مراحل تطور لعقل الفكر العلمي، وقد قسّمها إلى ثلاث مراحل وهي:¹

1- المرحلة الأولى: هي مرحلة ما قبل الفكر العلمي، وتمتدّ زمنيا من القدم حتى نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م، وكان يسودها حسب باشلار معرفة زائفة.

2- المرحلة الثانية: مرحلة الفكر العلمي، ويؤرخ لها زمنيا من القرن 18م إلى غاية القرن 20م. وسادت فيها معرفة عقلانية كلاسيكية موضوعها فحص وتشخيص للمعطى الطبيعي لكشف قوانين الظواهر وعلاقاتها الثابتة.

3- أما المرحلة الثالثة: هي مرحلة الفكر العلمي الجديد، والتي بدأت مع ظهور النسبية أي بداية سنة 1905، والتي أحدثت انقلابا ثوريا في مفاهيم العلم الكلاسيكي.

إنّ كل لحظة من هذه اللحظات الثلاث سادها نمط خاص من الوعي ففي اللحظة الأولى ساد الفكر الواقعي بما يعنيه من التصاق بالظاهرة وحرص على نقلها والتعاطي معها من خلال دوافع الحاجة والمنفعة المباشرة.

أما اللحظة الثانية ساد الوعي الواقعي التجريدي، حيث تمت المزاوجة بين المقاربة الواقعية للظواهر والفكر التجريدي. فكان التجريد في هذه اللحظة العلمية مشدودا ومرتكزا على المعطى الواقعي، ولم يكن متحررا منه، بل مرتحنا لقيوده وشروطه واقتترنت هذه المرحلة بنشأة العلم الكلاسيكي الذي يعتبره باشلار امتداد للحس المشترك والعقل المشترك، حيث كان يوضح

¹ - غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1982، ص8.

الآراء العامة ويدقق التجارب ويؤكد المعارف البسيطة. بمعنى العلم الكلاسيكي هو معرفة منقحة ومهذبة صاغها العالم في قوانين علمية بالاستناد إلى العقلانية الكلاسيكية الحتمية. ويرى أنّ موضوع علم القرن 19م (مرحلة الفكر العلمي) ينحصر في فحص وتشخيص الظواهر والوقائع كمعطى طبيعي والكشف عن علاقاتها الثابتة بالاستناد إلى مبدأ الحتمية، ومحاولة تقنين البحث وإقامة حواجز أمامه لا يجوز تخطئها، حاصرة مجال المعرفة البشرية في الظواهر والعلاقات التي بينها، وكذا تحقيق الفرضيات الأولى وفقاً لمراحل المنهج الاستقرائي (ملاحظة، فرضية، تجريب). ويمكن القول مع باشلار أنّ علم القرن 19م يعتبر تطوراً وامتداداً للمعرفة العامة مادام أنّه يوضّحها ويدقّقها.

أما اللحظة الثالثة؛ فهي لحظة الوعي التجريدي التي يبدع فيها العقل العلمي الجديد مفاهيمه ونظرياته على نحو يقطع مع التجربة المباشرة، وينشئ بناءاته النظرية في استقلال عن ضغط الحاجة والنزعة التفعّية وهو يمثّل معرفة مغايرة للمعرفة السابقة. وتعتبر طفرة نوعية تتجاوز مبادئ العلم الكلاسيكي إلى مبادئ كلها جديدة، ولذلك يبرز مفهوم القطيعة الاستمولوجية كشكل آخر من أشكال التجاوز وكفعل يعبر عن حالة الانتقال الكيفي من المرحلة السابقة إلى المرحلة الجديدة. إنّ الفكر العلمي الجديد، كمصطلح يوظّفه "باشلار" يدلّ على مظاهر التفكير الجديدة والنظريات التي ترتبت عن الثورة العلمية المعاصرة¹.

وكانت القطيعة التي أعادت النظر في المفاهيم الأساسية وأعادت بناء العلوم على صرح جديد. وتعني القطيعة ثلاث حالات:

أ- قيام فكر علمي أكثر شمولاً

ب- مراجعة للمفاهيم الأساسية للعلم السابق عليها

ت- قيام فكر علمي أكثر تفتّحاً

يرتبط مفهوم القطيعة الاستمولوجية عند "غاستون باشلار" بتصوره لتاريخ العلوم، بحيث أنّ التطورات السابقة لا تفسّر بالضرورة الحالة الراهنة للعلم، وهو بذلك يعارض بهذا الطرح نظرية الاستمرارية لتاريخ العلم. وارتبط كذلك مفهوم القطيعة بالطفرة التي أحدثتها التطورات العلمية المعاصرة أي الانقلابات العلمية التي شهدتها الثلث الأول من القرن العشرين دفعت "باشلار" إلى الإحساس بضرورة تشكيل منهجية جديدة تتجاوز كتاب ديكارت الشهير "في المنهج".

القطيعة إذن في ابستمولوجيا باشلار هي مفهوم يعبر عن فترات الانتقال الكيفي في تطور العلوم، ومنه تاريخ العلوم لا بدّ أن ينظر إليه كتاريخ قفزات كيفية تتمخض عنها نظريات جديدة ليست بأي صورة من الصّور مجرد استمرار للفكر

¹ - غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، مرجع سابق الذكر، ص 8-9-10.

السابق، والمعنى أنّ الجديد في العلم لا يكون من التاريخ السابق له في مجاله، لأنّ تاريخ العلم هو تاريخ أخطاء العلوم ففي رأيه أنّ هناك - بالنسبة لباشلار - مفهوم علمي خطأ يتوجب تصويبه.

والقطيعة الابستمولوجية بالمفهوم الباشلاري تتم على مستويين قطيعة بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية، وأخرى تتم داخل الفكر العلمي ذاته أي بين الأنساق والنظريات العلمية أو بين الفكر العلمي الجديد والفكر العلمي.

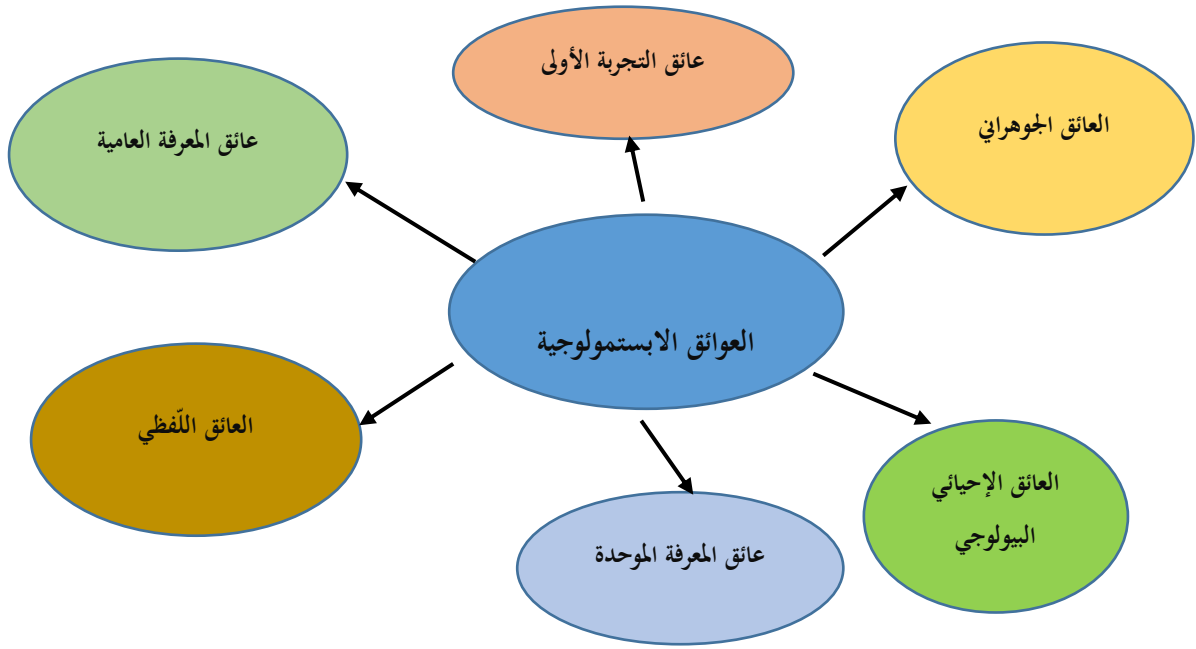
تتخذ القطيعة في المستوى الأول شكل " الانفصال التام بين العلم كعلم وبين كل مسبقات الفكر الطبيعية. ويتقدّم هذا الانفصال على أنّه الحد الفاصل بين نوعين من المعرفة العامة المشتركة والمعرفة العلمية. يعتبر انفصال باشلار بمثابة مصادرة أساسية بالنسبة للتفكير الابستمولوجي ويعتبر هذا الموقف كرد فعل نقدي ضدّ النظرية الاستمرارية في العلم والتي ترى أنّ هناك استمرار من التفكير العامي إلى التفكير العلمي. وبذلك فإنّ القطيعة الابستمولوجية بين هذين التّمتطين من التفكير قطيعة ابستمولوجية شاملة تمتد من المنهج إلى التصورات والمفاهيم.

أما المستوى الثاني للقطيعة فيكون بين فرضيتين أو نسقين علميين وهي قطيعة لا تصل إلى حدّ الانفصال التام والكلّي، لأنّ الفرضية العلمية الجديدة تدحض وتفند الفرضية العلمية السابقة عنها، وتثور قيم جديدة على القيم السابقة وتحوّل بموجبه المعرفة القديمة إلى حالة تتكامل مع المعرفة الجديدة رغم نفي الأخيرة " فالمعرفة الجديدة لم تأت إضافة معرفية تراكمية إلى المعرفة القديمة بل بقطيعة معرفية حوّلت القديم الذي كان عاماً إلى حالة خاصة تتكامل مع الحالة الجديدة. ويصبح العلم الجديد يتضمن العلم السابق عنه لأنّه أوسع وأشمل ولذلك يمكن وصفها بأنّها قطيعة احتواء وتضمن.

ج - عوائق تطور الفكر العلمي عند غاستون باشلار: العائق الابستمولوجي عند باشلار هو كل " ما يبقي الفكر سجيناً لتصورات المعرفة العامة ويمنعه بالتالي من بلوغ معرفة موضوعية للظواهر التي ندرسها. " بمعنى أنّ العوائق الابستمولوجية هي صيغة للتعبير عن مشكلة المعرفة العلمية في حالات معينة.¹

¹ -رافد قاسم هاشم، ابستمولوجيا المعرفة عند غاستون باشلار، ص205،

<https://iasj.rdd.edu.iq/journals/uploads/2024/12/19/5ad32609201d4368c5322062cff81113.pdf>



الشكل 1: مخطط يوضح العوائق الاستيمولوجية في نظرية المعرفة لغاستون باشلار

1- عائق التجربة الأولى (l'obstacle de l'expérience première) :

يتمثل في التجربة الحسية بمعنى ما تقدّمه الحواس يفرض على العقل التصديق الكلّي ويلغي دوره في التفكير والنقد أي أنّ التجربة الأولى لا تقدّم الصورة الصحيحة للظواهر ولا حتى وصف الظواهر المنتظمة بدقّة.¹ وعليه فإنّ التجربة الحسية تشكّل عائق استيمولوجي من الصعب إخضاعها لمنهج التحليل النفسي. ويتضح هذا في المرحلة قبل العلمية، والتي طغى عليها الطرح الذاتي أي الأفكار الذاتية التي تفتقر إلى النزعة العلمية.

2- عائق المعرفة العامة (l'obstacle du savoir général) :

تعميم وتكييف نتائج العلم يشكّل عائقاً للمعرفة العلمية، فهذه التعميمات التي كانت سائدة في المرحلة قبل العلمية لم يعد لها جدوى اليوم، لأنّ العلم في تطور مستمر، وما كان سائداً في السابق لا يمكن تعميمه في الوقت الراهن. ينبغي لكل تجربة موضوعية حقّة أن تجري تصحيحاً لخطأ ذاتي، وهنا يوضح أنّ الأفكار السابقة هي الأخرى تشكّل عائقاً استيمولوجياً أمام تطوّر الفكر العلمي.

¹ -غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، مرجع سابق الذكر، ص 26.

3-العائق اللفظي (l'obstacle verbal) :

تشكّل العادات اللفظية عائق ابستمولوجي تعيق تطور الفكر العلمي، ففي المرحلة قبل العلمية لم يكن هناك تميّزا بين المفهوم واللفظ، ولا تميّز بين الكلمة التي تصلح للتفكير أي نجد نفس اللفظ يصف الظاهرة ونفس اللفظ يشرحها، ففي المرحلة قبل علمية كانت الكلمة الواحدة تشكّل قاعدة للتفسير الشّامل.¹ يشير "غاستون باشلار" إلى تأثير اللغة على تشكيل المعرفة، حيث قد تصبح الكلمات نفسها مصدرا لسوء الفهم العلمي. فبعض المصطلحات تحمل شحنات دلالية وتشبيهات موروثة تجعل الباحث يقع في أسر اللفظ بدل التعامل مع الظاهرة كما هي وقد يؤدي الاستعمال غير الدقيق للكلمات وعدم التمييز بين اللفظ والمصطلح إلى تجميد التفكير، فينحرف العالم عن التفسير العلمي نحو البلاغي أو المجازي. لذلك يرى "باشلار" أنّ تقدّم المعرفة يتطلّب تحديد اللغة العلمية وتحريرها من الحمولة البلاغية.

4-عائق المرحلة الموحدة (l'obstacle de la connaissance unifiée) :

يشير إلى أنّ المعرفة ما قبل العلمية التي كان يسودها الفكر الموحد بمعنى أنّ جميع الموجودات أرجعت إلى مبدأ واحد.² لكن هذا الطموح يؤدي غالبا إلى تذويب الفروقات بين الظواهر وتقليص تعقيدها، مما يقود تفسيرات فقيرة وغير دقيقة. يرى "باشلار" المعرفة العلمية أنّها يجب أن تقبل بتعدّد النماذج والمقاربات، وأن تدرك أنّ كل مجال علمي يفرض أدواته ومفاهيمه الخاصة. لذلك يشكل السعي إلى وحدة وهمية للمعرفة عائقا أمام تطور التخصصات العلمية وتراكمها المنهجي.

5-العائق الإحيائي البيولوجي (l'obstacle biologique) :

إنّ العائق الإحيائي يحصره في الظواهر الإحيائية التي كدّبتها المرحلة قبل العلمية، فالمادة الحسيّة في المعرفة السّاذجة أبسط وأوضح من المادة الجامدة وهذه النظرة ناقضها الفكر العلمي المعاصر، ففي البيولوجيا يواجه الباحث عوائق ابستمولوجية أكثر من التي يواجهها في المادة الجامدة.

إنّ العائق الإحيائي هو حدس عن الحياة امتد حضوره إلى العلم الفيزيائي وهو امتداد اعتباطي غير مشروع. حيث تمتد معارف بيولوجية أو فيزيولوجية إلى غير ميدانها، فالمعادن تمرض كالإنسان وتخضع لدورة الحياة والموت مثله. بمعنى أنّ الأمر لا يتعلّق بدراسة الحياة في الحقل المعرفي البيولوجي، إنّما عندما ينحرف هذا العلم ليقدم جوابا على أسئلة. وينبئنا

¹ -المرجع نفسه، ص49.

² -المرجع نفسه، ص65.

باشلار أنّ فكرة الحياة إذا علّقت بسداجة فسينشأ عنها تقييمات كونت مثلاً كان يعتقد أنّه لا يمكن فهم مبادئ تصنيف العلوم إذا لم يكن لنا إلمام دقيق بعلم الحياة، ويدعو عالم الكيمياء ليستخلص الدروس من علوم الطبيعة.¹

6-العائق الجوهراني (l'obstacle substantialiste) :

يشير غاستون باشلار إلى أنّ الموضوع في مرحلة قبل العلمية كان يشكّل جوهر ثابت، كما يبيّن لنا أنّ الجواهر كنموذج تفسيري تعتبر عائق متعدّد الأوجه يقف كحائل أمام تطور الفكر العلمي، وهذا ما يوضّح قوله أنّ التلاعب بالألفاظ في تسمية الظواهر، يرضي الفكر الساذج بسهولة ولفظ عمق الجواهر من منظور ابستمولوجي معاصر لا يعبر عن العمق فعلاً فالمعرفة العامة هي معرفة سطحية. إنّ الفكر الجوهراني فلسفة ميتافيزيقية دقيقة وهي تفسير رتيب لخصائص الجوهر يعتقد أنّ للظاهرة خفي، باطن وظاهر، وتجليّات هذه العقبة في الفكر ما قبل العلمي، انشغال علماء وفلاسفة تلك المرحلة بالباطن أو الداخل اعتقاداً منهم أنّ المعرفة الصحيحة تكمن في استخراج الباطن ودراسته، ويتولد لدى هؤلاء ما يسميه باشلار " وهم الداخل " أو أسطورة "الذات الأعمق".² وبشرح مبسّط للفكرة أنّه عندما يتمسك الباحث بفكرة الجوهر، فإنّه يختزل الظواهر في ماهية جامدة، بينما العلم يتقدّم عبر تحليل العلاقات والعمليات والتغيرات، وليس عبر تحليل العلاقات والعمليات والتغيرات، وليس عبر البحث عن ماهيات ثابتة. لذلك يرفض باشلار التفكير الجوهراني لأنّه يقود إلى التبسيط ويغلق باب التراكم.

كما أشار باشلار إلى فلسفة اللاّ أو فلسفة النّفي، وهي الفلسفة التي تقول لا لعلم الأمس ولا للطرق المعتادة في التفكير ولا تأخذ الأفكار البسيطة كما هي بل إنّها تجتهد في نقد هذه البسائط لتكتشف عما تنطوي عليه من غموض، لكن ذلك لا يعني أنّها فلسفة سلبية تقود إلى تبني العدمية إزاء الطبيعة فهي بالعكس من ذلك فهي فلسفة بناءة سواء الأمر تعلّق بنا نحن أو بما هو خارج عنّا. فالتفكير في الموضوعات الواقعية معناه الاستفادة مما يكتنفها من لبس وغموض قصد تعديل الفكر وإغماؤه، وإحياء جميع المتغيّرات المهمة التي كان العلم والفكر الساذج قد أهملها في الدّراسة الأولى وبذلك فلسفة النّفي ترفض كل تصوّر علمي يعتبر نفسه كاملاً نهائياً.

د-منهج التحليل النفسي للمعرفة:

يقوم "غاستون باشلار" بتأسيس ما يسميه "التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية"، وهو منهج نقدي يهدف إلى الكشف عن البنى اللاواعية والتّمثلات السابقة التي تعطلّ تشكّل الفكر العلمي. ينطلق باشلار من فرضية مركزية مفادها

¹ - فوزي تيايبيّة، مقارنة نظرية لتجديد العوائق الابستمولوجية للحصول على المعرفة العلمية في ظل ابستمولوجيا غاستون باشلار، مجلة علوم الأداء الرياضي، المجلد 3، العدد 1، جوان 2021، ص 167.

² - غاستون باشلار، مرجع سابق الذكر، ص 80.

أنّ المعرفة العلمية لا تتقدّم بشكل خطّي وإتّما تمرّ عبر لحظات صراع، وتجاوز، وقطائع مع أنماط التفكير السابقة. ومن هنا فإنّ مهمة الاستمولوجيا ليست وصف العلم فقط، بل تحليل العقبات التي تتخفّى في لاوعي العالم وفي البنية الثقافية والمخيال الاجتماعي، هذا التحليل هو ما يسميه باشلار "التحليل النفسي للمعرفة".

يرى "باشلار" أنّ العقل العلمي ليس عقلا بريئا، بل هو مفعم برواسب وأحكام مسبقة وصورة خيالية "pré-notions" تتسلّل إلى عملية التفكير دون وعي، وتوجه الباحث في الاتجاه الخاطئ. لذلك يهدف التحليل النفسي للمعرفة إلى تعقّب هذه الميول اللاواعية وإظهار كيف تعيق إنتاج المفهوم العلمي الدقيق. فكما يحلّل التحليل النفسي للمعرفة يحلّل العقد المعرفية داخل الذهن العلمي، عقد ناتجة عن اللغة، والأسطورة، والتجربة اليومية الأولى، وصور الخيال، والتفكير الجوهري... وغيرها.

وفق هذا المنهج، يصبح التقدّم العلمي مرهونا بعملية تطهير Epuration مستمرة للعقل عبر تجاوز هذه العوائق، بحيث يعاد بناء المفاهيم بطريقة نقدية. وبذلك، فإنّ التحليل النفسي للمعرفة ليس مجرد نقد للعقبات، بل هو أداة لإعادة تشكيل الذهن العلمي وإعداد لقبول القطيعة مع البدايات الحسية، وتبني التفكير الرياضي والتجريبي الدقيق. ويشدّد باشلار على أنّ هذا التحليل لا يقوم على الرجوع إلى الماضي فقط، بل على "تحديث" العقل باستمرار، لأنّ كل مرحلة من مراحل العلم تنتج عوائق جديدة تحتاج بدورها إلى تفكيك.¹

وبناء على ذلك، يصبح التحليل النفسي للمعرفة عند باشلار مشروعا مزدوجا؛ فهو من جهة يعرّي اللاوعي المعرفي الذي يسكن العلم، ومن جهة أخرى يؤسّس لفلسفة القطيعة التي تشكّل المفهوم العلمي لعملية نقدية مستمرة. والهدف النهائي هو أن يرتقي العقل من مستوى الرأي إلى مستوى التفكير العلمي وهو ما يختصره باشلار في عبارته المشهورة: "الرأي يفكر تفكيرا سيئا، ولا يمكن إصلاحه، بل يجب هدمه".

2- كارل بوبر ومنهجية الكشف العلمي وأنطولوجية العوالم الثلاث:

يعدّ كارل بوبر من أهم الفلاسفة في القرن 20م، انطلقا من تميّز النظام التّسقي الذي طرحه في فلسفة وتاريخ العلم، حيث جاء هذا التّسق بعناصر نابعة من طبيعة المعرفة الإنسانية التّسبية، وطبيعة الذات العارفة الخطّاء فكان ذلك على أسس منطقية ابستمولوجية. وعليه فقد أخذ بوبر ذلك بعين الاعتبار منطلقا من العقلانية التّقدية، كمنهج ملائم للمعرفة والذات العارفة، على أساس النزعة الخطيئة ومنهج المحاولة كما سماه هو، ثمّ تأطيره لمفهوم المعرفة الموضوعية ضمن نظرية العوالم الثلاث إلى مفهوم الصدق كمبدأ تنظيمي والذي بدوره يلائم ويتناسق من الشروط الابتدائية للتّسق، ثمّ إلى

¹ - عناني نور الدين، التحليل النفسي في مشروع باشلار، مجلة أبعاد، العدد 7، ديسمبر 2018، ص ص 268-269-270.

توظيف التّكذيب والنقد ليتناسب أيضا مع المعرفة الموضوعية مع إمكانية نغوها وتقدّمها باتجاه الصدق. فكيف إذا كان بناء هذا التّسق الاستمولوجي في نظرية المعرفة كارل بوبر؟

شكّلت الفوضى الفكرية للفيزياء الجديدة في الربع الأول من القرن العشرين وطروحات الفلسفة الوضعية البيئة الثقافية التي نشأت فيها فلسفة كارل بوبر، ويمكن القول أنّ فلسفة العلوم المعاصرة متصلة اتصالا مباشرا بالمتغيّرات المفاهيمية الجذرية التي أدخلتها نظرية "أينشتاين" في النسبية الخاصة والعامة وميكانيكا الجسيمات الكوانتية، وكان لهذه الثورات المتعلقة بالتصور الفيزيائي للكون أثر واضح للعلماء أنفسهم فتحوّلوا من دون التخلي عن الحقل العلمي إلى فلاسفة ومنظري معرفة، لعلهم يمسكون بالأمواج الفكرية العاتية والتي بدأت تحيط بعلمهم منذ أواخر القرن التاسع عشر ومن هنا مثّلت فلسفة كارل بوبر نقطة تحول حاسمة في فلسفة العلم بنقله من منطق التبرير إلى منطق الكشف العلمي والمعالجة المنهجية له على أساس قابليته المستمرة للاختبار التجريبي والتكذيبي لتعيين الخطأ لكي يحل محله يوما ما كشف أفضل أكفأ وأقرب إلى الصدق.

أ-العقلانية النقدية كأساس استمولوجي:

يجسدها كلام بوبر بأنّها ذلك الموقف الاستعدادي للإنصات للحجج النقدية والتعلّم من التجربة، وهو بالأساس موقف الإقرار بأنّي قد أكون على خطأ، وقد تكون أنت على صواب، وبجهد ما يمكن أن نصبح أقرب إلى الحقيقة.

تختلف العقلانية النقدية عن العقلانية التقليدية والتي يمثّلها أفلاطون وديكارت وغيرهم في عدّة أمور جوهرية:¹

-العقلانية التقليدية تجعل الأولوية للعقل البشري قبل التجربة في اكتساب المعرفة.

-تقول أنّ العقل يبرر اعتقاداتنا، تقريراتنا ونظرياتنا.

-تؤكد العقلانية التقليدية على أنّه من الممكن اكتساب معرفة يقينية ثابتة، ذات أسس عقلية، بينما العقلانية النقدية تعترض على ذلك، لا العقل ولا التجربة ذو أفضلية على الآخر في اكتساب المعرفة، ولا الاثنين معاً كأساس ثابت لها، فهي في موقف الاستعداد لتصحيح الأخطاء. فيكون هنا العقل ملكة لدى جميع الأفراد، ولكن التفكير النقدي هو مسألة اجتماعية تنمو بها الملكة والمعارف بالتفاعل مع الآخرين، أي أنّ هاته الفلسفة البوبرية هي بناء نسقي يرسخ أفكاره المنهجية الاستمولوجية، ويؤكد أولوية النقاش والطابع الجدلي للأفكار ولا عصمة للعقل البشري.

تقوم إذا العقلانية النقدية عند "كارل بوبر" على مبدأ جوهرى مفاده أنّ العقل لا يبني على اليقين بل على النقد، فالعقلانية ليست امتلاك الحقيقة، بل هي الاستعداد الدائم لمراجعة معتقداتنا واختبارها وتعريضها للتفنيد. يرى "كارل بوبر" أنّ كل معرفة إنسانية تظل معرفة افتراضية (Conjectural Knowledge) أي أنّها تخمينات عقلية قابلة للمراجعة، وأنّ

¹ -كامل محمّد محمد عويضة، كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1995، ص8.

التقدم العلمي لا يتحقق بالتراكم بل بآلية التكذيب التي تسمح باستبعاد الفرضيات الخاطئة والاقتراب تدريجياً من الحقيقة دون بلوغها نهائياً. ومن هذا المنظور تصبح العقلانية موقفاً دون أن تكون منهجاً، موقف يقوم على نقد الذات، والانفتاح على الخطأ، ورفض كل نزعة دوغمائية تسعى إلى غلق باب المراجعة.¹

يربط "كارل بوبر" العقلانية بالنقاش الحر داخل المجتمع العلمي، فالمعرفة لا تتقدم إلا عبر تعددية الآراء وإخضاعها للنقد المتبادل، وهو ما يجعل العقلانية عنده أخلاقية وسياسية بقدر ما هي معرفية، لأنها تقوم على التسامح، والاعتراف بإمكان الخطأ، وحرية التفكير. وهكذا فإنّ العقلانية النقدية تفهم باعتبارها دعوة إلى تحرير العقل من ادعاء الامتلاك النهائي للحقيقة، وتأكيداً على أنّ البحث العلمي حركة لا تنتهي من المحاولات والتجاوزات.

ب- منهجية الكشف والقابلية للتكذيب:

تمّ التحول مع العقلانية النقدية عند كارل بوبر من التبرير إلى منطق الكشف العلمي، إذ بعد أن كان ينظر إلى النظرية العلمية -وتحديدًا مع الفلاسفة الوضعيين المناطقة- على أنّها يقينية لأنها ناتجة عن الخبرة الحسية أصبحت النظرية العلمية مع بوبر خاضعة لمبدأ جديد أطلق عليه اسم "القابلية للتكذيب"، فإذا كان الوضعي يسلم بصدق المعرفة العلمية ويعمل على تبريرها، فإنّ المهمة الحقيقية لفيلسوف العلم حسب بوبر هو تبيان خطأ النظرية العلمية من خلال إخضاعها لمحك النقد، وهو موقف حاول من خلاله "كارل بوبر" تقديم حل لما يعرف بمشكلة الاستقراء التي اعتبرها من رواسب الفلسفات السابقة، وهنا يقول كارل بوبر مشخصاً موقف الوضعية المنطقية من الاستقراء ومعقبا عليه عادة ما يسمى الاستدلال "استقراء" إذ ينتقل من قضايا جزئية كتلك التي تليّن نتائج الملاحظات والتجارب، اتجاه القضايا الكلية كالفروض والنظريات والآن فإننا نقوم بتبرير استدلال القضايا الكلية من القضايا الجزئية من وجهة النظر المنطقية، ذلك لأنّ أي نتيجة تحصل عليها بمقتضى هذه الطريقة قد تصبح كاذبة كذلك، مثل مهما كان عدد حالات البجع الأبيض التي سبق أن لاحظناها، فإنّ ذلك لا يبرر النتيجة القائلة "كل البجع أبيض".

تقوم نظرية العلم عند كارل بوبر على الموقف القائل بأنّ الحكم المطلق على النظريات العلمية على أنّها صادقة لمجرد تحقق بعض القضايا الجزئية لا يمكن قبوله منطقياً ولم يعد معمولاً به لأنّ أكبر خطأ الاكتفاء بدراسة عدد محدود من القضايا الجزئية ثم الانتقال إلى الحكم العام الذي يتمثل في النظرية العلمية، ومنه انتقل كارل بوبر من مبدأ القابلية للتحقيق إلى القابلية للتكذيب كمعيار جديد للتمييز بين النظريات العلمية.

¹ - كامل محمد محمد عويضة، مرجع سابق، ص 9-10.

ما يميّز النظرية العلمية من غيرها من النظريات الزائفة هو إمكان تكذيبها، بحيث لم يعد العلم التجريبي مع كارل بوبر عبارة عن مجموعة من النظريات العلمية اليقينية والتي تبقى على الدوام كذلك، وإنما أصبحت عبارة عن مجموعة من النظريات العلمية بحيث يمكن تنفيذها في أيّة لحظة إذا ظهرت قضية جزئية تناقضها.

هنا نوضح أنّ الحديث عن منهج التكذيب في إطار نمو المعرفة العلمية، هو تعبير عن موقف "كارل بوبر" الرفض للاستدلال الاستقرائي، إذ يرى أنّ العلم التجريبي لا ينمو بواسطة إجراء استقرائي، وإنما من خلال محاولة تكذيب النظريات باستخدام منهج فرضي استنباطي القائم على التكذيب، أي من خلال قطيعة معرفية. ولقد مثّل كارل بوبر عملية تطوّر المعرفة العلمية من خلال الشكل الآتي:¹



(الشكل 2): مخطط يوضح تطور المعرفة العلمية عند كارل بوبر

في هذا الشكل ترمز (P 1) إلى المشكلة و (Ts) إلى الحل المؤقت لهذه المشكلة، أو إلى حلول مؤقتة (Ts1, Ts2, Ts3...). ويشير الرمز (EE) إلى المنهج النقدي القائم على استبعاد الخطأ، بمعنى يرمي إلى المناقشة النقدية لهذه النظريات، أما (P2) فيرمز إلى المشكلة الجديدة التي تظهر بعد استبعاد الحل المؤقت الذي وضع للمشكلة الأولى.²

يؤكد كارل بوبر على ضرورة البحث في الواقع عما ينفي صدق النظرية لا ما يثبتته، مع التأكيد على أنّ النظرية العلمية يجب أن تبقى دائما خاضعة لمحك النقد، فإذا صمدت أمامه ولم يظهر ما يناقضها تعتبر نظرية علمية مؤقتة إلى حين سقوطها أمام اختبارات التنفيذ.

نحكم بالتكذيب على النظرية إذا لم تكن نتيجة الاختبارات في مصلحتها، أي إذا تناقضت النتائج المستنبطة منها مع الواقع لأنّ تكذيب النتائج هو تكذيب للنظرية ذاتها، فتستبعد من نسق العلم.

لقد كان الحل الذي قدّمه كارل بوبر والمتمثل في مبدأ القابلية للتكذيب تجاوزاً لمفهوم العلم الطبيعي أو منهجه أو كيفية التمييز بين القضايا الصادقة والقضايا الكاذبة، إذ لم تعد هناك إمكانية للتنبؤ بحدوث الظواهر في المستقبل بناءً على مشاهدة بعض الظواهر الجزئية في الحاضر، وهذا ما يجعلنا نتخلى مباشرة عن النظرية العلمية السائدة.

¹ -رشيدة عبة، كارل بوبر والعلوم الإنسانية (بين الوحدة والتعددية المنهجية)، استكتاب جماعي (ابستمولوجيا العلوم الإنسانية: في الفكر العربي والفكر الغربي المعاصر)، مرجع سابق الذكر، 134.

² - Karl Popper, *La Quête inachevée*, trad., de Renée Bouveresse (Paris : Calmann-Lévy, 1981) p191,

ج-التعزيز ودرجات التعزيز:

يعيد "كارل بوبر" صياغة مفهوم العلية داخل إطار فلسفته النقدية، بعيدا عن النزعة التجريبية التقليدية التي اعتبرت العلاقة السببية علاقة افتراض ثابت بين ظواهر متتابعة. فحسب بوبر السببية ليست رابطة ضرورية تستخلص من كثرة التكرار بل افتراض نظري يضعه العقل لتفسير انتظام الظواهر، ويظل هذا الافتراض قابلا للاختبار والنقد دائما. ومن ثم فإن قوة المبدأ السببي لا تستمد من تراكم الملاحظات، بل من قدرته على إنتاج تنبؤات قابلة للتكذيب. في هذا السياق يرفض بوبر الاستقراء كمصوغ أكيد للقوانين، ويرى أن كل القوانين العلمية افتراضية وترجيحية لا نهائية.

على هذا الأساس يقدم بوبر مفهوم درجة التعزيز، وهو ليس دليلا على صدق النظرية بل مؤشر على مدى صمودها أمام المحاولات المتكررة لدحضها. فالنظرية المتمرسية التي نجت من اختبارات قاسية تحوز على أعلى درجة من التعزيز مقارنة بتلك التي لم تختبر بما يكفي. التعزيز إذن لا يعني التحقق بل يعني أن النظرية نجحت مؤقتا في تجاوز النقد الصارم، وهو نجاح يبقى ظرفيا دائما. ويرتبط بذلك التمييز بين الفرضيات القوية؛ لأنها تتضمن تنبؤات خطيرة يمكن تكذيبها بسهولة والفرضيات الضعيفة التي تهرب من الاختبار فتظل علميا بلا قيمة. وهكذا تصبح درجات التعزيز معيارا عقلانيا لترتيب النظريات من حيث متانتها المنهجية، دون ادعاء الوصول إلى يقين نهائي.¹

د-المنهج الفرضي الاستنباطي هو منهج العلم عند بوبر:

إنّ المنهج الفرضي الاستنباطي يبدأ بفرض كلي غير قابل للتحقيق المباشر وغير مشتق من الخبرة الحسية، ثم يلجأ الباحث إلى منهج الاستنباط لكي يستنبط منطقيا ورياضيا النتائج الجزئية التي تلزم عنه وهنا ينتقل الباحث إلى التجريب لإجراء مقابلة بين هذه النتائج وبين وقائع التجريب المشاهدة، إذا اتفقت معها يتم التسليم المؤقت بالفرض.²

يعدّ المنهج الاستنباطي الفرضي الركيزة المنهجية الأساسية في مشروع بوبر الاستمولوجي، إذ مثّل ردا مباشرا على قصور المنهج الاستقرائي الذي تبنته الوضعية التقليدية. "فبوبر" يرفض بداية الادعاء القائل بأن المعرفة العلمية تبنى عبر التراكم الملاحظاتي، ويرى أن العلم لا يبدأ من مشاهدات نقية بل من مشكلات تطرحها المعرفة السابقة. ومن هنا يضع العالم فرضية مبدئية تصاغ صياغة جريئة، ثم يشرع في استخراج نتائجها منطقيا عبر الاستنباط، ليتم بعدها اختبار تلك النتائج في التجربة. فإذا صادفتها التجربة بالرفض، اعتبرت الفرضية مرفوضة، وإذا صمدت مؤقتا أمام المحك التجريبي عدت مدعومة لكن دون أن تبلغ مقام اليقين.

¹ - محمد بن سباع، انتقادات فلاسفة العلم لمبدأ القابلية للتكذيب عند كارل بوبر، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، العدد 1، ص 771.

² - رشيدة عبة، مرجع سابق الذكر، ص 135.

بهذا المعنى يصبح العلم عند "بوبر" سيرورة مستمرة من صياغة الفرضيات واستنباط لوازمها واختبارها؛ وليس عملية تجميع للمعطيات كما رأى أنصار الاستقراء؛ فالاختبار لا هدف له سوى محاولة تكذيب الفرضية، لأنّ إظهار الصدق النهائي مستحيل منطقيا، بينما التكذيب ممكن دائما. ولذلك يؤكد بوبر أنّ المعرفة العلمية تتقدم عبر التخمينات والدحض، وليس عبر التراكم.¹

يمكن هذا التصور من فهم العلم باعتباره نشاطا عقلانيا نقديا، ينهض على التخمين العقلاني والاستنباط المنطقي والتجربة المخصّصة. كما أنّه يحوّل الفرضية من انعكاس للواقع إلى أداة منهجية تختبر لا لإثباتها بل لإسقاطها، بما يجعل العقل العلمي متحرّرا من وهم اليقين. ولهذا أصبح المنهج الفرضي الاستنباطي قاعدة معيارية للبحث العلمي الحديث، وقد اعتبره بوبر المنهج الوحيد الذي يتيح التمييز بين العلم واللا-علم.

و-أنطولوجيا العوالم الثلاث:

يقدم كارل بوبر في إطار العقلانية النقدية رؤية أنطولوجية مميّزة تقوم على تقسيم الوجود إلى ثلاث عوالم، وهي ليست كيانات منفصلة تماما، بل مجالات متداخلة تعيننا على فهم عمل العقل والعلم معا؛ وتتمثل فيما يلي:²

-العالم الأول: هو عالم الأشياء والوقائع المادية، أي كل ما يخص الطبيعة والظواهر الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية. يمثّل هذا العالم مجال العلم التجريبي ومصدر اختبار الفرضيات وتكذيبها.

-العالم الثاني: فهو عالم الحالات الذهنية: الأفكار والانفعالات والاعتقادات والعمليات العقلية الفردية؛ إنّهُ المجال الذي تولد فيه الفرضيات العلمية وتعالج فيه المفاهيم قبل أن تتحول إلى صيغ موضوعية يمكن عرضها للنقد.

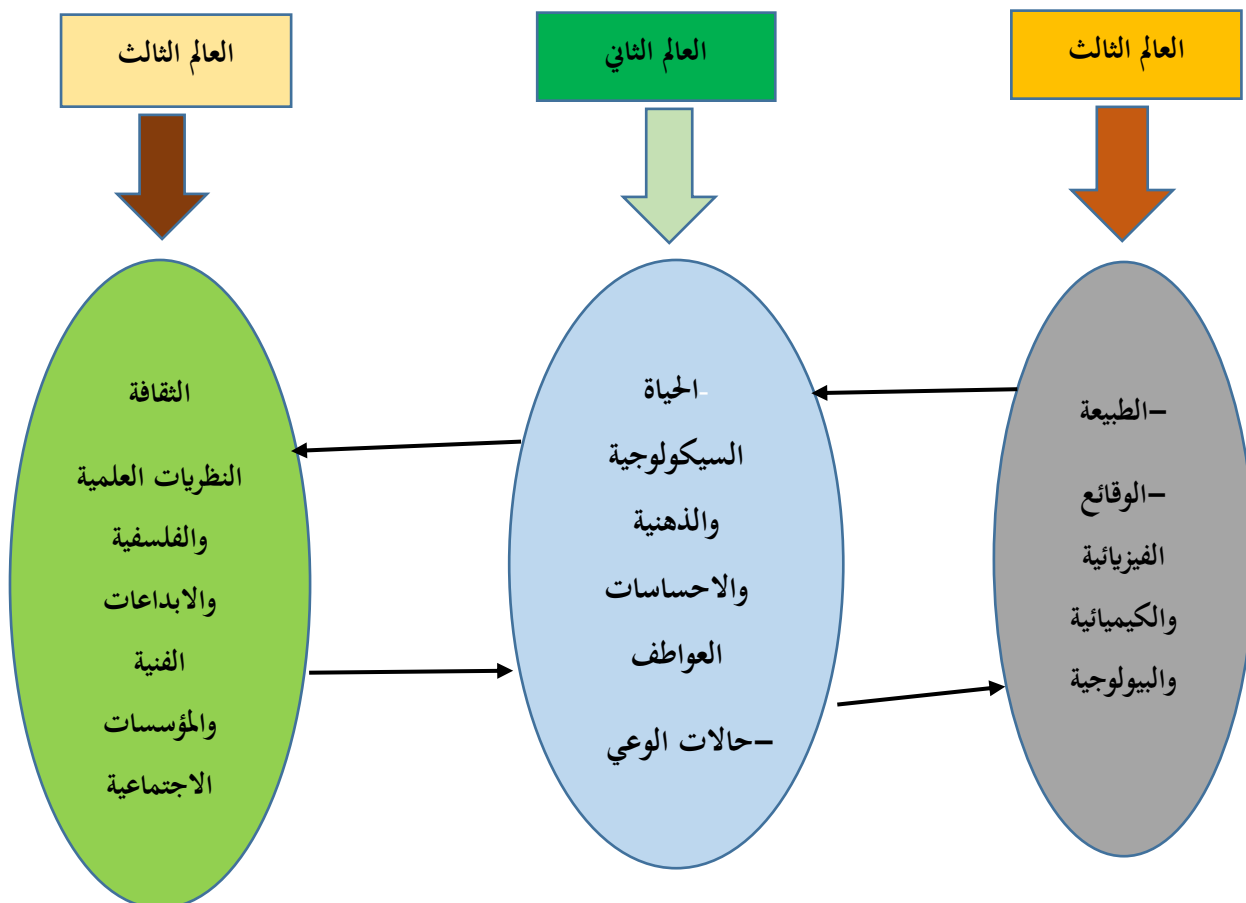
-العالم الثالث: وهو أهم إضافة "لبوبر" ويمثّل عالم الموضوعات الروحية المجردة بعد أن تنفصل عن ذوات أصحابها: النظريات العلمية، النماذج التفسيرية، المشكلات العلمية، المناهج، المعادلات الرياضية، وحتى الأخطاء العلمية نفسها. هذا العالم مستقل نسبيا عن الفرد، إذ تصبح المعرفة فيه قابلة للنقد من طرف أي عقل آخر، وبذلك يشكل البنية الموضوعية للتقدم العلمي.

تكمن أهمية هذه الأنطولوجيا في أنّها تخرج المعرفة من إطارها الذاتي (العالم الثاني)، وتضعها في مجال موضوعي قابل للتقويم والتكذيب (العالم الثالث)، مما يسمح بانتقال العلم من مجرد "تجارب فردية" إلى "بناء معرفي موضوعي" يتراكم عبر النقد. وهكذا يغدو التقدم العلمي عند بوبر مرتبطا بتفاعل العوالم الثلاث، فالعقل (العالم الثاني) ينتج فرضيات تختبر في

¹ -مينة بن سهيلة، كارل بوبر وانفتاح العقلانية النقدية، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد 8، العدد 1، جوان 2021، ص 178-179.

² -Karl Popper, **la connaissance objective**, traduction partielle de Catherine bas tyns, Edition complexes, Bruxelles, 1985, p28,

الواقع المادي (العالم الأول)، لتتحول بعد صياغتها ونشرها إلى كيانات معرفية مستقلة في العالم الثالث، حيث تخضع للنقاش والاختبار والنقد من طرف الجماعة العلمية.



(الشكل 3): مخطط يوضح التفتح والتفاعل بين العوالم الثلاث حسب تصور كارل بوبر¹

المراجع: لخضر مذبوح، ص 197.

3-تبولوجيا توماس كوهن وطرح مبدأ اللامقايسة:

يعدّ "توماس كوهن" أحد أكثر فلاسفة العلم جدلاً وتأثيراً في القرن العشرين، لقد برع من خلال رؤيته الجديدة لمنهج وتاريخ العلم والتي كان لهما أثر بالغ في فلسفته. إنّ ما يعرف عن توماس كوهن أنه عالم فيزياء، حيث قدّم صورة عن الأسس

¹ - لخضر مذبوح، التفتح في فلسفة كارل بوبر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، الطبعة 1، 2009، ص 197.

الابستمولوجية للعلم في كل مرحلة تاريخية، فتجسدت في أزمة العلوم الطبيعية وما انطوت عليه من مشكلات فلسفية معرفية ومنطقية وانتقلت إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يعتبر الإسهام الأهم **لتوماس كوهن** هو استحداث مفهوم البراديجم، وهو وحدة ما وراء النظرية تتجاوز انشغال "بوبر" بالفروض والحدوس واعتبارها الوحدات الأساسية المحركة للتقدم العلمي. يقول "كوهن" عن النموذج "إنّ مصطلح نموذج إرشادي في الاستعمال العادي نموذجاً أو نمطاً مقبولا، وفي ضوء هذه الدلالة أثّرت مصطلح "نموذج إرشادي" هذا إلى كلمة أفضل.¹

فالبراديجم بهذا المعنى هو نموذج ومنظور تفسيري يشمل القواعد المقبولة في الجماعة العلمية ويعرفه "كوهن" بأنّه مجموعة من القوانين والتقنيات والأدوات المرتبطة بنظرية علمية والمسترشدة بها، والتي بها يمارس الباحثون عملهم ويديرون نشاطهم. وحالما تتأسس تتخذ صفة العلم القياسي، وبالتالي فتاريخ العلم بالنسبة **لتوماس كوهن** عبارة عن تاريخ براديجمات متعاقبة وليس تاريخ تراكم وتوسع. والبراديجم يصفه **كوهن** بأنّه نظرية علمية جديدة إلى الكون والطبيعة تقضي على النظريات السابقة عليها.²

قام "كوهن" بشرح الموجة التطورية للعلم أو كيفية تطور المعارف العلمية. حيث قام بتقسيم تاريخ أي علم من العلوم إلى قسمين، أو أنّ تاريخ أي علم لابدّ وعليه من أن يمر بمرحلتين تفصلهما مرحلة انتقالية، وهما مرحلة العلم غير الناضج (immature sciences)، والعلم الناضج أو ما يصطلح عليه بالعلم السوي أو العادي أحيانا أخرى بالعلم القياسي.

أ-مرحلة العلم غير الناضج: هي مرحلة سادت فيها النظريات المتضاربة والمتفرقة ووجهات النظر المختلفة. تشكّلت فيها أيضا مجموعة من المدارس ذات الخلفيات الفكرية المتباينة والتي ساد فيها نوع من الجدل والأفكار المختلفة وعدم وجود تصور واضح وموحد لهاته المدارس وحتى لا يمكننا معرفة أي مدرسة من المدارس لأنّ كل مدرسة تستند إلى خلفية ميتافيزيقية أو فلسفة معينة، كما تتميز بعدم توفرها على أسس معيارية عامة وعقلانية حتى تمكّن الباحث من أن يخضع لها (نفس الظاهرة تفسيرات عديدة).³

ستنتهي في الأخير مرحلة العلم غير الناضج وذلك بتفوق وانتصار إحدى المدارس المتجادلة وغير المتفقة فيما بينهما؛ كل واحدة بمعتقداتها وأفكارها على تأسيس نموذج إرشادي أول يقود مرحلة البحث العلمي إلى مرحلة العلم الناضج.

¹ -توماس كوهن، بينة الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص53.

² -عبد الحق كوين، قراءة ومناقشة إسهامات وأطروحات توماس كوهن في مجال الابستمولوجيا من خلال كتابه (بنية الثورات العلمية)، مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، المجلد الرابع، العدد الثاني، مارس 2024، ص 209.

³ -نصيرة جعيداني، إشكالية تطور العلم عند توماس كوهن، مجلة أفكار وآفاق، المجلد 8، العدد2، ديسمبر 2008، ص143-144.

ب- مرحلة العلم الناضج أو السوي:

هو البحث الذي يرشّح بنيانه على إنجاز أو أكثر من انجازات الماضي العلمية والتي تعتبر بأنّها تشكّل الأساس لممارسته العلمية مستقبلاً. ربط **توماس كوهن** بين العلم السوي ومصطلح البراديجم والذي يرى أنّه هو الشرط الضروري له فمن خلاله يتم التمييز بين العلم (غير الناضج) والعلم الناضج، وهذا الأخير هو الذي ينجح في وضع براديجم معيّن لأنّه إذا تمّ نجاحه في وضع براديجم فهي دلالة واضحة على نضجه حيث يقول **كوهن** " العلم الناضج هو النشاط الذي يهتم بحل المشكلات العلمية بالطرق التي يحددها النموذج المعمول به، أي أنّ العلم السوي يحاول دائماً أن يدرس ويدقق في القضايا العلمية التي وضعها النموذج." كما أنّه مبني وبشكل أساسي على فهم وحل الألغاز التي ظلّت غامضة وشائكة داخل المعرفة العلمية، ولعلّ أهم الخصائص التي يصف بها كوهن العلم السوي إجمالاً¹:

- العلم العادي ذو طابع تراكمي أي يتميّز بالتراكم الهدف منه الزيادة في محتوى المعرفة العلمية من خلال تسلسل جملة من الاكتشافات. العلم العادي في هذه المرحلة يكون في حالة استقرار وهدوء لأنّ النموذج يكون متمسكاً بزمam النشاط العلمي. ويشكّل العلم السوي الجزء الأكبر من تاريخ العلم ولأنّه يعتبر أطول مرحلة من مراحل تطور العلم، إنه ليس من اليسير تغيير قواعد وقوانين وأسس ومبادئ العلم، فالعلماء يحاولون التشكيك في النظريات العلمية وفقاً لأطر وضعها النموذج الإرشادي أو البراديجم وبالتالي المرحلة الثورية تكون نادرة.

ج- العلم الثوري:

1- الأزمة كمدخل للثورة العلمية:

عندما تظهر حالات شاذة في العلم ولا يستطيع العلماء فهم هذا الخلل والفوضى التي أصابت العلم، ولا يمكن استيعابها وفق النموذج الإرشادي القائم، لأنّه غير مهيباً لهذه الوقائع التي تحدث. ينتج عنه ما يسمى بأزمة في العلم والتي يقصد بها عجز الحلول القديمة والتقليدية على مواجهة واحتواء حالات الخلل المستجدة الحادثة غير المعروفة أو المتوقعة. والأزمة هي تراكم المشكلات والفوضى وظهور التناقضات والصراعات. عندما يدخل العلم في حالة من الأزمة فإنّه يؤدّي بالضرورة إلى ظهور نظريات جديدة، فالأزمات تقودنا إلى التعبير لأنّها نتجت عن فشل التوقعات.²

الأزمات ماهي إلّا: -تعبير عن إخفاق العلم عن حل الألغاز وعجزه إلى التوصل إلى نتائج متوقع.

-الأزمة هي الوعي بالشذوذ

¹ - صيرة جعيداني، مرجع سابق الذكر، 149.

² -الموضع نفسه.

-دورها هو الإعلان عن إفلاس وفشل القواعد القائمة

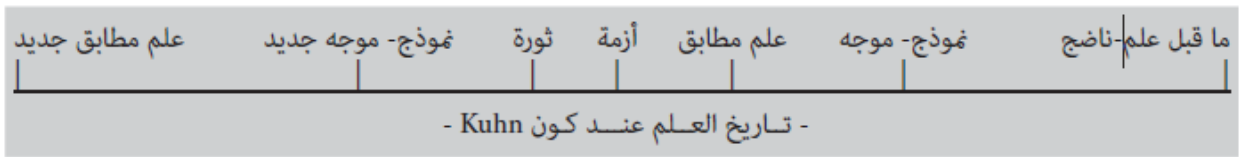
2-الثورة العلمية: يعرفها **توماس كوهن** على أنّها سلسلة من الأحداث التطورية غير التراكمية التي يستبدل فيها نموذج إرشادي قديم كلياً أو جزئياً بنموذج إرشادي متعارض معه، الثورة العلمية هي الانتقال من نموذج إرشادي أو براديغم قديم إلى براديغم آخر يختلف معه سواء من ناحية المبادئ أو الأسس، فلا يمكن أن يكون هناك ثورة علمية إلا إذا كان هناك تحول وتغير ما هو قائم.¹

د-أنواع الثورات العلمية عند كوهن:²

1-الثورة الصغرى: التي يعني بها الاكتشافات العلمية الثورية التي لا تدخل ضمن توقعات النظام، البراديغم السائد، والتي تحدث ضمن نطاق ضيق بين عدد محدود من العلماء، الذين لا يتجاوز عددهم العشرين وهنا يختلف مع **بوبر** الذي يقول أنّ واقعة واحدة قادرة على إثبات زيف وإبطال النظرية المعنية.

في حالة فشل النموذج في الوصول إلى نتائج مرتقبة في حلّ الألغاز من خلال العلم القياسي تحدث الثورة الكبرى.

2-الثورة الكبرى: هي التي تؤسس تقليداً بحثياً جديداً وتفرض رؤية جديدة وتهدم النظام السابق ويتجاوز تأثيرها المجال الذي حدثت فيه إلى مجالات أخرى من النشاط الإنساني. إلا أنّ عملية نقل العلماء ولاءهم لأسس علمية معينة إلى أسس أخرى جديدة ليس بالأمر اليسير.



(الشكل 4): مخطط يوضح مراحل بناء براديغم ومبدأ اللامقايسة المعرفية

المرجع: حسن الحريري، التأويل الاستيمولوجي اللاوضعي بين براديغم توماس كوهن وبرنامج بحث إمري لاكاتوس، مؤسسة دراسات وأبحاث، 2018، ص3.

¹ -محمود زعيم عباس يوسف، فلسفة العلم عند توماس كوهن، مجلة كلية الآداب، الجزء2، العدد52، 2021، ص366-368.

² -الموضع نفسه.

لقد سلّم **توماس كوهن** بكون العلم ماضٍ في طريق التقدّم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد السائد بأنّ هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطي بحيث أنّ التقدّم المعرفي اللامقاييسي **لكوهن** بحسب تصوره ينبني على براديجمات لا متقايسة، حيث يقول أنّ البراديجمات الجديدة تتبنى بعض مكتسبات القديمة وفق مسار غير تراكمي.

يحمل مصطلح الثورة جانبيين مهمين في تفكير **كوهن**:

- يشير إلى الطبعة الحلقية للتقدّم في تاريخ العلم حيث أنّ تبني براديجم جديد يكون نتيجة لثورة علمية تدشن مرحلة جديدة من العلم القياسي، هذه الأخيرة ينتهي بها المطاف إلى أزمة جديدة يليها حدوث ثورة تؤدي إلى تبني براديجم جديد وهكذا.

- يجري **كوهن** تشبيها بين الثورة العلمية والثورة السياسية حين يشبه البراديجم بالنظام السياسي القائم الذي يتولى معالجة المشاكل الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع، فإذا ما عجز النظام السياسي عن حل هذه الأزمات القائمة تحدث ثورة لاستبدال هذا النظام بنظام جديد بنفس الطريقة التي يتم فيها استبدال البراديجم القديم ببراديجم جديد، فعندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإخفاق في الحصول على فهم متبصرة للواقع عن طريق أدوات تقليد البحث المهيمن، وعندما يصعب التخفيف من حدّة هذه الأزمة عبر تنقيح البراديجم المهيمن تحدث الثورة المعرفية، ما يعني الانتقال إلى نموذج قياسي موجه والذي ينطوي عليه أيضا التغير في النظرة إلى القديم. هذا ما يجعل الحديث عن إمكانية عقد مقارنة بين البراديجم الجديد والقديم غير متيسرة، فكل يستعمل لغة وأدوات تحليلية متميزة ويطرح حجج علمية متميزة وهذه الوضعية يطلق عليها توماس كوهن اللامقايسة.

4- بول فيرابند ومنطق الفوضى المنهجية ونقد العقلانية:

تعدّ فلسفة "**بول فيرابند**" من أكثر اللحظات الاستمولوجية راديكالية في القرن العشرين، لأنّها تكسر كل النماذج التي سادت قبله، سواء النموذج الوضعي أو العقلانية النقدية أو البراديجمات العلمية في صورته الكلاسيكية. وتكتسب أعماله أهميتها هائلة، من نقد الوضعية المنطقية إلى بروز مقاربات ما بعد النقد؛ مما يجعل بول فيرابند حلقة مفصلية في فهم مسار تطور فلسفة العلم الحديثة.

في البداية، وجّه فيرابند نقدا شديدا للوضعية المنطقية، وخصوصا لنموذجها التأسيسي الذي كان يفترض إمكانية صياغة لغة علمية خالصة خالية من الالتباس، وأنّ المعرفة العلمية يجب أن تبني على مبدأ التحقق التجريبي وضبط اللغة والمعنى. يرى **بول فيرابند** أنّ هذا المشروع برمته متناقض فاللغة نفسها ليست أداة محايدة، والمعارف لا تنمو ضمن نسق

مغلق، بل من خلال تاريخ معقد، تناقضي، وصراعي، وبالتالي فإن محاولة الوضعية المنطقية فصل العلم عن التاريخ وعن الثقافة تنتج تصورا مزيقا عن العملية العلمية.¹

رغم انتقاداته المبكرة للوضعيين، فإن فيرايند بدأ مساره منبها بشكل واضح بالعقلانية النقدية لكارل بوبر. فقد وجد في منهج التكذيب وإحلال الفرضيات الجزئية إمكانية لتحرير العلم من الجمود والاستقرار. كان بوبر بالنسبة له مثالا للفكر التحريري الذي يمنع العلم من السقوط في الدوغمائية، لكن مع مرور الوقت يكتشف بول فيرايند حدود هذا المشروع إذ يرى أن منهج التكذيب نفسه يتحول إلى عقيدة منهجية أخرى، أي أنه يعيد إنتاج نفس الشكل من الإلزام الذي كانت تمارسه الوضعية المنطقية ولكن بلغة أكثر حداثة والنتيجة أن العلم، حتى أن العلم يظل محاصرا بإطار معياري يفرض ما يجب أن يكون عليه البحث العلمي وما لا يجب أن يكون.²

هذا التحول النقدي يقود فيرايند إلى صياغة أفكاره المستقلة، والتي ستبلور في كتابه الأشهر "ضد المنهج"، حيث يرفض فكرة وجود منهج علمي واحد لجميع المراحل والأوضاع. حيث رفض المنهج الصارم بكل قوة واعتبره معيقا للتقدم العلمي والمبدأ الوحيد الذي تبناه معتبرا إياه عاملا أساسيا في التقدم العلمي "هو كل شيء جائز"، هذا المبدأ يدافع عن تعدد وتنوع المناهج مؤكدا على وجودها وتوافقها مع سياقات علمية اجتماعية ثقافية متباينة.³

يرفض فيرايند السلطة المعرفية لمنهج واحد، ويدعو في المقابل إلى التعددية المنهجية التي تعني عنده الفوضوية واللاسلطوية المعرفية، فسميت فلسفته باللاعقلانية الفوضوية، هذه العقلانية التي ترفض أن يؤسس العلم على قواعد صارمة، حيث يؤكد فيرايند على أن تاريخ لا يقدم صورة منتظمة أو خطية للمعرفة، وأن التقدم العلمي يجب أن يفتح مجال البحث أمام أنماط وأساليب أخرى من التفكير تساهم في عملية بناء العلم، والقول بالمنهج الواحد الصارم يعيق العمل، ويكون سببا في عرقلة التقدم العلمي.⁴

يعني فيرايند عندما طرح فكرته هذه كل شيء جائز أنه لا ينكر العقل، بل ينزع القدسية عن المنهج حيث جعل العلم نشاطا إنسانيا متعدد الأساليب، مفتوحا على الإبداع، وغير خاضع لوصاية معيارية. فالمعرفة بالنسبة له ليست حكرا على العلم، بل يجب الاعتراف بشرعية المعارف الثقافية والدينية والأسطورية، لأن تفضيل العلم على غيره ليس مسألة برهان، بل مسألة سلطة. هذا الطرح يقوده إلى نقد الحقيقة المطلقة، ليثبت أن العلم يمارس في كثير من الأحيان نزعة استعمارية تجاه أنماط التفكير الأخرى.

¹ - بول فيرايند، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1997، ص 217.

² - بول فيرايند، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وميمر حنا صادق، المجلة الأعلى للثقافة، مصر 2000، ص 264.

³ - هوارى شاذلي، بول فيرايند من صرامة المنهج إلى التعددية المنهجية، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 1، عدد 1، سبتمبر 2012، ص 101-105.

⁴ - بول فيرايند، العلم في المجتمع الحر، مرجع سابق، ص 113.

إنَّ فيرايند يلح على أن تكون القواعد المنهجية مستمدة من الممارسة الواقعية ولا وجود لقواعد جامدة، وهو في ذلك ينطلق من الممارسة الواقعية، ولا وجود لقواعد جامدة، وهو في ذلك ينطلق من موقف إنساني، يتمثل في الحث على الإبداع مهما كانت الأفكار والتصورات، فالإنسان هو مصدر العلم الوحيد، وليست المناهج المحددة سلفا حيث يقول "إنَّ العلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث باستخدام قواعد ابستمولوجية مجردة، إلا إذا كانت القواعد نتاجا لممارسات ابستمولوجية دائمة التغيير.¹

يقترح فيرايند من خلال هذه الرؤية موقفا تحريريا جذريا تجاه العلم بحيث لا يمكن للعلم أن يحتكر العقلانية، ولا يمكن للمنهج أن يحد من التطور. إنَّ العلم يتقدم عبر الخرق والمخالفة والتحرر من القواعد. فحيث تقوم الفلسفات التقليدية للعلم على ضبطه من الخارج، يقدم فيرايند تصورا يراه أكثر انسجاما مع تاريخ العلم نفسه، العلم تجربة إنسانية مفتوحة، ومجال للصراع والتفاوض، وليس منظومة مغلقة.

يصبح فيرايند بذلك أحد مؤسسي ما يسمى الابستمولوجيا اللانسقية، التي تشكل قطيعة ابستمولوجية مع كل التصورات المعيارية للعلم، وتفتح المجال أمام رؤية أكثر مرونة وتعقيدا للعقلانية العلمية، وهو ما يجعل أعماله اليوم مرجعا مركزيا في فهم حدود العلم، وفي النقد الثقافي للمعرفة العلمية، وفي تحليل علاقة العلم بالسلطة والمجتمع.

5- ميشال فوكو: الخطاب، السلطة والمعرفة

تمثل ابستمولوجيا ميشال فوكو أحد أهم التحولات التي عرفتتها المعرفة الغربية في القرن العشرين، إذ انتقلت من البحث عن شروط صدق الخطاب إلى تحليل شروط ظهوره ونظامه وإنتاجه. لذلك يصنف فوكو ضمن الاتجاهات البنوية التاريخية التي قلبت مفهوم المعرفة من كونها تمثيلا للحقيقة إلى كونها نسقا من الخطابات ينتج الوقائع ويشكل أنماط التفكير الممكنة.

يتأسس مشروع فوكو على ما سَمَّاه "حفريات المعرفة" وهي منهجية تستهدف الكشف عن الأنظمة الخطابية التي تتحكم في إنتاج الحقيقة في كل عصر، بوصف الحقيقة ليست معطى ثابتا بل بنية تصنع داخل ترتيبات معرفية وقواعد خفية. يوضح فوكو في كتابه "حفريات المعرفة"، أنَّ الخطابات لا تنشأ باعتبارها تطورا طبيعيا للأفكار، بل تتشكل عبر نظام الأرشيف، أي مجموع القواعد التي تحدد ما يمكن قوله في فترة معينة وما يجب إقصاؤه أو إسكاته. وبناء على ذلك فإنَّ المعرفة لا تفهم كترام خطي، بل كسلسلة من الانقطاعات والتحويلات الكبرى. هنا يلتقي فوكو مع باشلار في فكرة القطيعة، لكنه يمنحها بعدا تاريخيا مؤسساتيا، إذ لا تتعلق القطيعة عنده بعائق ذهني فقط، بل ببنية اجتماعية-سلطوية تتحكم في ظهور العلوم وتطورها.

¹ -المرجع نفسه، ص114.

انتقل فوكو لاحقا إلى مفهوم "أركيولوجيا المعرفة" وهو ما يعكس منهجا جديدا يهدف إلى تحليل الخطابات عبر:

-تحديد قواعد تشكّلها، لا مضامينها

-الكشف عن الشروط التاريخية للكلام العلمي

-تحديد الطبقات الخفية في المعرفة¹

ولقد اعتبر أنّ السلطة ليست مجرد جهاز سياسي أو قهري، بل هي شبكة من السلطة، ليس لأنّها تتعرض للرقابة فحسب، بل لأنّ عملية إنتاج الحقيقة ذاتها تمر عبر مؤسسات تصنّف وتراقب وترتب وتخضع مثل الطب، السجون، العيادات، الخطاب التربوي، وأجهزة الدولة الحديثة. ولذلك صاغ مقولته الشهيرة "حيثما توجد معرفة، توجد سلطة".

وقد أبرز فوكو هذا الترابط في تحليله لأجهزة الضبط الحديثة (السجون، المصححات، المدارس...)، حيث أوضح أنّ ما يقدّم كمعرفة علمية عن الجسد أو السلوك أو المرض ليس بريئا، بل يقوم مقام تقنية للضبط الاجتماعي، ولعلّ مثال "السلطة التأديبية" في كتابه "المراقبة والمعاقبة" يجسد هذا التفسير، حيث تصبح المعرفة الطبية والنفسية أداة لإنتاج أفراد مطيعين عبر آليات مراقبة دقيقة، مثل الامتحان الطبي، والسجل المدرسي، والتقارير الإدارية.²

يمتد تأثير فوكو إلى الاستمولوجيا المعاصرة، إذ أنّه حرّر تحليل العلم من طابعه الداخلي الضيق، ونقله إلى فضاء أوسع يدمج بين التاريخ والسوسيولوجيا والانتروبولوجيا السياسية. فهو يرى أنّ الحقيقة لا تتأسس فقط داخل المختبر، بل داخل بنية اجتماعية تحدد شروط قول الحقيقة، فالعلم بالنسبة له نظام خطابي مشرّع بالسلطة. وهنا تتضح قيمة مشروعه بالنسبة لعلوم الإعلام والاتصال أيضا، لأنّ هذه العلوم تدرس بدورها أنماط إنتاج الخطاب ودوائر السلطة التي تتحكم في الرأي العام، التمثيل الإعلامي، وصناعة الحقيقة الاتصالية والإعلامية.

يمكن القول أنّ فوكو زرع الاستمولوجيا الكلاسيكية التي ركّزت على منطق العلم وبنائه الداخلية، ليقتراح بديلا ينظر إلى المعرفة كحدث تاريخي وكممارسة اجتماعية، ومن هذا المنطلق باتت دراسة العلم مرتبطة بتحليل القوى التي تجعله ممكنا، والعلاقات التي تمنح خطابه شرعية وامتياز داخل فضاء الحقيقة. إنّّه لا يقدّم نقدا للعلم، بل يكشف البنية التي تمنح العلم قوته وسلطته، وعيد ربط المعرفة بمنطقها العميق: من يحكم؟ من يقول الحقيقة؟ ومن يملك حق تعريف الواقع؟³

¹ - ميشال فوكو، السلطة والمعرفة نظام الخطاب، بيروت، دار التنوير، ط1، 1984، ص ص4-5

²-Michael Foucault, *histoire de la sexualité, la volonté du savoir*, France Gallimard, 1976, 75,

³ -مشقق إبتسام، سؤال السلطة ورهانات التفكير في الحقيقة والذات في فكر ميشال فوكو، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد 11، العدد3، جوان 2022، ص 275.

ختاماً يظهر استعراض الاتجاهات الاستمولوجية المعاصرة مع باشلار وبوبر وكوهن وفيرابند وفوكو أنّ التفكير في العلم لم يعد قائماً على البحث عن يقين ثابت أو منهج موحد، بل أصبح قائماً على النقد والمساءلة وإبراز الطابع التاريخي المتحول للمعرفة العلمية فقد أبرزت هذه التصورات أنّ العلم يتقدم عبر القطيعة وإعادة البناء وأنّ معاييرها ليست نهائية، بل تتشكل داخل نماذج إرشادية وسياقات فكرية وثقافية محددة. كما كشفت أنّ العقلانية العلمية نفسها ليست نموذجاً مغلقاً، بل مجالاً للنقاش والتعدد، وأنّ المعرفة العلمية ترتبط بشروط إنتاجها وبأنظمة الخطاب التي تؤطرها.

لم تعد بذلك الاستمولوجيا مجرد تأمل فلسفي في العلم، بل أصبحت أداة تحليل نقدي تسمح بفهم طبيعة الحقل المعرفية، وتحديد أسسها النظرية، والكشف عن نماذجها المهيمنة وحدودها المنهجية. ومن هذا المنظور نكتسب الاستمولوجيا أهمية خاصة عند الانتقال إلى دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث تتداخل المناهج وتتعدد المقاربات وتتقاطع الأبعاد الرمزية والثقافية.

يبرز في هذا السياق حقل علوم الاعلام والاتصال بوصفه مجالاً معرفياً يتطلب قراءة استمولوجية واعية، تسمح بفهم تعددية نماذجه وتحديد خصوصيته داخل خريطة العلوم المعاصرة ومن ثمّ فإنّ استيعاب التحولات الاستمولوجية الكبرى يمهد للانتقال إلى المحور اللاحق الذي يعالج أهمية الاستمولوجيا في علوم الاعلام والاتصال، بوصفها مدخلاً لفهم هذا الحقل وتحديد أسسه المعرفية ومنطلقاته المنهجية.

المحور الثالث: أهمية الاستمولوجيا في علوم الاعلام والاتصال

تعد الاستمولوجيا إحدى الأدوات الأساسية لفهم طبيعة المعرفة العلمية ومسارات تشكّلها، وهي تمثّل بالنسبة لعلوم الإعلام والاتصال مفتاحاً ضرورياً لتفسير تطور هذا الحقل وحدود اشتغاله. فالدراسات الاتصالية، رغم اعتمادها على مناهج كمية ونوعية متعددة، لا يمكن أن تتقدم دون وعي بالأسس التي تمنح هذه المناهج مشروعيتها، وتحدّد طبيعة الظواهر التي يمكن للباحث في الاتصال مقاربتها. من هنا تبرز أهمية الاستمولوجيا باعتبارها خلفية نقدية تمكّن الطالب والباحث من التمييز بين النماذج التفسيرية، وفهم منطق كل مدرسة علمية، وكيف انتقلت نظريات الاتصال من الرؤية الوضعانية إلى النسقية ثم البنائية وما بعدها.

كما تساعد الاستمولوجيا على وضع الظاهرة الإعلامية ضمن سياق معرفي أوسع، يربطها بالتحوّلات الاجتماعية والتقنية التي أثّرت في طبيعة المعلومة، وفي بنية الفاعلين الاتصاليين، وبذلك تصبح الاستمولوجيا أداة لفهم تطور المعرفة الاتصالية نفسها، وليس مجرد مدخل فلسفي.

إنّ إدراج هذا المحور ضمن المقرر يهدف إلى تزويد الطالب بالقدرة على القراءة النقدية للنماذج والنظريات، وتفاذي التعامل السطحي معها، وتطوير حسّ علمي يسمح بطرح أسئلة دقيقة حول إنتاج الخطاب الإعلامي، واستعمال التكنولوجيا الرقمية، وعلاقة الاتصال بالسلطة والمعرفة.

المحاضرة الثامنة: مؤسسة علوم الإعلام والاتصال:

تشكّل مؤسسة علوم الإعلام والاتصال إحدى أهم التحولات التي شهدتها العلوم الإنسانية خلال القرن العشرين، نظرا لتقاطع هذا التخصص مع تحولات اجتماعية وثقافية وتقنية عميقة ارتبطت بظهور المجتمعات الصناعية ثم الرقمية. فالتأسيس الأكاديمي لهذا العلم لم يكن حدثا فجائيا، بل حصيلة مسارات معرفية ومؤسسية تشكّلت تدريجيا، وساهمت فيه عدّة مدارس واتجاهات بحثية، إلى جانب ظروف تاريخية عالمية فرضت ضرورة فهم الظاهرة الإعلامية بوصفها محورا مركزيا في إدارة المجتمعات الحديثة.

أولا-المسار التاريخي لتكوين التخصص:

تعتبر الظاهرة الاتصالية ظاهرة قديمة صاحبت مختلف مراحل تكوّن المجتمع البشري، لذلك لم تدرس في البداية بوصفها مجالا مستقلا، بل تناولها الباحثون ضمن حقول العلوم الاجتماعية المختلفة. وقد كان ينظر إلى الاتصال باعتباره ظاهرة تندرج ضمن إطار الفعل الاجتماعي، كما كان يؤكّد، انطلاقا من هذه المسلّمة أنّه لا توجد ضرورة لدراسته بصفة مستقلة عن الفعل الاجتماعي.

شهد القرن 19م ظهور عدد كبير من وسائل الاتصال استجابة لعلاج بعض المشكلات الناجمة عن الثورة الصناعية. فقد أدّى التوسّع في التصنيع إلى زيادة الطلب على المواد الخام، وكذلك التوسع في فتح أسواق جديدة خارج الحدود، كما برزت الحاجة إلى استكشاف أساليب سريعة لتبادل المعلومات التجارية، كما برزت الحاجة إلى استكشاف أساليب سريعة لتبادل المعلومات التجارية وبالتالي أصبحت الأساليب التقليدية للاتصال لا تلي التطورات الضخمة التي يشهدها المجتمع الصناعي.

يعتبر علم الاتصال علم حديث نسبيا، خرج من تحت عباءة علم الاجتماع وعلوم أخرى فأصبح له قواعده وأصوله ونظرياته المستمدة من العلوم الاجتماعية التي سبقت ظهوره، وقد تطور علم الاتصال تاريخيا حسب المراحل التي شهدت النماذج الاتصالية الرائدة التي غيّرت من نمط الاتصال السائد وأثرت على أشكال الحضارة والمدنية.

تعود الأصول التاريخية لكلمة الاتصال للعصور القديمة تحت مسميات الخطابة البلاغة، فإنّها لم تشتهر في الخطاب الحديث العادي إلّا منذ أواخر القرن 19م، حيث بدأت الدّراسات الأكاديمية في مجال الفنون والآداب تهتم بموضوعات متفرقة مثل سلوك الجماهير المجتمع والصحافة.

لم تظهر علوم الإعلام والاتصال دفعة واحدة بل كانت ثمرة مسار تاريخي طويل بدأ مع التحولات الكبرى للاتصال الإنساني، وأهمها اختراع الطباعة على يد "يوهان غوتنبرغ"، في منتصف القرن الخامس عشر، وهو الحدث الذي شكّل ثورة معرفية غير مسبقة، إذ مكّن من نشر الكتب بكم ضخمة وسرعة عالية، وفتح المجال أمام تشكّل الصحافة المكتوبة لاحقا،

وتحوّلها إلى مؤسسة اجتماعية قادرة على التأثير في الرأي العام وصناعة المعرفة، ولذا يعتبر عدد من الباحثين، مثل إليزابيث أيزنشتاين، أنّ الطباعة أسّست للمجتمع الحديث لأنّها خلقت شروط الانتظام، والتوثيق وبرز المجال العمومي.¹

لكن تحديث الصحافة بإضفاء الطابع المهني عليها سبقته دعوات عدّة كان أولها اقتراح الأمريكي "روبرلي" الذي دعا إلى تكوين جامعي لمهنة الإعلاميين في عام 1869م، وبدأت هذه الفكرة تنتشر بين المؤتمرين الدوليين حول الصحافة اللذين عقدا في بوردو وبرلين، كلّت بأول برنامج دراسي في ميدان الإعلام تمّ ضبطه عام 1901م ثم جامعات أخرى. فتح أول تخصص جامعي للاتصال في ألمانيا عام 1916 وكانت محتويات المواد الدراسية في كل هذه الهيئات ذات طابع مهني تركز أساسا على التقنيات الخاصة بممارسة مهنة الصحافة، ثم أصبح ابتداء من العشرينات يتضمن كذلك وحدات نظرية مثل التاريخ أخلاقيات الصحافة؛ الرأي العام؛ إدارة الصحيفة؛ الإشهار وذلك بفعل عدّة عوامل منها التفاعل بين علم الإعلام والعلوم الاجتماعية التي تمثّل المحيط الثقافي لمثل هذا التخصص بالإضافة إلى بعض التكنولوجيات الحديثة الهاتف الإذاعة، التلفزيون الذي أصبح تأثيرها يتزايد في الحياة السياسية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

تمّ فتح دراسات ما بعد التدرج في بعض الجامعات الأمريكية بين عامي 1934-1935 ثم اتسع مجال البرامج الإعلامية كما وكيفا بعد الحرب العالمية 2 ليساهم في تأصيل علم الإعلام كعلم قائم بذاته في أمريكا ثم أوروبا وبقية أنحاء العالم.

ثانيا- إشكالية الهوية العلمية لعلوم الاعلام والاتصال:

إنّ السؤال الذي رافق هذا التخصص منذ بدايته هو: هل الإعلام والاتصال علم قائم بذاته، أم مجرد مجال بحث متعدد التخصصات؟

1- الأطروحة الأولى: علوم الاعلام والاتصال علوم قائمة بذاتها

يستند المدافعون عن استقلالية التخصص إلى أنّ الظاهرة الاتصالية تمتلك موضوعا خاصة (التواصل الإنساني والإعلامي)، ولها مناهجها الجزئية ونماذجها التفسيرية، مثل نموذج لاسويل، ووظائف الاعلام عند لازارسفيلد وميرتون، كما أنّ المؤسسات أو البرامج الجامعية والبحثية المتخصصة تقدم دعما لمفهوم استقلالية هذا الحقل.

يرى أنصار هذا الاتجاه أنّ الاتصال يتميّز بديناميكية لا تنافسه فيها سوى قلة من التخصصات مثل المعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية، وهذا راجع للأسباب التالية:

¹ - منير طي، وسائل الاعلام والاتصال عبر التاريخ الحديث كرونولوجيا التطور من الاتصال غير اللفظي إلى الميديا الجديدة، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 6، العدد 3، ديسمبر 2020، ص 10.

-تزايد أهمية المعلومات في كل جوانب حياة الفرد ونجاحاته الفردية والاقتصادية، ويعدّ هذا العامل في مقدّمة العوامل الداعية إلى البحث في الموضوعات الإعلامية.

-فهم أنواع الاتصال وما يحيط بها من جزئيات تظل مسألة صعبة ومعقدة وهذا ما دعا إلى ضرورة وجود منهجية واضحة لشرح أبعاد تلك العملية.¹ وذلك راجع إلى:²

-الأهمية المتزايدة للمهارات الاتصالية في العلاقات العامة التي أصبحت أكثر التخصصات نموا في مجال الاتصال.

-اتساع مساحة التّعرض لوسائل الاتصال والاستخدام الواسع لوسائل التواصل الاجتماعي.

-التزايد المستمر في اعتبار وسائل الإعلام مصدرا أساسيا لفهم وإدراك الواقع.

-تزايد الترابط بين النظام الإعلامي وباقي الأنظمة الاجتماعية وخاصة السياسية منها، إلى وسيلة للسلطة السياسية.

-إنّ أهمية تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية في نوعية التواصل الجماهيري والخاص يجعل من تخصص الاتصال ذو أهمية كبرى لا تخفى على أحد.

2-الأطروحة الثانية: علوم الاعلام والاتصال علوم فاقدة للهوية

يرى أنصار هذه الأطروحة أنّ علوم الاعلام والاتصال حقل معرفي يبني يتغذى من حقول متعددة، علم الاجتماع، اللسانيات، السيميائيات، علم النفس، الاقتصاد السياسي.

يتميز عادة أي تخصص أكاديمي ببعض الانسجام في مواضيع دراساته وفي نظرياته، فمثلا الفيزياء كعلم أو تخصص يعتبر واضح المعالم وموضوعها هو الطبيعة ونظرياتها تبني واحدة فوق الأخرى (نظرية نسبية أينشتاين على نظرية ميكانيكا نيوتن...) ولا يوجد جدل كبير حول ماهية النظريات التي تنتمي إليها.

يضاف إلى هذا حداثة عهد هذا المجال الذي لم تتمكن فيه الأعمال التأصيلية من رسم حدود نظرية واضحة له، ويقول في هذا الأمر " دانيال بونيو" (Daniel Bounoux) أنّ الاتصال حقيقة موجود في كلّ العلوم، ولكنّه كعلم، حقيقة مفقودة، ثم أنّ انفجار المناهج والمقاربات داخل هذا الحقل، والنازحة من تخصصات متأصلة الجذور في التاريخ، يجعل مهمة المشتغلين بتاريخ علوم الإعلام عملية مشوشة ومعقدة في ذاتها. وبسبب هذه الطبيعة المركبة، يرى أصحاب هذه

¹ - جبابلية ياسين، طائر مفيدة، البحث في علوم الاعلام والاتصال: بين سؤال الهوية والاشكاليات المنهجية وتحديات البيئة الاتصالية الجديدة: قراءة تحليلية، المجلة الجزائرية للأبحاث، المجلد 5، العدد 1، جانفي 2022، ص111.

² - فضيل دليو، هوية البحث في الاتصال، مجلة المعيار، المجلد 21، العدد 41، جوان 2016، ص 493.

الأطروحة أنّ الحقل لا يتوافر على انتظام منهجي مستقل، بل يشغل وفق ما يعرف بـ "التناهج والتركيب" اللذان يقفان وراء عدم توضيح حدود علوم الإعلام والاتصال ويمكن شرحهما كالتالي:¹

أ - **وضعية التناهج:** تعتبر علوم الإعلام والاتصال علوم "إدماجية" (intégrative)، تجميعية (Synoptical)، أو على حد تعبير "ليتلجون" هو "متعدد التخصصات"، مع العلم أنّ هناك فروقا طفيفة بين المصطلحات الثلاثة: فهو إدماجي لإتاحته استعمال نظريات أو مناهج أي تخصص لديه ما يفيد في وصف موضوعه الاتصالي، وهو تجميعي لاستعماله معارف عدّة تخصصات، وهو متعدّد التخصصات لقيامه بالأمرين معا.

إنّ الخارطة الاستمولوجية لعلوم الإعلام والاتصال جعلت منه حقلًا تسكنه تخصّصات علمية مختلفة وتتفاعل معه علوم عديدة، فقد أحصى "كرايغ" سبعة تقاليد أكاديمية في نظريات الاتصال تقوم بالتنظير للاتصال بطرق مختلفة: البلاغة، السيميائية، الظاهرية، السيبرنطيقية، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع الثقافي وعلم الاجتماع النقدي. بينما نجد أنّ لعلوم الطبيعة تقليدا نظريا واحدا، ولعلم النفس اثنين (السلوكية والتحليل النفسي) ونحن لدينا سبعة أو أكثر.

إنّ التفكير في التوجه نحو اندماج العلوم ينبثق من واقع استمولوجي نظري مركّب تتفاعل في حدوده حقيقتان: حقيقة التناهج Interdisciplinary بين العلوم، وحقيقة ظهور فلسفة التعقيد. أما الأولى فهي قائمة على تداخل مجالات العلوم وتداولها لمفاهيم ومصطلحات بعينها، ويتحدث "ادغار موران" عن ترحال المفاهيم وهجرتها من حقل لآخر لتكون لها بنيات أساسية في كل حقل من الحقول. نجد مثلا مصطلح التشويش (الضوضاء) الذي تحوّل من مجال الفيزياء إلى الحديث عن التشويش السيميائي أو الدلالي في علوم الإعلام والاتصال وكذلك في بقية علوم الاجتماعية الأخرى. ونجد كذلك مصطلح الأنتروبيا Entropie الذي نشأ في مجال الدينامية الحرارية، ليظل فيما بعد مصطلحا مركزيا في مجال الإعلام والاتصال، والذي يرمي إلى قياس أهمية المعلومات والأخبار المتداولة في المحيط الاجتماعي.

هذا الأمر يقودنا إلى ضرورة تبني براديجم التعقيد القائم على فهم الجزء من خلال الكل، وفهم الكل من خلال الجزء، من دون الفصل بين الجزء والكل، ومثل هذا التحوّل لا يحتمل فصل الجزء عن الكل وفصل الجزء عن الكل. وبهذا يمكن اعتبار براديجم التعقيد فتحا جديدا في مجال العلوم إذ يقرّ بمحدودية العلم وبعد اليقين وبحقيقة الظواهر الطارئة والاضطراب.

ب - **ازدواجية التركيب²:** تحدث هذه الازدواجية في "الإعلام والاتصال" نوع من الاضطراب والتشويش، كلّما تعلّق الأمر بتاريخ علوم الإعلام والاتصال، كمجال يصدد البحث هن تأسيس هوية علمية وتاريخية لكيانه. إنّ ازدواجية التركيب التي تحتزلها كلمة "إعلام" وكلمة "اتصال" تحيل إلى مجالين متصلين منفصلين في الوقت ذاته: مجال الميديا والصناعات الإعلامية، ومجال السلوك والتفاعلات الاجتماعية. فمجال الإعلام فقد قاربته تيارات فكرية ونظرية مختلفة، منها التيار

¹ - عبد الله الزين الحيدري، ابستمولوجيا علوم الاعلام والاتصال، المجلة العربية للإعلام، عدد 17، 2018.

² - نفس المرجع.

الوظيفي الذي اهتم بدراسة وظائف الميديا الجماهيرية وتأثيرها في المجتمع، وهنالك أيضا التيار اللساني البنيوي كمنهج يختص باستخراج المضامين الإعلامي.

رغم هذا الاختلاف في تحديد هوية هذا الحقل المعرفي يشير كثير من الباحثين المعاصرين إلى أنّ قوة هذا التخصص تكمن تحديدا في هجينيته لا في نقائه، وفي قدرته على الربط بين مستويات التحليل الماكرو والميكرو، بين الخطاب والممارسة، وبين الوسيط ومحيطه الاجتماعي. لذلك فإنّ النقاش حول الهوية لا يفهم بوصفه صراعا بين "علم" و "مجال"، بل بوصفه بحثا عن نموذج بحثا عن نموذج معرفي مرن يستجيب لطبيعة الظاهرة الاتصالية الحديثة. هكذا يتجلّى الإعلام والاتصال كفضاء معرفي يتطور باستمرار في ضوء تحولات التقنية والإعلام الرقمي، مما يجعل مسألة الهوية مفتوحة على إعادة التشكيل أكثر من كونها محكمة بإجابة نهائية.

في ختام هذه المحاضرة يمكن القول أنّ تتبع المسار التاريخي لتكوّن علوم الاعلام والاتصال يظهر أنّ مؤسسة هذا الحقل لم تكن نتيجة تطور خطي بسيط، بل جاءت في سياق تحولات اجتماعية وتكنولوجية ومعرفية فرضت الحاجة إلى دراسة الظاهرة الاتصالية ضمن إطار علمي منظم. وقد أسهم هذا المسار في انتقال الاهتمام بالإعلام من مستوى الممارسة المهنية إلى مستوى البحث الأكاديمي، مع إنشاء أقسام جامعية وبرامج تكوين ومخابر بحث، مما منح التخصص شرعية مؤسسية داخل الحقل الجامعي.

غير أنّ هذه المؤسسة لم تنه النقاش حول الهوية العلمية لعلوم الاعلام والاتصال، بل كشفت في المقابل عن إشكالية أساسية تتمثل في تعدد مرجعياته النظرية والمنهجية، وارتباطه بعدة تخصصات أسهمت في بناء موضوعه وأدوات تحليله. فقد ظل الحقل يتأرجح بين السعي إلى الاستقلال العلمي من جهة أخرى، والانفتاح على التخصصات المجاورة من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى إلى تنوع المقاربات وتعدد نماذج تفسير الظاهرة الاتصالية.

تمثل بذلك مؤسسة علوم الاعلام والاتصال مرحلة أساسية في بناء هذا الحقل، لأنّها مهّدت للانتقال من مجرد الاهتمام بالممارسة الإعلامية إلى تطوير دراسات منهجية تسعى إلى فهم الظواهر الاتصالية وتحليلها. وهذا التحول يفتح المجال لدراسة المرحلة الموالية، التي ارتبطت بظهور أولى البحوث المنظمة والنماذج التفسيرية داخل هذا التخصص، وهو ما يقود إلى المحاضرة التالية حول نشأة البحث في علوم الاعلام والاتصال.

المحاضرة التاسعة: نشأة البحث في علوم الإعلام والاتصال

بعد أن تمت مؤسسة علوم الإعلام والاتصال واكتسابها حضوراً مؤسسياً داخل الجامعة، برزت الحاجة إلى تطوير بحوث علمية منظمة تسعى إلى فهم الظاهرة الاتصالية وتحليل تأثيراتها. ولم يكن ظهور هذه البحوث معزولاً عن السياقات التاريخية التي شهدت تنامي دور وسائل الإعلام في الحياة السياسية والاجتماعية، خاصة في فترات الأزمات والحروب، حيث أصبحت عملية الاتصال موضوعاً للدراسة العلمية بهدف فهم آليات التأثير في الجمهور.

في هذا الإطار، تشكلت البدايات الأولى للبحث في علوم الإعلام والاتصال، واتسمت بتعدد التوجهات التي حاولت مقارنة الظاهرة الاتصالية من زوايا مختلفة. فقد ظهرت دراسات ركزت على القياس والتجربة وتحليل التأثير، في مقابل اتجاهات أخرى اتخذت موقفاً نقدياً وسعت إلى فهم الأبعاد الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية للاتصال. ومن هنا يمكن فهم نشأة البحث في هذا الحقل بوصفها مرحلة تميزت بتبلور مقاربتين أساسيتين، هما المقاربة الإمبريقية والمقاربة النقدية، اللتان أسهمتتا في توجيه الدراسات الاتصالية في مراحلها الأولى.

1- بدايات البحث:

يجمع مؤرخو الإعلام والاتصال على أنّ الميلاذ الفعلي للدراسات الاتصالية الحديثة لم يكن وليد الحقل الأكاديمي وحده، بل نتاج سياق سياسي-عسكري. فمنذ بداية القرن العشرين، أدركت الولايات المتحدة والدول الصناعية أنّ السيطرة على تدفق المعلومات وتوجيه الرأي العام يمثلان أداة استراتيجية لا تقل أهمية عن القوة العسكرية التقليدية. ومع الحربين العالميتين برزت الحاجة إلى مؤسسات الإقناع، الدعاية، التأثير، والاستجابات النفسية للجماهير، خصوصاً أمام ما مثّله الحرب النفسية الألمانية من تهديد خلال الحربين.

إنّ الحرب العالمية الأولى كانت المحطة الأساسية التي كشفت للولايات أهمية الدعاية كقوة تعبئة، بعدما لعبت لجنة كريل (Commette on Public Information) دوراً محورياً في توحيد الرأي العام الأمريكي خلف قرار دخول الحرب. غير أنّ الحرب العالمية الثانية هي التي أدخلت الاستراتيجيات الاتصالية إلى قلب المؤسسات الاستراتيجية الأمريكية، حيث تأسست وحدات بحثية ضخمة مرتبطة مباشرة بالبنّاغون، وزارة الدفاع، ومكتب الخدمات الاستراتيجية.¹ وفي هذا السياق ظهرت أسماء مثل "هارولد لازويل" و"بول لازارسفيلد" و"كارل هوفلاند" و"كيرت لوين" الذين اشتغلوا على الدعاية، قياس الرأي، التأثيرات النفسية والتواصل الجماهيري ضمن برامج ممولة بالكامل من طرف الجيش الأمريكي.²

¹ -ديفيلر ميلفين، روكيتش ساندربول، نظريات وسائل الاعلام والاتصال، ترجمة كمال عبد الرؤوف، 1992.

² - Serge Peoulx, the birth of communication sciences in the military environment of 1940s, 2001, traduit par Abdelhamid Sahel, مجلة المصداقية، المجلد 6، العدد 1، 2024، ص 29.

لقد أدت هذه البرامج البحثية العسكرية إلى تنظيم المعرفة الاتصالية وفتح أول مراكز بحث جامعية متخصصة، مثل "مشروع الاتصال بجامعة "ييل" بقيادة "كارل هوفلاند" الذي درس تأثير الرسائل المقنعة على الجنود والجماهير. وبفضل هذا التزاوج بين المؤسسة العسكرية والجامعة، تشكّل ما يمكن اعتباره "البنية التحتية العلمية الأولى لعلوم الاتصال"، حيث أصبحت البحوث تدار بمنهجية علمية صارمة تعتمد على التجارب المخبرية، القياس الكمي، وتحليل المتغيرات، وهي أساليب أصبحت لا حقا قلب "الاتجاه الامبريقي-السلوكي".

مع نهاية الحرب، انتقلت العديد من هذه المؤسسات البحثية إلى الجامعات، وترسّخت قناعة بأنّ الاتصال ليس مجرد ممارسة اجتماعية بل هو ظاهرة قابلة للدراسة العلمية. وفي ألمانيا، أدّى استمرار الاهتمام بالدعاية السياسية والحرب النفسية إلى فتح أول تخصص جامعي في الاتصال في جامعة برلين في الخمسينيات، في إطار محاولة إعادة بناء الحقل الأكاديمي بعد انهيار الحقبة النازية.

ومع بداية الحرب الباردة تضاعف هذا الارتباط بين المؤسسة العسكرية ومراكز البحث الاتصالي، بسبب الصراع الأيديولوجي العالمي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، ما جعل الإعلام والسلوك الاتصالي جزءا من استراتيجية الاحتواء ومجالا رئيسيا للبحث الأكاديمي. بهذا أصبح السياق العسكري المؤسساتي هو الذي منح علوم الاعلام والاتصال شرعية الوجود، بنيتها المنهجية وأول مشروعاتها البحثية.

2- علوم الاعلام والاتصال: بين المقاربة الإمبريقية والمقاربة النقدية (تأسيس البدايات)

تأسست علوم الاعلام والاتصال منذ نشأتها على مقاربتين معرفيتين متميزتين لكنها متكاملتين في تشكيل بنيتها العلمية وهما المقاربة الإمبريقية والمقاربة النقدية.

أ- المقاربة الإمبريقية: جاءت هذه المقاربة استجابة لحاجات سياقية مرتبطة أساسا بتطور البحوث الاتصالية في الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث كان الاهتمام منصبا على قياس التأثيرات المباشرة وغير المباشرة لوسائل الاعلام، وتحديد أنماط الاستهلاك الاتصالي، واستطلاع اتجاهات الرأي العام. وقد استند هذا التوجه إلى المنهج الوضعي، مع التركيز على الملاحظة التجريبية، والقياس الكمي والتحليل الإحصائي، كما كرّسه باحثون من أمثال لازارسفيلد، ولاسويل، وشانون وويفر. وبموجب هذا المسار أصبحت الظاهرة الاتصالية تدرس باعتبارها موضوعا يمكن ضبطه، قياسه، نمذجته، والتنبؤ بسلوكيات الجمهور في ضوء معطيات تجريبية قابلة للاختبار. وهكذا اكتسبت علوم الاعلام

والاتصال ملامح العلم الامبريقي الذي يستند إلى الأرقام والمؤشرات والاختبارات التجريبية في رسم ملامح التأثير الإعلامي وتفسيره.¹

ب-المقاربة النقدية:² برزت المقاربة النقدية في أروقة المدرسة الأوروبية، وخصوصا مدرسة فرانكفورت، كرد فعل على الطابع الاختزالي الذي ميّز التحليل الإمبريقي. فقد انشغل المفكرون النقديون مثل أدورنو، هوركهايمر، ماركيز ثم هابرماس؛ بفحص البنى العميقة للاتصال في ارتباطها بالسلطة، والايديولوجيا، وآليات صناعة الهيمنة. فبدل قياس التأثيرات المباشرة، سعت المقاربة النقدية إلى كشف شروط إنتاج المعنى داخل الصناعة الثقافية، وتعرية القيم المضرة التي تروجها وسائل الإعلام، ودراسة الاستلاب الرمزي الناتج عن تحوّل الاتصال إلى سلعة. وقد وُقرت هذه المقاربة رؤية ابستمولوجية مغايرة تعتبر الاتصال فضاء للصراع الرمزي، لا مجرد عملية نقل ميكانيكي للمعلومات، ما أعاد الاعتبار للبعد الفلسفي والاجتماعي في دراسة الظاهرة الاتصالية.

بين هاتين المقاربتين-الإمبريقية بأدواتها العلمية والكمية، والنقدية بعمقها الفلسفي والتحليلي-تبلورت الهوية الحديثة لعلوم الإعلام والاتصال على شكل حقل معرفي متعدد المناهج، يتراوح بين الدقة القياسية للبحث التجريبي وعمق التفكيك الفلسفي للتحليل النقدي. وهذا التعدد المنهجي لم يكن علامة على ضعف الهوية بل على ثرائها وانفتاحها، إذ سمح للباحثين بإدماج عدة مستويات للتحليل، من قياس السلوك الاتصالي إلى نقد البنى الثقافية والسياسية المشكّلة له.

ختاما يمكن القول أنّ نشأة علوم الإعلام والاتصال تشكّل في سياق تاريخي ارتبط بتنامي دور وسائل الإعلام والحاجة إلى فهم تأثيرها في المجتمع. وقد اتسمت البدايات الأولى بتوجه إمبريقي ركّز على القياس والتجربة وتحليل تأثير الرسائل الإعلامية، خاصة في ظل سياقات سياسية وعسكرية دفعت إلى توظيف الاتصال كأداة للتأثير في الرأي العام. وفي المقابل ظهرت مقاربة نقدية سعت إلى تجاوز هذا التصور الأداتي، مؤكدة أنّ الظاهرة الاتصالية لا يمكن فهمها بمعزل عن سياقاتها الاجتماعية والثقافية والايديولوجية.

لقد أفرز هذا التمايز بين الاتجاه الإمبريقي والاتجاه النقدي تعددية في طرق دراسة الاتصال، وأسهم في توسيع مجال البحث، بحيث أصبح الحقل مفتوحا أمام نماذج تفسيرية مختلفة تسعى كل منها إلى فهم الظاهرة الاتصالية من زاوية معرفية ومنهجية مميزة. ومن ثم فإنّ هذه المرحلة التأسيسية لم تنتج نموذجا واحدا مهيمنًا، بل مهّدت لظهور اتجاهات فكرية متعددة شكّلت لاحقا مرجعيات نظرية لدراسة الاتصال.

¹ - سارج برولكس، التياران النقدي والإمبريقي في بحوث ونظريات الاتصال، ترجمة عيسى شرايطية، المجلة الجزائرية للاتصال، المجلد 7، العدد 16، العمل الأصلي 1997. ص 167-168.

² - مجموعة من المؤلفين، مدرسة فرانكفورت النقدية: جدل التحرر والتواصل والاعتراف، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2012.

انطلاقاً من ذلك يصبح من الضروري الانتقال إلى دراسة المدارس الاستمولوجية التي احتضنت هذه الاتجاهات، وقدّمت نماذجها الخاصة في تحليل الظاهرة الاتصالية. وهو ما يمهد للمحور الموالي المعنون بالمدارس الاستمولوجية ونماذجها الاتصالية، قصد التعرف على الأسس المعرفية لهذه المدارس وكيف أسهمت في بناء النماذج الاتصالية وتوجيه البحث في هذا الحقل.

المحور الرابع: المدارس الاستمولوجية الكبرى ونماذجها الاتصالية

تعدّ علوم الإعلام والاتصال من أكثر الحقول العلمية تعقيداً وتشعباً، ليس فقط بسبب تنوع موضوعاتها، بل أيضاً نتيجة تعدّد الخلفيات الاستمولوجية التي أسست لها. فالنماذج الاتصالية التي نعتمدها اليوم في التحليل لم تظهر في فراغ، بل تشكّلت داخل مدارس فلسفية ومعرفية كبرى-الوضعية-النسقية-والبنائية-لكل منها منطلقاتها في فهم المجتمع، والعقل، والسلوك الاتصالي. ومن ثمّ فإنّ إدراك الأسس الاستمولوجية لهذه المدارس يتيح لنا فهماً أعمق لشكل النماذج الاتصالية التي تفرّعت عنها، ولماذا جاءت بهذا البناء النظري دون غيره.

من هذا المنطلق، يهدف هذا المحور إلى بناء نظرة تكاملية تربط بين المدارس الاستمولوجية الثلاث وبين النماذج الاتصالية التي تفرّعت عنها، في محاولة لفهم كيف تتجسّد الفلسفات الكبرى داخل آليات البحث الاتصالي، وكيف يشكّل الإطار المعرفي بنية النموذج الاتصالي ومنهجيته وأدواته. إنّ هذا الربط ضروري للطلبة والباحثين على حد سواء، لأنّه يسمح بالانتقال من مستوى الوصف إلى مستوى التفسير، ومن مستوى استعمال النماذج إلى مستوى نقدها وتطويرها.

المحاضرة العاشرة: المدرسة الوضعانية ونماذجها الاتصالية

تعدّ الوضعانية أولى الخلفيات الاستمولوجية التي سيطرت على بدايات البحث في علوم الإعلام والاتصال، وقد جاءت امتداداً للرؤية العلمية التي صاغها أوغست كونت في القرن التاسع عشر، والتي ترى بأنّ المعرفة التي تقوم على الملاحظة الدقيقة والقياس والقانون العام. هذه الروح العلمية القائمة على الحتمية والسببية والطابع الكمي ستنتقل فيما بعد إلى دراسة الظواهر الاجتماعية، ومنها الظاهرة الاتصالية، باعتبارها قابلة للقياس والضبط والتنبؤ.

أ- أوغست كونت: تقوم المدرسة الوضعانية على الإيمان بأنّ العالم الطبيعي والاجتماعي يخضع لقوانين ثابتة يمكن كشفها عبر الملاحظة التجريبية والقياس الدقيق. لقد وضع أوغست كونت الأساس الفلسفي لهذا الاتجاه من خلال دعوته إلى تأسيس علم للمجتمع يقوم على منهجية العلوم الطبيعية.

ولقد اعتبر " أوغست كونت " أنّ الفكر الإنساني مرّ بثلاث مراحل:¹

- المرحلة اللاهوتية (L'état théologique) : في هذه المرحلة يفكّر الإنسان الظواهر الطبيعية والاجتماعية بالرجوع إلى آلهة أو قوى خفية، يبحث العقل هنا عن العلل الأولى للظواهر لكنه يسوغها في صورة إرادات غيبية تحرك العالم لذلك تسود الأساطير والتفسير الديني للتاريخ والطبيعة.

- المرحلة الميتافيزيقية (L'état métaphysique) : وهنا يعني تفسير الظواهر عبر مفاهيم مجردة كالطبيعة والجوهر والقوى الخفية

المرحلة الوضعية (l'état positif) : وهي المرحلة التي يصبح فيها العقل قادراً على دراسة الظواهر اعتماداً على الوقائع لا على المعتقدات. ورأى " أوغست كونت " أنّ المعرفة العلمية يجب أن تختزل في وصف العلاقات الثابتة بين الظواهر، وأنّ التفسير العلمي لا يتجاوز الوقائع إلى البحث عن الماهيات أو الغايات، وهو ما جعل الوضعية عنده فلسفة تقوم على الحذر من التجريد والانطلاق من الخبرة المحسوسة فقط.²

جعل كونت : - المعرفة العلمية ناضجة فقط عندما تعتمد على المعطيات التجريبية والملاحظة والقياس.

- يعتقد بأنّ الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مثل الظواهر الطبيعية.

- رفض التأويل والميتافيزيقا.

¹ - نصيرة جعيداني، تطبيق القانون العلمي في دراسة الظاهرة الاجتماعية عند أوغست كونت، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد 28، ص ص 134-135-136.

² - المرجع نفسه، ص 136.

ب- "هربرت سبنسر": لقد طوّر هربرت سبنسر الوضعية نحو رؤية تطويرية شاملة تقوم على مبدأ "التطور العام"، معتبرا أنّ كل الظواهر الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية تخضع لعملية تطور تدريجي من البسيط نحو المركب، وأنّ المجتمع يشبه الكائن الحي في ترابط وظائفه وتوزع أدوار أفراد ومؤسساته. وقد ركّز سبنسر على ضرورة تحليل الوقائع الاجتماعية بطريقة موضوعية كمخرجات لقوانين طبيعية لا تختلف كثيرا عن قوانين علم الأحياء، مما جعله أحد أبرز ممثلي الوضعية الاجتماعية التطورية.¹

ج- أدولف كيتلي (Adolph Quetelet): لقد أدولف كيتلي إسهاما محوريا في إدخال المنهج الإحصائي إلى دراسة المجتمع. إذ اعتبر أنّ الظواهر الاجتماعية مثل الجريمة أو الزواج أو الولادة تخضع لأنماط عددية ثابتة تسمح للباحث بالكشف عن "الرجل المتوسط"؛ كمؤشر لنظام اجتماعي كامن خلف التنوع الفردي. وقد مثّل كيتلي جسرا بين الوضعية الفلسفية والعلوم التطبيقية عبر اقتراحه أنّ المجتمع يمكن فهمه بدقة عندما يقاس، وأنّ انتظام الأرقام يعكس انتظام القوانين الاجتماعية نفسها. أسس بذلك ما أطلق عليه الفيزياء الاجتماعية وهو ما يعكس اخضاع الظاهرة الاجتماعية في دراستها إلى المنهج الكمي.² ولقد اعتبر أنّ السلوك الإنساني يمكن دراسته عبر "الإنسان المتوسط"، أي عبر مؤشرات إحصائية قابلة للقياس. هذا التوجه سيؤسس مباشرة للمقاربات الاتصالية التي تقيس نسب الاستماع، حجم الجمهور، اتجاهات الرأي العام، وفعالية الحملات الإعلامية، وهو ما سيصبح لاحقا الدعامة الأساسية للأبحاث التجريبية في الإعلام.

أوغست كونت	جعل المجتمع موضوعا لعلم مستقل، وضع منهجا علميا لدراسته، قانون الحالات الثلاث	حول السوسيولوجيا إلى علم وضعي
هربرت سبنسر	وضع فكرة القوانين الاجتماعية التطورية، المجتمع ككائن عضوي، تفسير سيورورات التطور	ساهم في بلورة الفهم القانوني والتحليلي للبنى الاجتماعية.
أدولف كيتلي	اكتشف ثبات السلوك الاجتماعي أدخل الإحصاء، الإنسان المتوسط	أسس للاتجاه الكمي في علم الاجتماع

أولا: نموذج الرياضي-المعلوماتي "ل" ويفر وشانون:

يعدّ النموذج الرياضي - المعلوماتي الذي قدّمه "كلود شانون" و"وران ويفر" سنة 1948؛ أحد أهم اللينيات المؤسسة لعلوم الإعلام والاتصال الحديثة، لا فقط لأنّه قدّم تمثيلا تقنيا لعملية الاتصال، بل لأنّه أعاد تشكيل التفكير الاتصالي على أسس رياضية-وضعية صارمة. فقد انطلق شانون، بوصفه مهندسا في مجال الاتصالات الهاتفية، من حاجة

¹ - عائدي جمال، جرو كمال، التغير الاجتماعي ونظرياته، 2017، ص ص 71-72.

² - Kaat Loucks, Adolphe Quetelet, Journal for sociology and history of the social science, 2019, p66-67,

علمية وتقنية لتحديد الكيفية المثلى لنقل الإشارات عبر القنوات الكهربائية وهو ما قاده إلى صياغة نموذج يقوم على التحليل الكمي للمعلومة، ويعامل الاتصال باعتباره منظومة نقل تخضع لقوانين يمكن قياسها وتوقعها والتحكم في أدائها.

يقدم النموذج تصورا للاتصال يقوم على ستة عناصر مركزية: المرسل، جهاز التشفير، الرسالة، القناة، جهاز فك التشفير، المتلقي، وهو تقسيم يؤسس لبنية خطية ميكانيكية تجعل الاتصال سيرورة تنتقل فيها المعلومة من نقطة إلى أخرى بطريقة يمكن ضبطها رياضيا. ويعدّ هذا التمثيل امتدادا مباشرا لتراص الوضعانية التي ترى بأنّ الظواهر-ومنها الظواهر الاتصالية-قابلة للتحليل عبر قوانين ثابتة، إذ يتعامل شانون وويفر مع المعلومة باعتبارها كمية قابلة للقياس، ومع التشويش باعتباره متغيرا تقنيا يمكن الحدّ منه لتحقيق أكبر قدر ممكن من الكفاءة الاتصالية.¹

ومن الناحية الاستمولوجية، قدّم النموذج تصورا جديدا وجزئيا لماهية المعلومة، إذ اعتبرها احتمالا رياضيا لحدوث إشارة معينة، وليس معنى أو محتوى دلاليا بالضرورة. وهذا التحول شكّل قطيعة مع التصورات الكلاسيكية التي كانت تربط الاتصال بالفعل الاجتماعي أو التبادل الرمزي ليصبح الاتصال في هذا التصور حدثا تقنيا يخضع لعمليات الترميز، البث، وإعادة البناء. ويمثل إدراج مفهوم التشويش (Noise) ابتكارا مركزيا في هذا النموذج، لأنّه سمح بفتح مجال واسع لقياس جودة الاتصال وتقييم فعاليته، مما يعكس الطابع الهندسي الصارم للنموذج.

كما منح هذا النموذج للبحث في مجال الإطلام والاتصال إمكانية بناء لغة مفاهيمية كمية مثل (السعة، الاحتمال، الأنتروبيا)، وهي لغة نقلت الدراسة من مستوى الوصف العام إلى مستوى التحليل الدقيق القابل للقياس. وقد كان لهذا التحول أثر كبير على تطور العلوم الاتصالية اللاحقة، خاصة الدراسات التي تميل إلى الضبط، التوقع والاختبار التجريبي،² مما يفسّر مكانة النموذج الرياضي في صلب المدرسة الوضعانية.

¹ - طلال ناظم الزهيري، قراءة مفاهيمية للإعلام الجديد وفقا لنموذج شانون وويفر للاتصال، المجلة الجزائرية لبحوث الاعلام والرأي العام، المجلد، العدد 1، جوان 2023، ص 39.

² - Shannon and Weaver Model of communication, <https://www.communicationtheory.org/shannon-and-weaver-model-of-communication/>



الشكل 5: نموذج شانون وويفر

Source : <https://www.communicationtheory.org/shannon-and-weaver-model-of-communication/>

2- نموذج الاتصال على مستويين "لازارسفيلد" :

يمثل نموذج الاتصال على مستويين أحد أهم التحولات في الدراسات الاتصالية داخل التقليد الوضعي-التجريبي في منتصف القرن العشرين، فقد عمل بول لازارسفيلد بالاستناد إلى نتائج دراساته الميدانية حول سلوك الناخبين في انتخابات الولايات المتحدة خلال أربعينيات القرن الماضي على تقويض الافتراض المركزي لنموذج الابرة تحت الجلد أو الرصاصة السحرية؛ الذي كان يفترض تأثيرا مباشرا، أحادي الخط، وقويا لوسائل الإعلام على الجمهور. وبدلا من ذلك، كشف لازارسفيلد أنّ عملية التأثير الإعلامي أكثر تعقيدا، وأنّ تدفق الرسائل لا يجري مباشرة من وسائل الإعلام إلى الجمهور، بل يمر عبر وسطاء اجتماعيين قادة الرأي.¹

ينطلق لازارسفيلد من فرضية وضعية تقوم على أنّ السلوك الاتصالي قابل للقياس، وأنّ التأثير يمكن ملاحظته تجريبيا عبر تتبع مسارات انتقال الرسائل داخل الجماعة. ومن خلال هذا المنظور التجريبي، أظهر أنّ الأفراد لا يستقبلون الرسائل الإعلامية بمعزل عن محيطهم الاجتماعي؛ بل يتفاعلون معها ضمن شبكة من العلاقات بين فاعلين يختلفون في موقعهم وتأثيرهم. وهكذا تتراجع مركزية الوسيلة لصالح مركزية الدور الاجتماعي، حيص يصبح قائد الرأي حلقة أساسية تعيد إنتاج الرسالة الإعلامية داخل محيطه وفق فهمه، قناعاته، ومكانته الرمزية داخل الجماعة.

يتشكّل النموذج إذن من مستويين أساسيين في تدفق الاتصال:²

¹-Robert Boure, Paul Lazarsfeld (1901-1976)M sociologue des medias, 15-12-2021, <https://sms.hypotheses.org/19820> .

²- Michael Buhler, Schémas d'études et modèles de communication, 1974, https://www.persee.fr/doc/colan_0336-1500_1974_num_24_1_4152 .

-**المستوى الأول:** انتقال الرسالة من الوسيلة الإعلامية إلى قادة الرأي؛ وهم فئة أكثر تعرضا للوسائط، أكثر اهتماما بالشأن العام، وأكثر قدرة على تفسير المحتوى واستيعابه.

-**المستوى الثاني:** انتقال الرسالة من قادة الرأي إلى الجمهور الأوسع عبر التفاعل المباشر، الحوار اليومي، التأثير الشخصي، والضبط الاجتماعي داخل الجماعة.

هذا التوسيط الاجتماعي في عملية التأثير يبرز حقيقة أنّ الفعل الاتصالي ليس مجرد استجابة آلية تحدثها الرسالة، بل عملية وساطة تتحدد فيها معاني الرسائل وفق العلاقات الاجتماعية. فالتأثير لا يحدث فقط لأنّ الرسالة قوية، بل لأنّ معاد صياغتها من طرف فاعل يحظى بالثقة، ويحتل موقعا معتبرا الشبكة الاجتماعية.

يعيد كذلك هذا النموذج الاعتبار للمستوى الميكرو-السوسيولوجي في تحليل الاتصال، حيث تنتقل نقطة الاهتمام من الرسائل نفسها إلى القنوات غير الرسمية، والتفاعلات اليومية، وأنماط الانتماء الطبقي والثقافي. ومن هنا يعدّ نموذج الاتصال على مستويين ثورة منهجية في الدرس التجريبي الوضعي لأنّه نقل التحليل من "وسائل الإعلام تفعل بالجمهور" إلى "الأفراج يتأثرون ببعضهم في ضوء وسائل الإعلام"¹.

يدرج نموذج الاتصال على مستويين ضمن النماذج الوضعانية في علوم الاعلام والاتصال لأنّه يستند إلى نفس المبادئ الاستمولوجية التي تقوم عليها الوضعانية الكلاسيكية، خاصة الإيمان بإمكانية عزل المتغيرات ودراسة العلاقة بينها بطريقة سببية-تجريبية فقد تعامل لازارسفيلد مع عملية التأثير الإعلامي بوصفها ظاهرة قابلة للقياس، يمكن تحديد مسارها عبر مراحل محددة: من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي، ثم من قادة الرأي إلى الجمهور وهذا المنطق يفترض وجود آليات تأثير خطية ومنظمة تشبه القوانين الاجتماعية التي تحدث عنها الوضعانيون مثل كونت وسبنسر وكيثلي

كما اعتمد لازارسفيلد على الاستقصاء الكمي، والتحليل الإحصائي، ودراسة الاتجاهات، وهي أدوات وضعانية تعطي الأولوية للمعطيات التجريبية القابلة للتحقق إضافة إلى ذلك، يقوم النموذج على فكرة أنّ التأثير الإعلامي يمكن اختباره، توقعه، وضبطه، ما ينسجم مع الروح الوضعانية التي ترى يمكن إخضاعها لنفس مناهج الضبط والقياس دون الخوض في التأويلات الذاتية.

في ختام المحاضرة، يتضح من خلال عرض الخلفية الفلسفية للمدرسة الوضعانية أنّها انطلقت من تصور يقوم على أولوية الملاحظة والقياس والسعي إلى تفسير الظواهر وفق علاقات سببية قابلة للاختبار. وقد انعكس هذا التصور على دراسة الظاهرة الاتصالية، حيث تم النظر إلى الاتصال بوصفه عملية خطية يمكن تحليل عناصرها وقياس تأثيراتها، مع التركيز على الرسالة ووسيلة النقل واستجابة المتلقي. وفي هذا الإطار مثّل نموذج شانون وويفر تصورا تقنيا للاتصال ركّز على نقل

¹- Robert Boure, Op,Cit,

المعلومات وتقليص التشويش، بينما قدّم لازارسفيلد نموذجاً تجريبياً اهتم بقياس التأثيرات الإعلامية داخل الواقع الاجتماعي، مبرزاً دور الوسائط الاجتماعية وقادة الرأي في توجيه الاستجابة.

تكشف هذه النماذج عن الطابع المشترك للمدرسة الوضعية، والمتمثل في اعتماد المقاربة الكمية، والسعي إلى تفسير الظاهرة الاتصالية وفق علاقات قابلة للملاحظة والقياس، مع التركيز على التأثير ونتائج الاتصال. وقد أسهمت هذه المقاربة في إرساء البدايات العلمية لدراسة الإعلام والاتصال، ومنحت الحقل أدوات منهجية واضحة للتحليل التجريبي.

غير أنّ هذا التصور رغم أهميته التأسيسية، ظلّ محدوداً في قدرته على فهم الأبعاد الرمزية والتفاعلية للاتصال، الأمر الذي فتح المجال لظهور مقاربات أخرى سعت إلى تجاوز الطابع الخطي والميكانيكي للعملية الاتصالية. ومن هنا تمهّد دراسة المدرسة الوضعية للانتقال إلى مدارس إبستمولوجية أخرى قدّمت نماذج مختلفة لفهم الاتصال، تقوم على التفاعل وبناء المعنى، وتعيد النظر في دور السياق الاجتماعي والثقافي في العملية الاتصالية.

المحاضرة الحادي عشر: المدرسة النسقية ونماذجها الاتصالية

تعدّ المدرسة النسقية امتدادا معرفيا لتحولات الفكر العلمي في منتصف القرن العشرين، حيث انتقل التركيز من دراسة الظواهر في شكل عناصر منفصلة إلى النظر إليها باعتبارها أنساقا مترابطة يحكمها التفاعل، والتغذية الراجعة، الديناميات الداخلية. هذا التحول جسّد قطيعة مع التحليل الخطي، وفتح المجال أمام مقارنة شمولية تتعامل مع الظاهرة الإنسانية والاجتماعية باعتبارها شبكة علاقات.

لقد قدّم "لودفيغ فون برتالانفي" (L, Von Bertalanffy)، الأسس الأولى للنظرية العامة للأنظمة، والتي تقوم على فكرة أنّ كل كيان، اجتماعيا كان أو بيولوجيا، أو تواصليا، هو نظام يتفاعل داخليا ويؤثر ويتأثر ببيئته. وهكذا لم يعد التحليل العلمي يقف عند حدود العناصر المعزولة، بل صار يركز على العلاقات، التفاعل، البنية، الوظائف، والدينامية الداخلية للنظام. مما يعني أنّ أي تغيير في عنصر من عناصر النظام يحدث تغييرا في بقية العناصر.

مع تزايد تعقّد المجتمعات الحديثة، اتضح أنّ الظواهر الاتصالية ليست عمليات خطية من مرسل إلى متلق، بل هي شبكات مستمرة من التأثيرات التبادلية، وأنّ الاتصال لا ينفصل عن السياق الثقافي والنفسي والسلوكي للأفراد والجماعات. لذلك احتضنت المدرسة النسقية التحليل التفاعلي للاتصال باعتباره عملية دائرية متعددة القنوات لا تخضع لمنطق السببية المباشرة، وإنما لمنطق "التنظيم الذاتي" و"فعل النظام على أجزائه".

وفي هذا الإطار برزت مدرسة بالو ألتو في الولايات المتحدة الأمريكية، التي شكّلت بفضل أعمال "غريغوري باتسون" (Bateson) و"بول فاتزلافيك" (Watzlawick) وغيرهم، النواة العملية للنظرية النسقية في الاتصال. وقد أكّدت هذه المدرسة أنّ الاتصال ليس مجرد نقل للرسائل، بل هو سلوك اجتماعي شامل يحدث بين الأفراد سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوا، وأنّ العلاقات بين أفراد الجماعة تبنى وتتشكل عبر أنماك تواصلية دورية تشبه في انسجامها "الأوركسترا" التي يساهم كل عازف فيها بدوره ضمن وحدة كلية أكبر.

بهذا المعنى، لم تعد وظيفة الباحث أن يتتبع الرسالة وتأثيرها المباشر فحسب، بل أن يفهم المنظومة الاتصالية ككل: قواعدها، تفاعلاتها، اختلالاتها، وسياقاتها. لذلك غيّر المنظور النسقي موقع الاتصال من كونه نشاطا تقنيا إل كونه بنية تفاعلية معقدة لا ينفصل فيها السلوك الاتصالي عن العلاقات الاجتماعية. وهذا التحول جعله من أكثر المقاربات قدرة على تفسير الظواهر الاتصالية الحديثة، خاصة في ظل المجتمعات الشبكية وتعدد وسائط التفاعل.

أ-المبادئ الأساسية للمقاربة النسقية: تقوم المدرسة النسقية على أربعة مبادئ رئيسية تتمثل فيما يلي:¹

¹ - محمد رضا العيفة، اسهامات المقاربة النسقية في تطور الدراسات الاتصالية: رؤية استمولوجية ونظرية، مجلة الرسالة للدراسات الاعلامية، المجلد 7، العدد 4، فيفري 2024، ص 26.

-**التفاعل:** التفاعل ينطوي على عمل مزدوج من أ إلى ب ومن ب إلى أ، والتغذية الراجعة شكلا من أشكال التفاعل.

-**الكلية:** أي نسق بشكل عام يتكون من مجموعة من العناصر، والكلية لا تعني النظر للعناصر وتجميعها بشكل بسيط بل تعني التركيز على العلاقة والتفاعل بين هذه العناصر المكونة للنسق والتي تمثل بدورها انساقا فرعية.

-**التنظيم:** يمكن اعتبار المفهوم المركزي للنسقية، التنظيم هو ترتيب العلاقات بين العناصر أو الأفراد التي تنتج وحدات جديدة تملك صفات ليست من مكوناتها.

-**التعقيد:** التعقيد موجود في كل الأنساق ومن الضروري أخذه بعين الاعتبار.

ب-**ظهور السيبرنيطيقا (Cybernetics):** يعدّ ظهور السيبرنيطيقا مع "نوبرت وينر" (Robert Wiener) سنة 1948 نقطة مفصلية في الفكر العلمي. فقد صاغ "وينر" مفهوم "التحكم والاتصال في الحيوان والآلة"، معتبرا أنّ الأنظمة بيولوجية كانت أو تقنية أو اجتماعية تعمل وفق منطق الضبط الذاتي وإعادة المعلومات إلى داخل النظام لضمان التوازن.¹

وقدّمت السيبرنيطيقا ثلاثة مفاهيم مركزية² ستصبح لاحقا أساسية في المدرسة النسقية:

-**التغذية الراجعة:** كل رسالة تعود لتؤثر على المرسل فيحدث تعديل سلوك الاتصال

-**الديناميكية:** ليست العلاقات ثابتة بل تتحرك باستمرار

-**الضبط الذاتي (self-régulation):** الأنظمة تعدّل نفسها بناء على المعلومات المتدفقة داخلها.

هذه الأفكار أسست لانتقال علوم الاتصال من "نموذج النقل" نحو "نموذج التفاعل" فما قدّمته السيبرنيطيقا فتح الطريق لاستعمال النماذج الرياضية والحيوية لفهم نظم التواصل داخل الأسرة، المؤسسة، الجماعة، والمجتمع. حيث بدأت العلوم الاجتماعية تتبنى فكرة أنّ التواصل ليس مجرد رسالة تنتقل، بل سلوك يتحدد ضمن شبكة من العلاقات الديناميكية. وهكذا أصبحت تحلل الظاهرة الاتصالية كمجموع من: التفاعلات، الرموز، الأدوار، قواعد السلوك، أنماط الضبط والاتزان.

هذا التوجه هو الذي سمح فيما بعد بظهور مدرسة بالو ألتو التي ستقترح واحدة من أهم المقاربات النسقية في تاريخ الاتصال.

¹-Norbert Wiener, **Cybernetics: or control and communication in the Animal and the Machine**, the MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, 1948, p65.

²-Ibid. p p 85-159.

ج-مدرسة بالو ألتو: شهد منتصف القرن العشرين تحولاً نوعياً في دراسة الظاهرة الاتصالية، إذ انتقل الاهتمام من التركيز على الرسالة والخطية والسببية إلى النظر في النسق التفاعلي الذي يضم الأفراد وعلاقاتهم وسياقات تواصلهم. هذا التحول لم يكن وليد الصدفة، بل جاء نتيجة تراكمات ابستمولوجية وعلمية، أبرزها بروز السيبرنطيقا كما أشرنا سابقاً التي أسست لفكرة أنّ كل نظام -سواء كان آلة، كائناً حياً أو مجموعة بشرية- يشتغل وفق آليات الاسترجاع (Feedback)، التعديل الذاتي، والتوازن الدينامي، وهي مبادئ ستصبح لاحقاً قاعدة الرؤية النسقية للاتصال.

ضمن هذا المناخ الفكري نشأت مدرسة بالو ألتو في الولايات المتحدة الأمريكية، تحديداً في منطقة كاليفورنيا، في مركز الأبحاث الشهيرة Mental Research Institute. ضمت المدرسة مجموعة من الباحثين الذين جمعوا بين الانتروبولوجيا، علم النفس، التحليل النفسي، السوسيولوجيا، واللسانيات، ما جعلها فضاء تفاعلياً متعدد الاختصاصات. من أبرز المؤسسين نجد: (غريغوري باتيسون Gregory Bateson) وهو الأب الفكري للمدرسة، درس الأنظمة البيولوجية وقدم مفهوم "الحلقة الاتصالية" و"التغذية الراجعة".¹

-بول فاتسلافك (Paul Watzlawick) وهو من أهم من صاغ أفكار المدرسة في اتجاه نظري متكامل، خاصة في كتابه (pragmatics of Human Communication)

-دون جاكسون (Don Jackson) أسس مقارنة العلاج الأسري، وأدخل المدرسة إلى الحقل العيادي.

كما قدم كل من (Jay Haley) و (John Weakland) في العلاج الموجه استراتيجياً.

شكل هؤلاء العلماء مجموعة بحثية متعددة الاختصاصات أعادت تعريف الاتصال "كعلم للعلاقات الإنسانية"، بعيداً عن النماذج الخطية التقليدية التي سادت في المدرسة الوضعية.

لقد شكّلت أبحاث باتسون حول التعلّم، اللّعب، والسياقات الرمزية نقطة انطلاق لما سيعرف لاحقاً بعلم النفس الإدراكي-التفاعلي إذ ربط باتسون بين السلوك الإنساني وبين أنظمة الإدراك وصناعة المعنى ضمن الجماعة؛ فالفرد لا يدرك الواقع كما هو، بل عبر شبكة من الرموز والإشارات التي تبني داخل التفاعل. هذا التصور انتشر لاحقاً إلى مجالات أوسع مثل العلاج الأسري النسقي، حيث أصبح الاتصال ليس مجرد وسيلة، بل البنية التي يتشكّل عبرها الإدراك والمشاكل والصراعات.²

¹ - عابدة حدّار، نظريات الاتصال من مفهومه العام إلى مدرسة بالو ألتو، مجلة مؤشر للدراسات الاستطلاعية، المجلد 3، العدد 10، ص 132-131.

² - محمد رضا العيفة، مرجع سابق الذكر، ص 21.

انطلاقاً من هذا أسس، قدّمت مدرسة بالو ألتو جملة من المبادئ الاتصالية التي أثّرت بعمق في علم الاتصال المعاصر والتي تتمثل فيما يلي:¹

أ- **استحالة عدم التواصل:** حتى الصمت هو شكل من أشكال التواصل فهو يحمل قيمة تواصلية، لأنّ الآخرين يؤولون السلوك مهما بدا محايداً.

ب- **التمييز بين مستوى المحتوى ومستوى العلاقة:** ترى المدرسة أنّ رسالة تحمل:

- محتوى معرفياً (الموضوع)

- ومستوى علائقياً يحدد طبيعة العلاقة: سلطة، تعاون، توتر، خضوع..

ج- **الاتصال كعملية دائرية وليست خطية:** بخلاف النماذج الوضعانية مثل **شانون وويفر** التي تعتمد اتجاهها واحداً "إرسال-استقبال"، تعتمد مدرسة بالو ألتو على الحلقات التفاعلية. بحيث لا يوجد مرسل ومستقبل بالمعنى التقليدي، بل أطراف تتبادل الرسائل باستمرار وبشكل دائري، بحيث يصبح كل طرف "مفسّراً" ومعدّلاً للسلوك.

د- **الأنماط التفاعلية:** ترى المدرسة أنّ العلاقات الإنسانية تنتظم داخل أنماط مثل:

- التماثل والتكامل، والسيطرة مقابل الخضوع، التعاون مقابل التوتر.

وتدرس العلاقات من خلال التسلسل التفاعلي وليس ممن خلال عزو السبب لطرف واحد.

هـ- **الاتصال كتشبيك ذاتي، للنسق الاجتماعي:** تتأثر المدرسة بنظرية الأنظمة cybernetics التي ترى أنّ أي نسق قادر على تصحيح نفسه عبر التغذية الراجعة، ولهذا أصبح الاتصال يفهم بوصفه آلية تنظيم للنسق الاجتماعي، وليس مجرد تبادل للرسائل.

و- **التواصل اللفظي وغير اللفظي:** أعطت المدرسة أهمية كبرى للإشارات غير اللفظية: لغة الجسد، الإيماءات نبرة الصوت، المسافة بين الأفراد.

بهذه المنظومة الفكرية أصبحت مدرسة بالو ألتو جزءاً من المدرسة النسقية لأنّها تتعامل مع الاتصال باعتباره دينامية مفتوحة تفهم داخل كليتها، وليس كعملية خطية ذات اتجاه واحد، وبذلك مهّد الطريق للنماذج النسقية في الاتصال التي سننتقل إليها لاحقاً.

¹ - هالة دغمان، المقاربة النسقية وتفسير الظاهرة الاتصالية: قراءة نظرية مفاهيمية، مجلة المدونة، المجلد 11، العدد 1، دوان 2024، ص ص 488-489-490.

ثانيا: النماذج الاتصالية النسقية

1-الاتصال الأوركستري (la communication orchestrale) :

يمثل الاتصال الأوركستري أحد أهم التحولات التي جاءت بها المدرسة النسقية، خاصة بعد نضج أفكار مدرسة بالو ألتو. يقوم هذا النموذج على تشبيه جماعة التواصل بالأوركسترا، أي أنّ التواصل ليس عملية خطية تبدأ من مرسل وتنتهي بمستقبل، بل هو نسيج متزامن من الأفعال الرمزية التي يقوم بها جميع الافراد في آن واحد، تماما كما يعزف كل عضو في الأوركسترا دوره ضمن اللحن العام.

تؤكد المقاربة الأوركسترية أنّ الاتصال لا يختزل في تبادل الرسائل، بل في تناغم الأدوار، والإيقاع المشترك، والاعتماد بين السلوكيات اللفظية وغير اللفظية. وهكذا يصبح كل فرد جزءا من عملية خلق المعنى، وليس متلقيا سلبيا.

تبرز هذه المقاربة كذلك أنّ المعنى هو حصيلة جماعية، تتكون داخل النسق التواصلية بمجمله، وليس داخل عقل فرد منفصل، لذلك تقوّض النماذج الوضعية وتستبدلها برؤية ديناميكية متعددة الأصوات، تفسّر الظواهر الاتصالية كشبكة من التفاعلات المتزامنة والمتداخلة.

2-النموذج التبادلي (le modèle transactionnel)

يمثل النموذج التبادلي البعد المركزي في التفكير النسقي لأنّه ينظر إلى الاتصال كعملية تعاقدية-تداولية-متبادلة، حيث يؤثر كل طرف في الآخر باستمرار. في هذا النموذج، لا وجود لمفاهيم "مرسل" ومتلق بالمعنى التقليدي، بل مشاركون في فعل تواصل واحد يشتركون في إنتاج الرسالة وتحديد معناها.

يؤكد (Watzlawick) في تحليله النسقي الخاص بالقاعدة المتعلقة بلعب الأدوار والنسق التكراري، ويضيف (Mucchielli)، أنّ هذا النموذج من التحليل يحيل على السيكلوجيا التعاقدية، وذلك بملاحظة التواصل انطلاقا من مستويات مختلفة، وهي مستوى معياري (العائلي)، مستوى عقلائي الراشد، مستوى عاطفي¹.

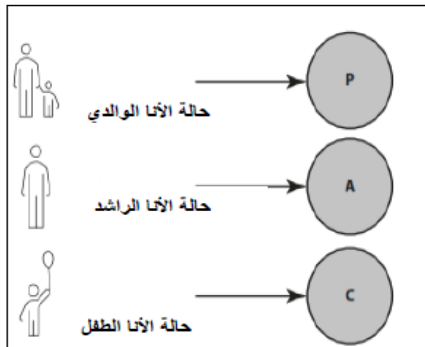
يوضح هذا النموذج كيف أنّه في سيرورة التواصل توجد تعاقدات واضحة ومقبولة اجتماعيا، وأيضا تعاقدات خفية مرتبطة بالدوافع الفردية العميقة.

¹ - هالة دغمان، مرجع سابق الذكر، ص 486.

يعدّ النموذج التبادلي أحد أهم النماذج الاتصالية ذات الخلفية النسقية، وقد اكتسب خصوصيته من استيعابه لأطروحات التحليل التفاعلي التي قدّمها عالم النفس الكندي إريك بيرن¹ في ستينات القرن الماضي. ينطلق هذا النموذج من فرضية مركزية مفادها أنّ الاتصال ليس مجرد تبادل رسائل، بل "حالات الأنا" داخل كل فرد، وقد ميّز "بيرن" بين ثلاث حالات تنتج أنماطا مختلفة من التفاعل الاتصالي²:

الأنا الوالدية التي تعكس نظام القيم والأوامر والتوجيهات المتعلّمة، والأنا الراشدة التي تمثل منطقة القرار العقلاني المبني على المعطيات، والأنا الطفولية التي تتجسد فيها الانفعالات والرغبات والعفوية.

من هذا المنظور، يرى النموذج التبادلي أنّ نجاح العملية الاتصالية أو فشلها يتحدد عبر نوعية التبادلات بين المتفاعلين بمعنى؛ هل هي تبادلات تكاملية (متوافقة بين حالات الأنا لدى الطرفين)، أم متقاطعة (تداخل غير منسجم يؤدي إلى سوء الفهم)، أم خفية (تتضمن رسائل مزدوجة على مستويين مختلفين)، وبالتالي، يتحول الاتصال في هذا النموذج إلى بنية تفاعلية ديناميكية، يمكن من خلالها فهم الاضطرابات، سوء التفاهم، والصراعات، عبر تحليل مستوى الأنا الذي يحرك ظل طرف. وبهذا يرسخ النموذج التبادلي منظورا نسقيا-نفسانيا للاتصال، يسمح بفهم العلاقات داخل الأسرة، وبيئة العمل، والتنظيمات بوصفها فضاءات تتشكل فيها أنماط متكررة من التبادلات يمكن تفسيرها علميا وضبطها بآليات علاجية أو تنظيمية.



الشكل 6: يوضح حالات الأنا

المرجع: إيمان بن غانم، ص 148

3- النموذج السوسيومتري:

يمثل الاتصال السوسيومتري أحد الإسهامات النظرية والعملية البارزة في علم الاجتماع العلاجي وعلم النفس الجماعات، وقد أسّسه جاكوب ليفي مورينو (J.L. Morino) الطبيب النفسي والمنظر الاجتماعي الذي قدّم مفهوما جديدا للتفاعلات بين الأفراد داخل الجماعات، حيث يقوم على قياس الروابط الوجدانية والاختبارات الاجتماعية بطريقة

¹ - إيمان بن غانم، نظرية التحليل التفاعلي، أسسها النظرية مبادئها الأساسية وتطبيقاتها العلاجية، مجلة الروائر، المجلد 9، العدد 1، 2025، ص 143.

² - المرجع نفسه، ص 147.

علمية.¹ ويعدّ هذا النموذج من أوائل المحاولات التي دججت بين الاتصال والقياس الكمي للعلاقات الاجتماعية، مما وضع أسسا لما سيعرف بعلو السوسيومترية.

استند مورينو إلى خبرته في العلاج الجماعي ليطور فكرة رئيسية:

كل تواصل داخل جماعة يحمل بعدا عاطفيا يحدد مسار التفاعل ونتائجه، فالفرد لا يتواصل بمعزل عن الحقل الاجتماعي الذي يتواجد فيه، بل يتحرك داخل شبكة من الروابط؛ التي قد تكون إيجابية (اختيار، تقبل) أو سلبية (رفض، انسحاب). ومن هنا ظهرت السوسيومترية باعتبارها منهجا لقياس البنية الباطنية للعلاقات داخل الجماعات.

يعتبر **مورينو** أنّ الاتصال ليس عملية خطية، بل هو نسقية معقدة يعاد فيها تشكيل المواقع الاجتماعية باستمرار. ولأجل ذلك ابتكر "اختبار السوسيومترية"، حيث يسأل كل فرد في جماعة ما عن الأشخاص الذين يفضل العمل معهم أو تجنبهم. تحوّل هذه المعطيات إلى رسم بياني يسمى "سوسيوغرام" sociogram، يظهر فيه كل فرد كنقطة وكل علاقة كخط يصل بين النقاط. يمكن هذا التصور من فهم البنية الحقيقية للسلطة، والتأثير والجاذبية والنبد داخل الجماعات، بعيدا عن الخطابات السمية أو البنى الشكلية.

يتم النظر في النموذج السوسيومترية إلى الاتصال باعتباره حركة داخل شبكة لا يمكن فصلها عن مواقع الفاعلين. فالرسالة لا تفسّر فقط بما تحمله من محتوى، بل بكيفية موقع المرسل والمتلقي داخل الشبكة، فالشخص الواقع في مركز الشبكة يتمتع بقدرة تأثير أكبر بينما الشخص الطرفي محدود التأثير.

هذه الرؤية تجعل الاتصال نتيجة لنسق العلاقات وليس لمهارة فردية أو لآلية تقنية كما في النماذج الوضعية.

يرمي نموذج مورينو إلى:²

- تحليل العلاقات الخفية التي تتحكم في تدفق الاتصال
- كشف مصادر التوتر أو الانسجام الاتصالي داخل الجماعة
- فهم القيادة غير الرسمية داخل المجموعات الصغيرة
- تفسير سبب اختيار الأفراد لبعضهم في الاتصال ورفض الآخرين.

¹ - كريمة بن صغير، القياس السوسيومترية: الأساس النظري وبعض المبادئ التطبيقية، مجلة حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلد 12، العدد 1، ص12.

² - المرجع نفسه، ص126-127.

ينظر الاتصال السوسيوامتري إلى الاتصال كنسيج اجتماعي انفعالي يتكون من مشاعر القبول والرفض والجاذبية والاعتراف. ومن هنا ارتبط هذا النموذج بالسياق النسقي المعاصر، إذ يظهر أنّ الاتصال لا يفهم إلاّ داخل منظومة العلاقات، وأنّ تغيير موقع فرد واحد يؤدّي إلى إعادة ترتيب الشبكة كاملة.

4- النموذج التفاعلي :

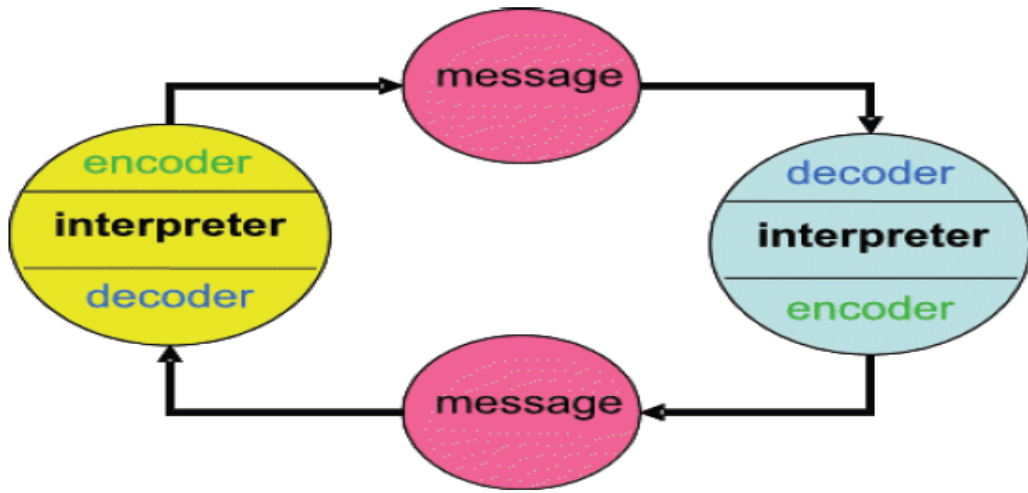
يمثل نموذج شرام و"ماكلين" أحد أهم التحولات في تاريخ نظريات الاتصال، حيث انتقل بالتصور الاتصالي من الرؤية الخطية التقليدية إلى رؤية تفاعلية دائرية تقوم على المشاركة المتبادلة في إنتاج المعنى. فهذا النموذج لا يكتفي بوصف عملية انتقال رسالة من مرسل إلى متلقي، بل يؤكد أنّ الاتصال عملية اشتراك في الرموز والخبرات، وأنّ المعنى لا يعبر جاهزا داخل الرسالة، بل يبني من خلال التأويل المشترك بين أطراف التفاعل.

يستند هذا النموذج إلى خلفية إبستمولوجية نسقية بالأساس؛ حيث ينظر إلى الاتصال بوصفه نظاما ديناميكيا تتفاعل داخله مكونات متعدّدة: السياق، الخبرة السابقة، رموز اللغة، العلاقات الاجتماعية، والبيئة الثقافية. ومن هنا يرى شرام أنّ كل فرد يمتلك حقل خبرة خاصا به، يلتقي جزئيا مع حقل خبرة الآخر، وهذا التقاطع زادت احتمالات سوء الفهم أو التشوّه التأويلي.

كما يركّز النموذج على التغذية الراجعة بوصفها عنصرا بنويا لا مجرد مرحلة إضافية، فالاتصال الحقيقي لا يتحقق إلاّ حين يتفاعل المتلقي ويساهم في إعادة تشكيل الرسالة، وهو ما يجعل العملية الاتصالية حلقة مستمرة تتطور باستمرار. وقد عزّز ماكلين لاحقا هذا التصور بإدماج بعدين أساسيين؛ السياق الاجتماعي الأوسع، وتأثير الوسيط الإعلامي ذاته في إنتاج المعنى، ليصبح الاتصال عملية تفاعلية متعددة المستويات، وليتجاوز البعد الفردي إلى قراءة الظاهرة الاتصالية في إطارها الاجتماعي-الثقافي.¹

إنّ أهمية نموذج شرام وماكلين تكمن في كونه أعاد الاعتبار للمتلقي بوصفه فاعلا مشاركا في المعنى لا مجرد مستقبل سلبي، وفتح الباب أمام نشوء نماذج نسقية أكثر تطورا في علوم الإعلام والاتصال، خاصة تلك التي ترى الاتصال كعملية تفاوض رمزي تجمع بين الذهن الفردي والبنى الاجتماعية والثقافية التي تعبّر من خلالها الرسالة.

¹-Le modèle de communication de Schramm
, avril 2025, <https://www.managementstudyguide.com/fr/schramm-model-of-communication.htm>.



الشكل 7: يوضح نموذج شرام¹:

بالإضافة إلى "ماكلين" و "شرام" ساهم (جون كلوتيه)؛ في صياغة أحد أكثر النماذج النسقية تعبيراً عن طبيعة الاتصال بوصفه ظاهرة مرئية في جزء صغير منها، وخفية في أغلبها. فقد استعان كلوتيه باستعارة التل الجليدي (**modèle de l'iceberg**) ليؤكد أنّ ما يظهر على السطح من الرسائل اللفظية والمحتوى الظاهر لا يعكس إلاّ نسبة محدودة جداً من العملية الاتصالية، بينما الجزء الأكبر يظل غائراً تحت الماء، يتشكّل من عوامل نفسية وثقافية وسياقية لا يدركها الطرفان إدراكاً مباشراً².

يقوم النموذج على ثلاث طبقات أساسية:

- 1- الجزء الظاهر فوق السطح **la partie émergée** ويمثل الرسائل المباشرة: الكلمات، اللغة، المضمون اللفظي، وهو الجزء الذي يبدو في المتناول لكنه لا يكشف شيئاً عن النوايا العميقة أو منظومة القيم.
- 2- منطقة الاتصال غير اللفظي: **la partie non verbal** تشمل الإشارات، لغة الجسد، الإيماءات، نبرة الصوت، وتعدّ الوسيط الحاسم في تفسير الرسالة وتحديد مقاصدها الحقيقية.

¹Schramm communication Model, <https://portal.raisethebar.co.uk/wp-content/uploads/2021/07/Schramm-Communication-Model.pdf>

²- Modele de l'iceberg :comment communiquons-nous en tant qu'individus, <https://www.weka.ch/themes/competences-personnelles/gestion-de-soi/gestion-de-soi/article/modele-de-liceberg-comment-communicons-nous-en-tant-quindividus/>

3- الجزء العميق تحت السطح **la partie immergée** : وهو الأهم ويتضمن المعتقدات، القيم، الخلفيات الثقافية، النموذج الإدراكي للفرد، تمثلاته، والصور الذهنية التي يحملها عن ذاته والآخر. هذا المستوى العميق هو الذي يحدد فعليا نجاح أو فشل عملية الاتصال.

مكّن هذا النموذج من فهم الطابع المعقّد للتفاعل الإنساني خاصة حين يقرأ عبر مقارنة نسقية ترى أنّ الاتصال لا يحدث فقط عبر "ما نقول" بل "من نكون" و"ما نحمله معنا من ذهنية ولا شعورية". لذلك أصبح نموذج التل الجليدي مرجعا مركزيا في تحليل الاتصال بين الثقافات، وفي دراسة التفاعل داخل المنظمات، وفي التحليل السيكلوجي للتواصل داخل الأسرة أو المجموعات.

وتكمن قيمة النموذج في كونه قدّم تصورا متقدّما للاتصال باعتباره عمقا رمزيا يتجاوز حدود اللغة، وأداة لفهم التعقيد الخفي الذي يتحكم في العلاقات الإنسانية، وبهذا المعنى فهو يندرج ضمن النماذج النسقية التي ترى الاتصال ناتجا عن شبكة من العوامل المتداخلة التي لا يمكن اختزالها في رسائل مباشرة أو مؤشرات ظاهرية.

5- النموذج الدرامي ل"غوفمان":

يعدّ النموذج الدرامي أحد أهم المقاربات النسقية في تحليل الظاهرة الاتصالية، حيث ينقل عملية الاتصال من كونها مجرد تبادل خطي للرسائل إلى كونها مسرحا اجتماعيا تمارس فيه الأدوار وتتفاعل فيه الهويات والسياقات. يقوم هذا النموذج على الفكرة الجوهرية القائلة بأنّ الاتصال لا يفهم خارج دينامية التمثيل الاجتماعي، وأنّ كل تواصل يحمل ففي داخله بعدا مسرحيا يتجسّد في الأداء والإخراج والسيناريو والجمهور، والفضاء.

يستند هذا النموذج إلى الخلفية التي وفّرتها سوسيولوجيا "إرفنغ غوفمان"، خاصة في كتابه عرض الذات في الحياة اليومية، التي اعتبرت أنّ الحياة الاجتماعية تشبه المسرح، وأنّ الأفراد يمارسون باستمرار إدارة الانطباعات في تفاعلاتهم اليومية. حيث يرى غوفمان أنّ كل فرد يؤدّي دورا محددا وفق سياق التفاعل، وأنّ هذا الأداء يخضع لقواعد دقيقة تحدد كيفية ظهور الذات أمام الآخرين.¹

ومن خلال هذا التصور يصبح الاتصال ممارسة درامية يتفاوض فيها الأفراد حول هوياتهم، ويضبطون من خلالها كيفية إدراك الآخرين لهم.

في إطار النموذج الدرامي، يتحول مفهوم "المرسل" و"المتلقي" التقليدي إلى مؤدّين يقوم كل منهم بدور اجتماعي محدد يخضع لتوقعات مشتركة، فكل وضعية اتصالية تحمل معها سيناريو يحدد من يتكلم، وكيف يتكلم، ومتى يصمت، وما

¹ -علي أسعد وطفة، دراميات التفاعل الرمزي في نظرية إرفنغ غوفمان: المدخل الدرامي لفهم السلوك البشري، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، يونيو 2023، <https://tanwair.com/archives/17223>

ينتظر أن يقوله الآخرون. ولا يعدّ "الدور" مجرد موقع اجتماعي، بل هو أداء يتغير تبعاً للجمهور، والسياق، والمكان. وهنا يبرز عنصر "الكواليس" الذي يفصل بين ما يقدم للجمهور وما يظل مخفياً في بنية التفاعل.

يحوّل النموذج الدرامي فضاء الاتصال إلى خشبة مسرح تشمل¹:

-**الجمهور**: كل من يشاهد المشهد الاتصالي أو يراقبه أو يقوّمه.

-**الواجهة**: وهي الصورة التي يقدمها المتكلم عن نفسه، وتشبه الديكور المسرحي الذي يبنى الانطباع الأول.

-**الكواليس**: حيث تتم صياغة المعاني والتحضير للأداء، وهي جزء مهم في فهم الاتصال لكنه غير مرئي.

هذا التصور يفتح المجال لفهم كيف يختلف خطاب الفرد حسب الجمهور القريب، أو الافتراضي، أو الرسمي، أو غير الرسمي. يركز النموذج الدرامي على التفاوض الاتصالي بوصفه عملية مستمرة للحفاظ على الانسجام في المشهد التفاعلي. إذ يعمل كل طرف على ضبط أدائه ليتوافق مع توقعات الآخرين، ويتجنب "الإخفاق الدرامي" مثل سوء الفهم، أو فقدان السيطرة، أو ظهور صورة غير مرغوبة. وينظر إلى الانطباعات التي يبنّيها كل طرف على أنّها جزء من العملية الاتصالية، وليست مجرد نتيجة لاحقة، وبالتالي يصبح الاتصال ساحة لعرض الذات، وإدارة الرموز، والتحكم بالإيحاءات². يدرج النموذج الدرامي ضمن المدرسة النسقية لأنّه ينظر إلى الاتصال بوصفه نظاماً متكاملًا تتحكم فيه العلاقات، والأدوار، والأعراف، والبنىات، وليس مجرد انتقال خطي للرسائل. فهو يركز على العلاقة أكثر من الرسالة، وعلى الوظيفة الاجتماعية أكثر من المحتوى، مما يجعله امتداداً طبيعياً للمقاربات التبادلية، والتفاعلية، السوسيوومترية التي تشكل الإطار النسقي العام.

في ختام هذه المحاضرة تظهر المدرسة النسقية تحولاً مهماً في دراسة الظاهرة الاتصالية، حيث انتقلت من التصور الخطي الذي ميّز المدرسة الوضعية إلى تصور دينامي يقوم على التفاعل والترابط بين عناصر العملية الاتصالية. فقد استندت هذه المدرسة إلى خلفية فلسفية ترى أنّ الظواهر لا تفهم من خلال عناصرها المنفصلة، بل من خلال العلاقات التي تربط بينها داخل نسق متكامل. ووفق هذا المنظور، لم يعد الاتصال مجرد نقل للمعلومة، بل عملية تفاعلية مستمرة تتشكل داخل سياق اجتماعي وتبنى من خلال تبادل الأدوار والمعاني.

لقد عكست النماذج الاتصالية التي تناولتها هذه المحاضرة هذا التحول النسقي بوضوح، إذ أبرز نموذج **شرام وماكلين** الطابع التفاعلي للعملية الاتصالية وأهمية التغذية الراجعة، بينما قدّم **غوفمان** من خلال النموذج الدرامي تصوراً للاتصال بوصفه تفاعلاً اجتماعياً تحكمه أدوار وتمثيلات رمزية داخل مواقف الحياة اليومية. كما ركّز **مورينو** في نموذج السوسيومترية

¹ - محمد حسين، غوفمان من جديد: التحليل النفسي والتباعد الاجتماعي، ماي 2020، <https://mana.net/6773>

² - خلود نزار خادام، عبد القادر مالفى، عرض الذات في العالم الرقمي: رؤية تحليلية وفق منظور إيرفينغ غوفمان الدرامي، مجلة الحوار الثقافي، المجلد، العدد 02، 2021، ص 118-119.

على شبكة العلاقات داخل الجماعات، مبرزاً أنّ الاتصال يتم داخل بنية اجتماعية تحدد اتجاهاته ومساراته، في حين أكد "إريك بيرن" في النموذج التبادلي أنّ الاتصال يقوم على تبادل تفاعلي تحكمه أنماط من العلاقات النفسية والاجتماعية بين الأفراد.

وتكشف هذه النماذج مجتمعة أنّ المدرسة النسقية أعادت تعريف الاتصال بوصفه عملية تفاعلية متعددة الأبعاد، تتداخل فيها العلاقات الاجتماعية، والأدوار، والسياقات، وأنّ وحدة التحليل لم تعد الرسالة أو العنصر المفرد، بل النسق الذي تنظم داخله عملية الاتصال. وبذلك أسهمت هذه المدرسة في توسيع فهم الظاهرة الاتصالية والانتقال بها من الطابع الميكانيكي إلى تصور أكثر دينامية وانفتاحاً على التفاعل الاجتماعي.

غير أنّ هذا التوجه، رغم أهميته ظلّ يركز على بنية العلاقات والتفاعلات داخل النسق، وهو ما مهّد لظهور مقاربات أخرى اهتمت ببناء المعنى والرمزية اللغوية داخل العملية الاتصالية، الأمر الذي يقود إلى دراسة المدرسة البنائية ونماذجها الاتصالية بوصفها مرحلة جديدة في تطور التفكير الاتصالي.

المحاضرة الثاني عشر: المدرسة البنائية ونماذجها الاتصالية:

تنبثق المدرسة البنائية في علوم الإعلام والاتصال من تحوّل فكري عميق عاشته العلوم الإنسانية في منتصف القرن العشرين، حين بدأ الباحثون يشكّكون في قدرة المقاربات الوضعية على تفسير الظاهرة الاتصالية بوصفها ظاهرة ميكانيكية قابلة للقياس الكمي المباشر. لقد تأسست البنائية على قناعة معرفية جوهرية مفادها أنّ المعرفة ليست معطى جاهزا يكتشف، بل تبني داخل الذهن الإنساني من خلال نشاطه الإدراكي والتأويلي، ومن ثمّ أصبح الاتصال حدثا يقوم على إنتاج المعاني وتفاوضها بين الفاعلين، لا مجرد نقل آلي للرسائل.

ترتبط البنائية فلسفيا بأعمال بياجيه وفيغوتسكي وباشلار، حيث يؤكد هؤلاء أنّ الفهم البشري يتشكّل عبر عمليات ذهنية (مثل الاستيعاب والملاءمة) وعبر الوساطة الرمزية والثقافية التي تمنح الأفراد أطرا للتأويل. في هذا المنظور، يصبح المتلقي فاعلا أساسيا لا يتلقّى الرسالة كما هي، بل يعيد تشكيلها وفق خبراته، وسياقاته، ومرجعياته، وعلاقاته الاجتماعية. إنّ الوحدة الأساسية في الاتصال البنائي هي المعنى، وليس الرسالة، كما أنّ العقل ليس مرآة للواقع بل صانع له¹. من هذا المنطلق، ظهرت النماذج الاتصالية البنائية لتعارض النسق الإجرائي للمدرسة الوضعية. فهي لا ترى الاتصال سلسلة خطية من خطوات محددة، بل عملية معقدة متعددة المستويات تتداخل فيها البنى الإدراكية، الرموز، السياقات الثقافية، والخبرات الترابطية. وبدل التساؤل: "كيف تنتقل الرسالة؟" تطرح البنائية سؤالاً أعمق: كيف يبنى المعنى؟ وبأي أدوات إدراكية ورمزية؟

إحدى أهم المقاربات البنائية التي أثرت في علوم الاتصال الحديثة؛ هي أعمال إبيرنيسيت أو Eberwein/Eberkünst التي ركزت على أنّ الاتصال يتمّ داخل بنى ذهنية مستبطنة توجه الفعل الاتصالي وتضبط طبيعة التفاعل. فالرسائل - في هذا التصور - لا تفهم إلاّ عبر المخططات الداخلية التي يحملها الأفراد، وهو ما يجعل الاتصال مفاوضة رمزية بالدرجة الأولى، حيث يحاول كل طرف إدراج المعلومة الجديدة داخل منظومته الإدراكية القائمة. ويندرج ضمن هذه الرؤية أيضا مفهوم التمثّلات الاجتماعية لدى موسكوفيتشي، التي تؤكد أنّ المجتمع نفسه ينتج أنماطا من المعنى تشكل وعي الأفراد وتحدد تأويلاتهم.

تستند النماذج البنائية كذلك إلى مبدأين إبستمولوجيين أساسيين²:

¹ -نور الدين هميسي، النظرية البنائية في بحوث الاتصال: المرجعيات، الأسس، والتيارات، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد 7، العدد 3، ديسمبر 2020، ص 233.

² -عادل بن مساعد الرشيد، النظرية البنائية، بحث مقدم في جامعة الملك سعود، <https://shms-prod.s3.amazonaws.com/media/editor/135873/%D8%A7%D9%84%D.pdf>

- 1- النسبية المعرفية: المعرفة ليست مطلقة بل تتشكل وفق موقع الذات في العالم، وتجاربها السابقة، ولغتها، ورموزها.
- 2- التوليدية (التشييد): المعنى لا ينقل، بل ينشأ أثناء التفاعل؛ ولذلك لا يمكن اختزال الاتصال في قنوات أو شفرة ثابتة، بل يجب فهمه كعملية دينامية تبني لحظة بلحظة.

على ضوء ذلك، أعادت المدرسة البنائية صياغة النماذج الاتصالية بحيث أصبحت عملية الاتصال ذات بعدين مترابطين:

أ- بعد إدراكي-معرفي: أساسه النشاط الذهني والتمثيلات الداخلية.

ب- بعد اجتماعي-ثقافي أساسه الرموز المشتركة، والتفاعل، وسياقات الخطاب.

سمح هذا التوجه بفهم ظواهر اتصالية جديدة مثل صناعة المعنى داخل الجماعات، بناء الهويات الرقمية، التفاعل التأويلي في بيئات الوسائط الجديدة، ودور السياق الثقافي في إعادة تفسير الرسائل. كما أنّ هذه النماذج ساهمت في تجاوز قصور النموذج الخطي الذي كان يختزل الفاعل في "مرسل" و"متلق"، لتقدّم رؤية أكثر تعقيداً ترى الأفراد كشركاء في التوليد المعرفي¹.

تشمل التطبيقات النموذجية للنماذج البنائية مقاربات متعدّدة، تختص كل واحدة منها بتسليط الضوء على آليات بناء المعنى: فبعضها يركز على مفهوم الإطار الإدراكي، وبعضها على وظيفة السياق الثقافي، وبعضها على ديناميات التفاعل الرمزي، لكنّ القاسم المشترك الذي يجمعها هو الإيمان بأنّ الاتصال ليس مجرد تقنية أو قناة، بل هو ممارسة معرفية وفكرية تعيد تشكيل العالم الرمزي والاجتماعي.

بذلك تقوم المدرسة البنائية على تصور مفاده أنّ الواقع الاجتماعي لا يعطى بشكل جاهز، بل يبني من خلال التفاعل واللغة والرموز، ووفق هذا المنظور، يصبح الاتصال عملية إنتاج للمعنى، وليس مجرد نقل للمعلومات. وقد أسهم هذا التصور في إعادة توجيه دراسة الظاهرة الاتصالية نحو الاهتمام بالسياق الاجتماعي والتمثيلات الذهنية والتفاعلات الرمزية بين الأفراد. ومن أهم خصائص المدرسة البنائية ما يلي:

- 1- الاتصال عملية بناء للمعنى: ترى المدرسة البنائية أنّ المعنى لا يوجد في الرسالة ذاتها، بل يبني من خلال التفاعل بين الفاعلين، فالمتلقي لا يستقبل الرسالة بشكل سلمي، بل يشارك في تأويلها وفق خبرته وسياقه الاجتماعي.
- 2- مركزية اللغة والرموز: تؤكد المقاربة أنّ اللغة ليست مجرد أداة لنقل المعلومات، بل وسيلة لبناء الواقع الاجتماعي. فالمعاني تتشكل من خلال الرموز والتفاعلات اللغوية داخل الجماعة.
- 3- أهمية السياق الاجتماعي: لا يمكن فهم العملية الاتصالية خارج السياق الذي تحدث فيه، فالمعنى تبعاً للموقف الاجتماعي، والعلاقة بين المتفاعلين، والظروف المحيطة بالاتصال.

¹ - نور الدين هميسي، مرجع سابق الذكر. ص233.

4- دور الفاعلين في إنتاج المعنى: يركز التصور البنائي على الفاعلين الاجتماعيين باعتبارهم منتجين للمعنى، فالعملية الاتصالية تقوم على التفاعل والتفاوض بين الأفراد حول دلالة الرسالة.

5- الطابع الدينامي للاتصال: ترى المدرسة البنائية أنّ الاتصال عملية متغيرة وغير ثابتة، حيث تتطور المعاني باستمرار تبعا للتفاعل والسياق الاجتماعي.

6- الاهتمام بالتمثيلات الاجتماعية: تؤكد المقاربة البنائية أنّ الأفراد يتواصلون انطلاقا من تمثيلات ذهنية واجتماعية مشتركة، تسهم في توجيه فهمهم للرسائل وتفسيرهم.

بعد عرض الأسس العامة للنموذج البنائي الذي ينظر إلى الاتصال بوصفه عملية بناء للمعنى من خلال التمثيلات والسياق، يمكن الانتقال إلى النماذج الاتصالية البنائية التي حاولت تجسيد هذه الرؤية على مستوى التحليل الاتصالي. فقد سعت هذه النماذج إلى تجاوز التصورات الخطية للاتصال، والتركيز على دور الفاعلين في إنتاج المعنى داخل سياقات اجتماعية محدّدة، وهو ما يتجسّد بوضوح في كل من النموذج البنائي لأبريك والنموذج الموقفي، باعتبارهما نموذجين يبرزان الطابع التفاعلي والسياقي للعملية الاتصالية.

1- النموذج البنائي عند أبريك (Abric):

يندرج نموذج أبريك ضمن المقاربة البنائية ضمن المقاربة البنائية التي تركز على دور التمثيلات الاجتماعية في بناء المعنى داخل العملية الاتصالية. ويستند هذا النموذج إلى أعمال المدرسة الفرنسية في علم النفس الاجتماعي، خاصة امتداد لأعمال موسكوفيتشي حول التمثيلات الاجتماعية، حيث ينظر إلى الاتصال باعتباره عملية إنتاج مشترك للمعنى تنطلق من الأطر الذهنية والاجتماعية التي يتقاسمها الأفراد داخل الجماعة.¹

يرى أبريك أنّ الأفراد لا يتواصلون انطلاقا من معان جاهزة أو موضوعية، بل من خلال تمثيلات اجتماعية تشكل مرجعا لفهم الواقع وتأويل الرسائل. وتؤدي هذه التمثيلات دورا تنظيميا في عملية الاتصال، إذ تحدد كيفية إدراك الرسالة، وبذلك يصبح الاتصال عملية تأويلية يتم من خلالها إعادة بناء المعنى وفق السياق الاجتماعي والثقافي الذي ينتمي إليه الفاعلون.²

يقوم نموذج أبريك على فكرة أساسية مفادها أنّ التمثيلات الاجتماعية تمتلك بنية داخلية منظمة تتكون من عنصرين رئيسيين هما النواة المركزية والعناصر المحيطية. تمثل النواة المركزية الجزء الأكثر ثباتا داخل التمثيلات، حيث تتضمن القيم والمعاني الأساسية المشتركة داخل الجماعة، وتؤدي دورا في إعطاء التمثيلات معناها العام وتماسكها. أما العناصر المحيطية

¹- Moscovici, Serge, **la psychanalyse, son image et son public**, Paris : PUF, 1994, pp 17-28,

²-Abric, Jean Claude, **Pratique sociales et représentations**, Paris : Presses Universitaires de France, 1994, pp 11-19.

فتمثل الجوانب الأكثر مرونة، إذ تتكيف مع السياق الاجتماعي وتسمح بتعدد التأويلات، كما تعمل على ربط النواة المركزية بالواقع اليومي المتغير.¹

يوضح أبريك من خلال هذه البنية أنّ الاتصال لا يتم عبر نقل مباشر للمعنى، بل عبر تفاعل التمثيلات الاجتماعية لدى الفاعلين. فكل فرد يستقبل الرسالة ويعيد تفسيرها وفق بنيته التمثيلية، ثم يتم التفاوض حول المعنى داخل التفاعل الاجتماعي، وبذلك يصبح المعنى نتيجة بناء مشترك يتشكل داخل الجماعة، وليس مجرد مضمون ثابت داخل الرسالة.² كما يبرز هذا النموذج أنّ التمثيلات الاجتماعية تؤدي وظائف متعددة داخل العملية الاتصالية، من بينها وظيفة تفسير الواقع، وتوجيه السلوك، وتنظيم العلاقات الاجتماعية. فالتمثيلات تسمح للأفراد بفهم الموضوعات المتداولة، وتحديد مواقفهم منها، وتوجيه تفاعلاتهم داخل الجماعة، لذلك فإنّ اختلاف التمثيلات يؤدي إلى اختلاف تفسير الرسائل، وهو ما يفسّر تنوع القراءات داخل العملية الاتصالية.

وتكمن أهمية نموذج أبريك في أنّه نقل دراسة الاتصال من تحليل عناصر العملية الاتصالية إلى تحليل بناء المعنى داخل الجماعة الاجتماعية، مع التركيز على الدور الذي تلعبه التمثيلات في توجيه الفهم والتفاعل. كما يؤكد الطابع البنائي للاتصال، حيث ينظر إلى المعنى بوصفه نتاجا للتفاعل الاجتماعي، وليس مجرد انعكاس للواقع.

2- النموذج الاتصالي الموقفي : Le modèle situationnel

يندرج النموذج الموقفي ضمن التحول الذي عرفته نظريات الاتصال من النماذج الخطية التبسيطية إلى النماذج التفاعلية والبنائية التي تنظر إلى الاتصال بوصفه عملية دينامية تتشكل داخل الموقف الاتصالي. فالمعنى لا يوجد مسبقا في الرسالة، ولا ينتج فقط من بنية التمثيلات، بل يتحدّد أساسا وفق السياق الذي يحدث فيه الاتصال والظروف التي تحيط به.

يرتكز النموذج الموقفي على خلفية فلسفية ومعرفية متعددة، استمدت عناصرها من البراغماتية والتفاعلية الرمزية والبنائية الاجتماعية، وهي اتجاهات أكّدت جميعها أنّ المعنى لا يوجد بشكل مسبق في الرسالة، بل يتشكل من خلال الاستعمال الاجتماعي والتفاعل بين الأفراد. فالبراغماتية ترى أنّ المعنى يرتبط بنتائج الفعل داخل المواقف الواقعية، في حين تؤكد التفاعلية الرمزية أنّ الأفراد يفسرون الرموز وفق السياق الاجتماعي الذي يوجدون فيه، أما البنائية الاجتماعية فتنظر إلى المعرفة باعتبارها بناء اجتماعيا يتشكل داخل التفاعل، وقد أسهمت هذه الخلفيات في ترسيخ فكرة أن الاتصال عملية سياقية تتحدد دلالتها تبعا للموقف الذي يتم فيه.³

¹-Abric Jean-Claude, **L'Organisation interne des représentations sociales : système central et système périphérique**, in Abric J-C (dir), **Structures et transformations des représentations sociales**, Neuchâtel : Delachaux et Niestlé, 1994, pp 73-84,

²-Jodelet, Denise, **les représentations sociales**, Paris : presse universitaires de France, 1989, pp36-41,

³-Blmer Herbert, **Symbolic Interactionism : Perspective and method**, Berkeley, university of California press, 1969, pp13-21,

ينطلق النموذج الموقفى من فكرة أساسية مفادها أن الرسالة لا تحمل معنى ثابتاً أو نهائياً، بل تكتسب دلالتها من الموقف الاتصالي الذي تتداول فيه، فالعلاقة بين الفاعلين، وطبيعة السياق الاجتماعي، والهدف من الاتصال، كلها عناصر تؤثر في تفسير الرسالة وبناء معناها. لذلك فإنّ المعنى لا ينتج عن الرسالة وحدها، وإنما يتشكّل من خلال التفاعل بين الفاعلين داخل وضعية اتصالية محددة، ويؤدي هذا إلى تعدد التأويلات، حيث يمكن للرسالة الواحدة أن تفهم بطرق مختلفة تبعاً لاختلاف المواقف الاتصالية.

كما يبرز هذا النموذج أنّ الموقف الاتصالي يتكون من مجموعة عناصر مترابطة تشمل الفاعلين الاتصاليين، والسياق الاجتماعي، والهدف من الاتصال، وطبيعة العلاقة بين الأطراف، إضافة إلى الزمان والمكان. وتتفاعل هذه العناصر داخل الوضعية الاتصالية لتوجيه عملية الفهم وبناء المعنى، فكل فاعل يدخل العملية الاتصالية وهو محاط بإطار اجتماعي وثقافي معين، ما يجعل تفسيره للرسالة مرتبطاً بالموقف الذي يوجد فيه، ومن خلال هذا التفاعل يتم التفاوض حول المعنى إلى أن يتشكل فهم مشترك أو متعدد داخل الجماعة.

ويؤكد النموذج الموقفى الطابع الدينامي للاتصال، حيث لا يكون المعنى ثابتاً أو نهائياً، بل يتغير بتغير السياق الاتصالي. فقد تحمل الرسالة الواحدة دلالات مختلفة حسب طبيعة الموقف، مثل اختلاف المعنى في السياق الرسمي أو غير الرسمي، أو في المواقف المهنية أو اليومية. وهذا ما يبرز أنّ الاتصال عملية سياقية متحركة، تتأثر بالظروف المحيطة وبطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الفاعلين.

وتكمن أهمية النموذج الموقفى في أنّه نقل دراسة الاتصال من التركيز على بنية الرسالة إلى تحليل شروط إنتاج المعنى داخل السياق الاجتماعي. كما أبرز الدور الذي يلعبه الموقف الاتصالي في توجيه التفاعل وتحديد دلالة الرسائل، وبذلك يسهم هذا النموذج في فهم تعدد القراءات داخل العملية الاتصالية، ويؤكد أن المعنى ليس معطى جاهزاً، بل بناء اجتماعي يتشكل داخل وضعيات تواصلية متغيرة¹.

في ختام هذه المحاضرة، يتضح أنّ النماذج الاتصالية البنائية قد أسهمت في إعادة توجيه دراسة الاتصال من التركيز على نقل الرسائل إلى تحليل بناء المعنى داخل التفاعل الاجتماعي. فقد أبرزت هذه النماذج، سواء من خلال نموذج أبريك القائم على التمثيلات الاجتماعية أو النموذج الموقفى الذي يركز على السياق الاتصالي، أنّ العملية الاتصالية ليست مساراً خطياً بسيطاً، بل عملية ديناميكية يتم فيها إنتاج المعنى بشكل مشترك وفق الأطر الاجتماعية والثقافية التي تحكم الفاعلين. وبذلك تؤكد المقاربة البنائية أنّ المعنى لا يعطى مسبقاً، وإنما يبنى داخل الوضعيات التواصلية من خلال التفاعل والتأويل والتفاوض الرمزي.

¹ - حسن عماد مكاي، ليلي السيد، **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص ص 312-318.

كما تكشف هذه النماذج عن التحول الذي عرفته علوم الإعلام والاتصال نحو مقاربات أكثر تعقيدا، تدمج البعد الاجتماعي والثقافي والسياقي في تحليل الظواهر الاتصالية، وهو ما يفتح المجال أمام إعادة التفكير في طبيعة الاتصال في ظل التحولات التكنولوجية المتسارعة. فمع ظهور البيئات الرقمية وتزايد التفاعل بين الإنسان والآلة، لم يعد بناء المعنى مقتصرًا على الفاعلين الاجتماعيين فقط، بل أصبح يتشكل أيضا داخل منظومات ذكية قادرة على إنتاج المحتوى وتوجيهه. ومن هذا المنطلق، تمهد هذه النتائج للانتقال إلى المحاضرة الموالية المعنون بالابستمولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال في عصر الذكاء الاصطناعي، حيث يطرح هذا التحول أسئلة جديدة حول طبيعة إنتاج المعرفة الاتصالية، وحدود بناء المعنى في ظل الخوارزميات، ودور الإبستمولوجيا في تحليل التحولات التي يشهدها الاتصال المعاصر.

محاضرة الثالث عشر: الإبستمولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال في عصر الذكاء الاصطناعي

تأتي هذه المحاضرة في سياق اجتهاد معرفي يسعى إلى قراءة التحولات العميقة التي يشهدها حقل علوم الإعلام والاتصال تحت تأثير الثورة الرقمية وتطور تقنيات الذكاء الاصطناعي. وهي محاولة لطرح أسئلة إبستمولوجية جديدة حول طبيعة المعرفة الاتصالية، وحدودها، ومناهجها، في زمن أصبحت فيه البيانات هي المادة الأولية لإنتاج الحقيقة، وصارت الخوارزميات فاعلا معرفيا موازيا للإنسان.

لقد استلهم هذا الاجتهاد من مشروع لوسيانو فلوريدي في الإبستمولوجيا المعلوماتية؛ ذلك المشروع الذي يرى أنّ العالم لم يعد مجرد فضاء اجتماعي أو ثقافي، بل أصبح إنفوسفيراً تتداخل فيه الكيانات البشرية والرقمية ضمن بيئة معلوماتية واحدة. ووفق هذا المنظور، فإن فهم الظاهرة الاتصالية اليوم لا يمكن أن ينفصل عن منطق إنتاج البيانات، ومعالجة المعلومات، وسياسات الذكاء الاصطناعي، بما يفرض إعادة التفكير في مفاهيم أساسية مثل الحقيقة، والتمثيل، والتواصل، والمصادقية، والمعرفة العلمية نفسها.

وفي المقابل، تستلهم المحاضرة من تراث يورغن هابرماس الذي جعل من الفعل التواصلي أساساً للعقلانية الحديثة، ومن الشفافية والمشاركة والمجال العمومي شروطاً للمعرفة المتحررة. غير أنّ صعود الذكاء الاصطناعي يعيد طرح سؤال هابرماس المركزي:

كيف تمارس العقلانية التواصلية في فضاء تتحكم فيه المنصات والخوارزميات؟

وإلى أي مدى يمكن للمعرفة الاتصالية أن تبقى نقدية وعمومية في ظل اقتصاد بيانات يقوم على الاحتكار والمراقبة والتنبؤ السلوكي؟

من هنا، تهدف هذه المحاضرة إلى تحديد الأطر الإبستمولوجية الجديدة التي باتت تحكم حقل علوم الإعلام والاتصال، وتفكيك التحولات التي أحدثها الذكاء الاصطناعي في مفاهيم المعرفة والمنهج، ثم استشراف قدرة هذا الحقل على تحديد أدواته العلمية للحفاظ على وظيفته النقدية والأكاديمية. كما تحاول المحاضرة بناء جسر بين الإبستمولوجيا الكلاسيكية التي انطلقت من فلسفة العلم، وبين الإبستمولوجيا الرقمية التي تقترحها فلسفة المعلومات، سعياً إلى فهم مستقبل المعرفة الاتصالية في عالم ما بعد الرقمنة.

إنّ هذا العمل لا يدّعي تقديم يقينيات نهائية، بل يقترح إطاراً للتفكير والتأمل في واحدة من أكثر القضايا تعقيداً

هل نحن أمام تشكّل ابستمولوجيا جديدة لعلوم الإعلام والاتصال؟
وإذا كان الأمر كذلك، فهل ستكون هذه الإبستمولوجيا قادرة على حماية الأسس النقدية للمعرفة، أم ستعيد تشكيل حدود المنهج والمفهوم في زمن أصبحت فيه الخوارزميات جزءاً من عملية الفهم ذاتها؟

1: تحولات الإبستمولوجيا في عصر الرقمنة والذكاء الاصطناعي

تشهد الإبستمولوجيا اليوم منعطفاً جديداً بفعل الثورة الرقمية التي لم تعد مجرد تطوّر تقني، بل أصبحت إطاراً معرفياً يعيد تشكيل شروط إنتاج المعرفة ذاتها. فالمعرفة في عصر الذكاء الاصطناعي لم تعد قائمة على المنهج بمعناه الكلاسيكي فقط، بل أصبحت تتحدد من خلال الخوارزميات، الضخامة البيانية، وأنماط التعلم الآلي. هذا التحول أحدث انتقالاً من "الذات العارفة" بوصفها مركز العملية المعرفية، إلى "النسق المعلوماتي" الذي يشارك في صياغة الحقيقة عبر نماذج احتمالية وعمليات معالجة لا واعية.

وبهذا المعنى، نحن أمام قطيعة إبستمولوجية جديدة تعيد طرح سؤال: من ينتج المعرفة؟ وما حدود الموضوعية حين يصبح الحكم العلمي نفسه نتاجاً لنظام ذكي يعمل وفق منطق الحساب لا منطق التأمل الفلسفي؟ إنها مرحلة تعيد صياغة العقل العلمي نحو "عقل خوارزمي".

2- أثر الثورة الخوارزمية على علوم الإعلام والاتصال

تأثرت علوم الإعلام والاتصال بصورة جوهرية بظهور الذكاء الاصطناعي، إذ انتقلت من دراسة "الفعل الاتصالي" كعملية إنسانية، إلى تحليل البيئة الرقمية كنسق مستقل يوجّه السلوك البشري. لم تعد الرسالة الاتصالية حكراً على الإنسان؛ بل أصبح الروبوت الصحفي، خوارزميات التوصية، وأنظمة التصنيف التنبؤية أطرافاً فاعلة في إنتاج المحتوى. هذا الواقع يفرض على الطالب فهم أن الظاهرة الاتصالية لم تعد خطية، بل أصبحت متعددة المستويات، تتداخل فيها عناصر لا بشرية، تقوم بالاختيار، والترشيح، والتحليل، والتنبؤ. ونتيجة لذلك، برزت أسئلة إبستمولوجية جديدة:

أ- ما طبيعة الحقيقة الاتصالية حين تصنعها الخوارزميات؟

ب- وما دور الذكاء الاصطناعي في تشكيل الرأي العام؟

ج- وهل ما زال ممكناً الاحتفاظ بمبدأ الحياد والتوازن؟

كل هذه الأسئلة تشير إلى أن علوم الإعلام تدخل اليوم مرحلة "التأطير الخوارزمي" الذي يغيّر بنية المجال كلياً.

3: هل نحن أمام ابستمولوجيا رقمية؟

يذهب العديد من المفكرين المعاصرين، وعلى رأسهم **لوتشيانو فلوريدي**، إلى أننا أمام ولادة حقول جديد يسمى الإبستمولوجيا الرقمية. يعدّ فلوريدي أن المعرفة أصبحت تنتج داخل الإنفوسفير؛ أي البيئة الكونية للمعلومات التي تتجاوز الحدود الفيزيائية.

الإبستمولوجيا الرقمية تقوم على مبادئ جديدة:

- المعرفة كمعالجة معلوماتية لا كتمثيل عقلي فقط.
 - الذات الموزعة التي تتكوّن من الفرد والخوارزمية معا
 - التلاشي النسبي للحد بين المنتج والمستهلك عبر منصات تشاركية.
 - قابلية التحيّز بوصفها جزءا بنيويا في كل نظام ذكي.
- بناءً على ذلك، لم يعد هدف الإبستمولوجيا هو البحث عن الحقيقة فقط، بل فهم البنى المعلوماتية التي تولّدها، وضبط أثرها الأخلاقي والاجتماعي.

4- الوظيفة النقدية للإبستمولوجيا في ظل الذكاء الاصطناعي

تواجه الإبستمولوجيا اليوم تحدّيا حقيقيا: كيف تحافظ على وظيفتها النقدية في عالم تحكمه الخوارزميات؟ فمن جهة، تبدو الأنظمة الذكية قادرة على إنتاج معرفة سريعة وفعّالة، لكنها من جهة أخرى قد تُعيد تشكيل الواقع بناء على تحيّزات غير مرئية. هنا تظهر ضرورة ابستمولوجيا نقدية جديدة، تقوم على:

- مراقبة أثر البيانات الضخمة على استقلالية الفرد.
- نقد أنظمة التصنيف الخوارزمية التي تتحكم في سيرورات الإعلام والاتصال
- كشف المناطق التي يفقد فيها الإنسان سلطة التقييم والاختيار.

الإبستمولوجيا بهذا المعنى تصبح حارسة أخلاق المعرفة، وتعمل على ضبط الحدود بين التقنية والإنسان.

5- فلوريدي ونموذج الإنفوسفير

قدّم فلوريدي تصورا معرفيا واسعا يقوم على أن العالم أصبح بيئة معلوماتية شاملة، وأننا نعيش داخل فضاء رقمي يمتد إلى كل المجالات.

انطلق لوسيانو في بناء فلسفته من مجموعة من الأفكار تتمثل فيما يلي:

- الإنسان لم يعد مستخدما للتقنية، بل أصبح كيانا معلوماتيا يعيش داخل شبكة بيانات.
- الواقع نفسه أصبح قابلا للقياس والتنبؤ والمعالجة.

- المعرفة ليست انعكاسا للعالم، بل بناء معلوماتيا تشارك الخوارزميات في صياغته.

فكر فلوريدي يسمح بفهم أن علوم الإعلام والاتصال في عصر الذكاء الاصطناعي لا يمكن فصلها عن البيئة الرقمية الكبرى التي تعيد تشكيل المدركات، والتمثيلات، وأنماط التفاعل الإنساني.

يتضح من كل ما سبق أن العلاقة بين الإستيمولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال أصبحت علاقة عضوية لا يمكن فصلها. فالتطورات الرقمية لم تغير فقط أدوات الاتصال، بل أعادت تشكيل الأسئلة المعرفية نفسها.

نحن اليوم أمام مرحلة معرفية جديدة يمكن تسميها بمرحلة الإستيمولوجيا الخوارزمية، حيث يصبح فهم المنظومات الذكية شرطا لفهم الواقع الاتصالي.

وهذه التحولات تفرض على الطالب إعادة النظر في المفاهيم التقليدية حول الحقيقة، الموضوعية، المتلقي، الفاعل الاتصالي، وسلطة المعرفة. إنّها مرحلة تستدعي التفكير أكثر من الحفظ، والتحليل أكثر من الوصف.

خاتمة:

تسعى هذه المطبوعة، في حدود ما تسمح به طبيعة المادة وتعقيدها النظري، إلى تهيئة الطالب لفهم البعد الإستمولوجي العميق الكامن وراء تشكّل المعرفة في علوم الإعلام والاتصال. وقد حاولنا، عبر المسار الذي بنيناه في مختلف المحاضرات، أن نوضح كيف أن كل نموذج اتصالي، وكل مدرسة فكرية، لا ينبثق في فراغ، بل يجد جذوره في خلفيات فلسفية ومعرفية أوسع تشكّل طريقة النظر إلى الظاهرة الاتصالية، وتوجّه آليات تحليلها وتفسيرها.

وبالرغم من الصعوبة البيداغوجية التي قد يطرحها هذا النوع من المقاربات، فإن إدراج الإستمولوجيا في تكوين الطالب الجامعي يظل خطوة ضرورية، لأنها تسمح له بتمييز الأسس التي تقوم عليها النماذج والمفاهيم التي يستخدمها، وتساعد على الانتقال من التلقي السطحي إلى الفهم النقدي المنتج للمعرفة. كما أنّ الوعي بالسياقات المعرفية التي تشكّلت داخلها المدارس الوضعية، والنسقية، والبنائية، وصولاً إلى الأسئلة الراهنة التي يطرحها عصر الذكاء الاصطناعي، يمنح الطالب قدرة أفضل على إدراك التحولات التي يعيشها قطاع الإعلام، وتحليلها ضمن رؤية علمية متماسكة.

ولا تدّعي هذه المطبوعة الإحاطة بكل شيء، لكنها تمثل إطاراً تمهيدياً يسمح للطالب ببناء أدواته المفاهيمية الخاصة، وبفهم تطوّر الفكر الاتصالي عبر الزمن، واستيعاب موقع المعرفة الإعلامية اليوم داخل التحوّل الرقمي والذكائي المتسارع. ويبقى الهدف النهائي هو تحفيز طالب علوم الإعلام والاتصال على التفكير، والمساءلة، والربط بين الفلسفة والواقع الاتصالي، بما يعزّز قدرته على التحليل العلمي بعيداً عن التبسيط أو الانغلاق النظري.

قائمة المراجع:

أ-الكتب بالعربية

- 1- محمد غلاب، الفلسفة الإغريقية، القاهرة، ط1، 1938.
- 2- نلز غيلجي، غنار سكريبك، تاريخ الفكر الغربي: من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012..
- 3- عبد الغفار مكاوي، مدرسة الحكمة، مؤسسة هندواي للنشر، 2018.
- 4- جورج مينوان، الكنيسة والعلم: تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي: ترجمة مورييس جلال، الجزء1، ط1، 2005.
- 5- مجدي كامل، ديكارت: أبو الفلسفة الحديثة..ورحلته الشهيرة من الشك لليقين حياته فلسفته أفكاره ومبادئه، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة1، 2013.
- 6- رينيه ديكارت، مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم 1637، ترجمة جميل صليبا، الطبعة 3، 2016.
- 7- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، (بدون تاريخ).
- 8- عادل مصطفى، أوهام العقل: قراءة في الأورغانون الجديد لفرانسيس بيكون، مؤسسة هندواي، 2018.
- 9- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984.
- 10- ايمانويل كانط، نقد العقل الخفض، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، ط1، لبنان، 2005.
- 11- علي عابد شاهرودي، نظرية كانط في معرفة العلوم: حين يحار العقل في موضوعاته، مجلة الاستغراب، 2017، 2014.
- 12- علي حسين كركري، الاستمولوجيا في ميدان المعرفة، شبكة المعارض، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 2010.
- 13- محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1976.
- 14- غنيمة هارون، ابستمولوجيا العلوم الانسانية عند سالم يفوت، (ابستمولوجيا العلوم الانسانية: في الفكر العربي والفكر الغربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2017.
- 15- عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت، درس الابستمولوجيا، ط3، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2007،
- 16- جان بياجييه، الابستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيّد نقادي، دار العالم الثالث للنشر، بيروت، 2004
- 17- هنري بوانكاريه، قيمة العلم، ترجمة الميلودي شغموم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.
- 18- روبر بلانشيه، نظرية المعرفة العلمية(الابستمولوجيا)، ترجمة حسن عبد الحميد، مطبوعات الجامعة، 1986،

- 19- محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1976،
- 20- غنيمه هارون، ابستمولوجيا العلوم الانسانية عند سالم يفوت، (ابستمولوجيا العلوم الانسانية: في الفكر العربي والفكر الغربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2017.
- 21- عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت، درس الابستمولوجيا، ط3، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2007.
- 22- جان بياجيه، الابستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيّد نفادي، دار العالم الثالث للنشر، بيروت، 2004.
- 23- هنري بوانكاريه، قيمة العلم، ترجمة الميلودي شغوم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.
- 24- روبر بلانشيه، نظرية المعرفة العلمية (الابستمولوجيا)، ترجمة حسن عبد الحميد، مطبوعات الجامعة، 1986.
- 25- علي حسن كركوري، الابستمولوجيا في ميدان المعرفة، شبكة المعارض لبنان، بيروت، الطبعة الاولى 1، 2010.
- 26- غاستون باشلار، فلسفة الرفض، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 1983.
- 27- غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1982.
- 28- كامل محمد محمد عويضة، كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1995.
- 29- رشيدة عبة، كارل بوبر والعلوم الإنسانية (بين الوحدة والتعددية المنهجية)، استكتتاب جماعي (ابستمولوجيا العلوم الإنسانية: في الفكر العربي والفكر الغربي المعاصر).
- 20- لخضر مذبوح، التفتح في فلسفة كارل بوبر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، الطبعة 1، 2009.
- 21- توماس كوهن، بيئة الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992.
- 22- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1997.
- 23- بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وسمير حنا صادق، المجلة الأعلى للثقافة، مصر، 2000.
- 24- ميشال فوكو، السلطة والمعرفة نظام الخطاب، بيروت، دار التنوير، ط1، 1984.
- 25- ديفيلر ميلفين، روكيتش ساندربول، نظريات وسائل الاعلام والاتصال، ترجمة كمال عبد الرؤوف، 1992.
- 26- مجموعة من المؤلفين، مدرسة فرانكفورت النقدية: جدل التحرر والتواصل والاعتراف، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2012.
- ج-المراجع باللغة الأجنبية**

1- Jean-Paul Dumont, les Présocratiques (PUF- collection Que sais- je ?, n°1270

2-Edward Hussey, the Presocratics, Duckworth, <https://plato.stanford.edu/archives/fall2023/entries/presocratics/>

- 3-Toulim, S, **Cosmopolis : The Hidden Agenda of Modernity**, University of Chicago Press.
- 4- Alexandre Koryé, **From the closed world to the infinite universe**, Ph.D, Ecole Pratique des Hautes etudes , Sorbonne, Paris,2005.
- 5- Edward N. Lorenz, **Deterministic Nonperiodic Flow**, journal of the atmospheric sciences, 7 January 1963.
- 6-Piaget JEANS, **logique et connaissance scientifique**, Paris, Gallimard ., clop, id, 1967.
- 7-Piaget JEANS, **logique et connaissance scientifique**, Paris, Gallimard encycl., clop, id, 1967.
- 9- Karl Popper, **La Quête inachevée**, trad., de Renée Bouveresse (Paris : Calmann-Lévy, 1981).
- 10-Karl Popper, **la connaissance objective**, traduction partielle de Catherine bas tyns, Edition complexes, Bruxelles, 1985.
- 11-Michael Foucault, **histoire de la sexualité, la volonté du savoir**, France Gallimard, 1976.
- 13-Norbert Weiner, **Cybernetics: or control and communication in the Animal and the Machine**, the MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, 1948.

المجلات:

- ¹ - جميل خليل نعمة المعلمة، الألوهية في الخطاب الفلسفي قبل سقراط، مجلة كلية الفقه، المجلد 2، العدد 3، 2006.
- 2- ناهد إبراهيم محمد محمد، قراءة جديدة لفلسفة هيراقليطس في ضوء تصور الحداثة السائلة عند زيجموند باومان: دراسة تحليلية نقدية مقارنة في الأصول اليونانية للحداثة، مجلة البحث العلمي في الآداب، الجزء العاشر، العدد 19، سنة 2018،
- 3- زهور حمير العين، صورة المنطق الأرسطي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، فيفري 2020.
- 4- نعيمة بورحلة، المنهج الرياضي في فلسفة روني ديكارت، مجلة المعيار، المجلد 14، العدد 1، جوان 2023.

- 5-غادة عبد الستار مهدي، المنهج بين فرانسيس وكارل بوبر دراسة تحليلية مقارنة، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم، العدد 34، جويلية 2019.
- 6-مهرة حامد محمد صقر، تأثير الفراشة: الحركة ما بين قوانين نيوتن الحتمية ونظرية الفوضى، في أعمال تصويرية من فن "الفراكتال" الرقمي، مجلة العمارة والعلوم الانسانية المجلد السابع، العدد 35، سبتمبر 2022.
- 7-فاهم بن عاشور، براديجم التعقيد عند إدغار موران، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 15، العدد 1.
- 8-آمنة عبد السلام الزائدي، مفهوم نظرية المعرفة، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب.س.ط).
- 9-مليكة جابر، اسهام الاستمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب.س.ط).
- 10-آمنة عبد السلام الزائدي، مفهوم نظرية المعرفة، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب.س.ط).
- 11-مليكة جابر، اسهام الاستمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع، مجلة كلية الآداب، العدد 3، (ب.س.ط).
- 12-بشير ولد حدوشية، ابستمولوجيا العلم عند أوغست كونت، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 2، العدد 2، 2013.
- 13-فوزي تيايبي، مقارنة نظرية لتجديد العوائق الاستمولوجية للحصول على المعرفة العلمية في ظل ابستمولوجيا غاستون باشلار، مجلة علوم الأداء الرياضي، المجلد 3، العدد 1، جوان 2021.
- 14-عناني نور الدين، التحليل النفسي في مشروع باشلار، مجلة أبعاد، العدد 7، ديسمبر 2018.
- 15-محمد بن سباع، انتقادات فلاسفة العلم لمبدأ القابلية للتكذيب عند كارل بوبر، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، العدد 1.
- 16-يمينة بن سهيلة، كارل بوبر وانفتاح العقلانية النقدية، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد 8، العدد 1، جوان 2021.
- 17-عبد الحق كويفن، قراءة ومناقشة اسهامات وأطروحات توماس كوهن في مجال ابستمولوجيا من خلال كتابه (بنية الثورات العلمية)، مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، المجلد الرابع، العدد الثاني، مارس 2024.
- 18-نصيرة جعيداني، إشكالية تطور العلم عند توماس كوهن، مجلة أفكار وآفاق، المجلد 8، العدد 2، ديسمبر 2008.
- 19-محمود زعيم عباس يوسف، فلسفة العلم عند توماس كوهن، مجلة كلية الآداب، الجزء 2، العدد 52، 2021.
- 20-هوازي شاذلي، بول فيرابند من صرامة المنهج إلى التعددية المنهجية، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 1، عدد 1، سبتمبر 2012.
- 21-مشقق ابتسام، سؤال السلطة ورهانات التفكير في الحقيقة والذات في فكر ميشال فوكو، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد 11، العدد 3، جوان 2022.
- 22-منير طي، وسائل الاعلام والاتصال عبر التاريخ الحديث كرونولوجيا التطور من الاتصال غير اللفظي إلى الميديا الجديدة، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 6، العدد 3، ديسمبر 2020.
- 23-منير طي، وسائل الاعلام والاتصال عبر التاريخ الحديث كرونولوجيا التطور من الاتصال غير اللفظي إلى الميديا الجديدة، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 6، العدد 3، ديسمبر 2020.
- 24-عبد الله الزين الحيدري، ابستمولوجيا علوم الاعلام والاتصال، المجلة العربية للإعلام، عدد 17، 2018.
- 25-عبد الله الزين الحيدري، ابستمولوجيا علوم الاعلام والاتصال، المجلة العربية للإعلام، عدد 17، 2018.

- 26- سارج برولكس، التياران النقدي والإمبريقي في بحوث ونظريات الاتصال، ترجمة عيسى شرايطية، المجلة الجزائرية للاتصال، المجلد 7، العدد 16، العمل الأصلي 1997. ص ص 167-168.
- 27- نصيرة جعيداني، تطبيق القانون العلمي في دراسة الظاهرة الاجتماعية عند أوغست كونت، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد 28، ص ص 134-135-136.
- 28- محمد رضا العيفة، اسهامات المقاربة النسقية في تطور الدراسات الاتصالية: رؤية ابستمولوجية ونظرية، مجلة الرسالة للدراسات الاعلامية، المجلد 7، العدد 4، فيفري 2024.
- 29- عايدة حذّار، نظريات الاتصال من مفهومه العام إلى مدرسة بالو ألتو، مجلة مؤشر للدراسات الاستطلاعية، المجلد 3، العدد 10.
- 30- هالة دغمان، المقاربة النسقية وتفسير الظاهرة الاتصالية: قراءة نظرية مفاهيمية، مجلة المدونة، المجلد 11، العدد 1، دوان 2024.
- 31- ايمان بن غانم، نظرية التحليل التفاعلي، أسسها النظرية مبادئها الأساسية وتطبيقاتها العلاجية، مجلة الروائر، المجلد 9، العدد 1، 2025.
- 32- كريمة بن صغير، القياس السوسيوومتري: الأساس النظري وبعض المبادئ التطبيقية، مجلة حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 1.
- 33- خلود نزار خادم، عبد القادر مالفني، عرض الذات في العالم الرقمي: رؤية تحليلية وفق منظور ايرفينغ غوفمان الدرامي، مجلة الحوار الثقافي، المجلد، العدد 02، 2021.
- 34- خلود نزار خادم، عبد القادر مالفني، عرض الذات في العالم الرقمي: رؤية تحليلية وفق منظور ايرفينغ غوفمان الدرامي، مجلة الحوار الثقافي، المجلد، العدد 02، 2021.
- 35- نور الدين هميسي، النظرية البنائية في بحوث الاتصال: المرجعيات، الأسس، والتيارات، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد 7، العدد 3، ديسمبر 2020.

36-Serge Peoulx, the birth of communication sciences in the military environnement of 1940s, 2001, traduit par Abdelhamid Sahel, 2024, العدد 1، المجلد 6، مجلة المصداقية،

المواقع الإلكترونية

- 1- George Sarton, introduction on to the history of the science, volume 1, 1924, disponible: <https://archive.org/details/introductiontohi01sart/page/16/mode/2up>
- 2- Peter Burke, the renaissance européenne, traduction Paul Chemla, édition du Seuil, 2000, <https://fr.scribd.com/document/595679506/La-Renaissanceorghttps:org>

3-علي أصغر مصلح ورحمة الله موسوي مقدم، الإنسان والله في فلسفة ديكارت: دراسة نقدية في رؤية العلامة السيّد محمد حسين الطبطبائي، مجلة الاستغراب، العدد 24، 2021.

تم الإطلاع عليه بتاريخ 7-12 <https://istighrab.iicss.iq/files/investigations/4m1gn9es1.pdf>

4-غيضان السيد علي، ديكارت والمنهج العقلي، مجلة مقدمات، العدد5، جانفي 2018، ص 76
pdf تم الاطلاع عليه بتاريخ 16-7-2025.
<file:///C:/Users/mon%20pc/Downloads/%D8%AF%D9%A%D9%83%D8%A7%D>

5-مصطفى محمد قسيبات، الشك واليقين عند ديكرت، المجلة العلمية لكلية التربية، العدد الرابع <https://journals.misuratau.edu.ly/edu/upload/file/R-2311-.pdf>.

6- شهاب الدين مهدي، ديفيد هيوم وتطبيقه للمنهج التجريبي على الفلسفة: دراسة مبدأ السببية نموذجاً، <https://istighrab.iicss.iq/files/investigations/3jr9c0wrz.pdf>

7-حليمة بولنوار، دافيد هيوم وإشكالية المنهج، <https://ds.univ-oran2.dz:8443/jspui/bitstream/123456789/2723/1/.pdf>

8-Hume's Two theories of causation, http://fitelson.org/125/Beauchamp_chapter_1.pdf

9- عايدة عبد الحميد عبد الرحمن، نظرية المعرفة عند كانط،
https://bfarc.journals.ekb.eg/article_61175_e9d3f71ba9be3b12af19a512426bf1b5.pdf

10- هيثم السيد، ياسر مصطفى، نظرية الكوانتم بين العلم والفلسفة: مناظرة <file:///C:/Users/mon%20pc/Downloads/%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-.pdf>، أكاديمية.

11-Ahmed Romdhani, **la théorie du Chaos**, <https://fr.scribd.com/document/596150615/la-theorie-du-chaos>.

12-Qu'est- ce que l'épistémologie, <https://www.editions-ellipses.fr/index.php?>

13-رافد قاسم، هاشم، ابستمولوجيا المعرفة عند غاستون باشلار،
<https://iasj.rdd.edu.iq/journals/uploads/2024/12/19/5ad32609201d4368c5322062cff81113.pdf>

14- Michael Buhler, **Schémas d'études et modèles de communication**, 1974, https://www.persee.fr/doc/colan_0336-1500_1974_num_24_1_4152.

15-Le modèle de communication de Schramm

, avril 2025, <https://www.managementstudyguide.com/fr/schramm-model-of-communication.htm>

16- Schramm communication Model, <https://portal.raisethebar.co.uk/wp-content/uploads/2021/07/Schramm-Communication-Model.pdf>

17-Modele de l'iceberg :comment communiquons- nous en tant qu'individus, <https://www.weka.ch/themes/competences-personnelles/gestion-de-soi/gestion-t-quindividus/>

18-علي أسعد وطفة، دراميات التفاعل الرمزي في نظرية إيرفينغ غوفمان: المدخل الدرامي لفهم السلوك البشري، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، يونيو 2023، <https://tanwair.com/archives/17223>

19-محمد حسين، غوفمان من جديد: التحليل النفسي والتباعد الاجتماعي، ماي 2020، <https://mana.net/6773>

20- عادل بن مساعد الرشيدى، النظرية البنائية، بحث مقدم في جامعة الملك سعود، <https://shms-prod.s3.amazonaws.com/media/editor/135873/%D8%A7%D9%84%D9%.pdf>